سنوات في اليمن وحضرموت

مؤلفة هذا الكتاب، وهي طبيبة ألمانية، عاشت في اليمن وفي حضرموت عشر سنوات تقع بين عام ١٩٤٧ – ١٩٥٧

للطبيبة الألمانية ايفا هيويك

عثر أحد الحضارم المتعاونين من مشروع الموسوعة الحضرمية على نسخة شبه تالفة من هذا الكتاب في كنيسة مسيحية بإحدى القرى اللبنانية وقد وصل للكنيسة كتبرع من أحد طلاب تلك القرية لعدم حاجته لهذا الكتاب فقام بإيداعه في الكنيسة كإهداء منه لها وقد قام بإرسال النسخة التالفة بعينها لنا لنقوم بطباعتها .. وبعد قراءة الكتاب والشعور بأهميته .. وبعد العزم على طباعته واجهتنا إشكالية بسيطة حيث أن المترجم (لبناني) وفي أثناء الترجمة وردت عنه بعض الأخطاء الإملائية لعدم معرفته بمفردات البلاد الحضرمية والأسماء المستخدمة هناك .. وللأمانة كتبناها كما هي ...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موسوعة حضرموت الثقافية

www.hdrmut.net

http://www.hdrmut.net/encyclopedia

مشروع (موسوعة حضرموت الثقافية) على الانترنت.
بعون الله تم العزم من قبل ثلة من أبناء حضرموت على العمل على جمع مصادر الثقافة و التراث الحضرمي في موسوعة على الانترنت تكون هي المصدر الأكبر والأكثر انتشارا في الشبكة.

في هدف نبيل من شأنه التعويض عن ما نال الإرث الثقافي الحضرمي من تهميش وتجاهل متعمد ابتدأ منذ أيام الدولة الأموية وحتى أيام قريبة، فقد عقد العزم مجموعة من شباب وأعيان الثقافة الحضرمية على العمل على جمع اكبر موسوعة ثقافية عن الإرث الثقافي الحضرمي في شتى مجالات المعلومة سواء من أدب أو تاريخ أو جغرافيا أو فولكلور أو فنون أو حرف أو أي مجال يحمل معلومة أو معلم بارز من كل ما أطلق عليه اسم معلومة من صنوف الثقافة المتعددة والمتشعبة.
وانه وإذ عقدوا هذه الثلة هذه الراية نحو هذا الهدف النبيل فهم يستنجدون بكل من يملك معلومة أو مقال أو حتى خبر ينقل شفويا من كتابته وإرساله مذيلا باسمه بأي من الطرق التي سنوضحها تاليا.. على عزم نشر هذه الموسوعة بإصدارات متتالية بجميع الوسائل الممكنة.. ومنها على سبيل المثال.
طباعة كتب تكاملها عن أي من مجالات المعلومة في حضرموت ككتب التاريخ والأدب والشخصيات وتضمينها الموسوعة كقائمة بأكثر المصنفات الحضرمية المكتوبة وتوفير خدمة قراءتها للمتصفح على مواقع الانترنت .
جمع أكبر قدر من الأبحاث العلمية والغير علمية عن إقليم حضرموت ما كتبها أبناء حضرموت او سواهم من العرب والمستشرقين مما لقي حظ النشر او لم يلق حظا والعمل على نشرها في الموسوعة.
جمع معجم لأبرز الشخصيات الحضرمية سواء من التاريخ أو رجال الدين والعلوم والاقتصاد وكل من كان له دورا بارزا في المهجر أو الموطن في جهد مطلوب لتعريف الناس بشخصيات عدة أثرت التاريخ والفكر والعلم بإسهامات قيمة .
النشر في الانترنت – كأسهل وسيلة ممكنة وذات انتشار واسع -.
العمل على تنسيق المواد وتنقيحها وفهرستها في أبواب ليسهل على الباحث العثور عليها ومن ثم العمل على ترتيبها كمواد تنشر على هيئة مطبوعة ضخمة تحمل اسم (موسوعة حضرموت الثقافية).
جمع التبرعات المتاحة للعمل على طباعتها وتوزيعها على المكاتب ذات الصيت الذائع
إلا أن العمل في حد ذاته ليس مجرد حشو للمادة الإنشائية بقدر ماهو مطلوب منه أن يكون معلوماتيا أدبيا يستطيع من خلاله الباحثين عن المادة من شتى أجناس البحّاث والدارسين الاعتماد عليه كمصدر غني بإرث ثقافي ضخم من تراث أحد أهم أقطار البلاد العربية وذات ركن أساسي أولا في نشأة العرق العربي عامة وثانيا في نشر الدين الإسلامي لأصقاع مظلمة من المعمورة .
لذا فأننا نستعين بالله أولا ثم بكل أبناء العرب عموما وأبناء العرب خصوصا في المشاركة معنا في هذا العمل الذي نرجوه لله أولا ثم للعرب ثم لبلاد شملتنا بكرمها ومنحتنا اسما نعتز به بين أخوتنا من بقية الأقطار العربية الجارة.

مكان عرض الموسوعة ريثما تكتمل على الرابط الآتي :
http://www.hdrmut.net/editor.php?category=٣٢
طريقة المساهمة بنشر نص : إذا كان لديك نصا يرجى إتباع الخطوات الآتية لنشره .
يرجى التنبه لضرورة تذييل الموضوع باسم كاتبه أو كاتبه وناقله.

طريقة إرسال النص للموسوعة بخيارين متاحين .
١- إضغط هنا ثم نسق النص تنسيقا حسنا ثم اضغط على زر موافق .
٢- أرسل النص على البريد webmaster@hdrmut.net وسنقوم بإضافته نيابة عنك.
مع تحيات فريق إعداد موسوعة حضرموت الثقافية.

شبكة حضرموت العربية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدمة المعرب

لم تكن ثورة اليمن المباركة قد وقعت بعد، عندما فكرت دار الطليعة الزاهرة، في تعريب الكتاب.

لكن الثورة المباركة، ما عتمت أن وقعت في اليمن الذي بات سعيداً حقاً، وما لبث المارد العربي الجبار، أن اطلق من القمقم الذي ظل حبيساً فيه قروناً واجيالاً، لا عد لها ولا حصر، ليدك صروح أعتى نظام رجعي عرفته دنيا العرب، ولقضي على نظام ملكي طاغ ومستبد، فرض بجوره وعسفه، على الشعب حياة الظلم والجهل والفقر والمرض، وليكون نقطة الإنطلاق، في تحرير هذا الجزء من الوطن العربي الكبير، من ربقة الأستعمار وأعوان الاستعمار، ونقطة التحول الحاسمة في المعركة المستعمرة الأوار، بين الشعب العربي في كل مكان، ممثلاً في طليعته الثورية القيادية، وبين ملوك الرجعية ودعاة الانتهازية التاجرة، واعوان الاستعمار، في أكثر من جزء من أجزاء هذا الوطن العربي.

وهكذا تبدّل الوضع كل التبدّل، بين عشية وضحاها. وتحوّلت اليمن، من قلعة منيعة من قلاع الرجعية والطغيان إلى مركز إنطلاق ثوري من مراكز التقدم والعمل على التحرر. وانتقلت من نظام، يعمل عن وعي أو بلا وعي، على تدعيم مصالح الاستعمار، وتوطيد مركزه في المنطقة المحيطة به، إلى عهد جديد، يتطلع عن وعي وادراك كاملين، إلى أن يكون جزءاً من الطليعة الثورية، العربية، التي تعمل على تحقيق التحرر الكامل من الاستعمار السياسي،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والنفوذ الاجنبي، والتخلف الاقتصادي، والتأخر الحياتي والاجتماعي وعلى بناء وحدة عربية شاملة في ظل نظام أشتراكي سليم وأصيل.

أما مؤلفة هذا الكتاب، وهي طبيبة ألمانية، عاشت في اليمن وفي حضرموت عشر سنوات تقع بين عام ١٩٤٧ – ١٩٥٧. ولم تكن متأثرة الا إلى حد ضئيل، بعقلية الغرب الاستعمارية، وبنظرته المتعالية إلى قضية العرب، فقد حاولت أن تكون موضوعية كل الموضوعية، في عرضها الرائع للأوضاع الحياتية التي عاشتها، وخبرتها، وفي حديثها عن الأحوال المعاشية التي رأتها، وسمعت بها، وعملت بحكم مهنتها على تحسينها ورفع مستواها. ولقد ركزت المؤلفة جل اهتماماً وعنايتها، على هذه الأوضاع والأحوال مع إشارات عابرة هنا وهناك إلى الأوضاع السياسية، التي لا يمكن فصلها بحال من الأحوال عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأنها هي التي تخلقها وتعمل على الإبقاء عليها.

وقد حرصت المؤلفة بحكم مهنتها الطبية، وعملها في الحقل الصحي، على أن تكشف عمّا يرافق هذا العمل من ملابسات، وما يكتفنه من أسرار، ويحيط به من خفايا. ويكاد يلمس القارئ في عرضها هذا، الصدق صافياً، والصراحة جميلة واضحة، ولعل هذه الميزة، هي التي تضفي على هذا الكتاب بعض أهميته وقيمته الموضوعية وأن كان تأثرها بأفكار الغرب، وعقليته، لم يسمح لها، بأن تكون متحررة كل التحرير من اتجاهاته وأهدافه.

لكن الكتاب مفيد في مجموعه، إذ أنه يلقي ضوءاً أو بعض ضوء، على الأوضاع التي كانت تسود اليمن فبل الثورة، والتي دفعت شعبها إلى ثورته المباركة على الرجعية والطغيان، وعلى الأوضاع التي لا تزال تسود سلطنات حضرموت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومشيخاتها، والتي تدفع الشعب الغربي في هذه السلطنات والمشيخات إلى العمل الثوري الدائب، للتحرر من قيود الاستعمار ونفوذ أعوان الاستعمار، وإلى توحيد هذا العمل، مع الانطلاقة الثورية في اليمن، ليسير الركب العربي قدماً في طريقه نحو الحرية والوحدة الاشتراكية.

القاهرة – ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم الأول

سنوات في اليمن

تعتذر إدارة موسوعة حضرموت الثقافية التابعة لشبكة حضرموت العربية لعدم طباعة الجزء الأول الذي تحدثت فيه المؤلفة عن فترة إقامتها في الـيمن.. وذلـك لشحة الإمكانيات المادية للموسوعة واكتفينا بكتابة ما يخص بلاد حضرموت ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم الثاني

حضرموت

المكلا

قضيت إجازتي في أوروبا ثم غادرتها في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٠م إلى الشرق مبحرة على ظهر الباخرة (ديانا)التابعة لشركة لويد تريستينو. وكان البحر هائجاً في الأبيض المتوسط ، ولذا سّر ني كل السرور عندما وصلت إلى بور سعيد وتولى المرشدون قيادتها عبر قناة السويس مع اثنتي عشرة باخرة أخرى. وكانت الصحراء تحيط بنا من اليمين والشمال إلى أقصى مدى النظر. وعادت هذه القفار الشاسعة تسحرني باتساعها وعظمتها وضياع عامل الزمن فيها .

ومضت الباخرة تبحر بنا في اليوم التالي بعيداً عن اليابسة فلا نرى شيئاً إلا السماء والبحر الأزر ق، إلى أن وصلنا وسط الجزر الصخرية الصغيرة، باب المندب، لنجد أنفسنا على مقربة من عدن .

وكنت قبل سفري في الإجازة قد تلقيت من ضابط سياسي في عدن عقدي الجديد مع المكلا أكبر ميناء في حضرموت وعاصمة سلطنة القعيطي في محمية عدن الشرقية. وكان المقيم البريطاني المستشار ، وهو ضابط برتبة عقيد قد تفاوض مع حكومة السلطان ورتب أن أشغل الوظيفة التي كانت البلاد في حاجة ماسة إليها وهي منصب الضابط الصحي الإقليمي لإمارة شيبام. وكان من المقرر خلق هذا المنصب وتسليمه ألي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد أن درست هذا العقد بصورة تفصيلية، قلت للضابط السياسي لا أوافق على جميع الشروط الواردة في الاتفاق.ومضيت أقول: (أن هذا هو من طراز العمل الذي يجتذبني إلى هذه البلاد الجديدة. وسأوقع هذا العقد مع سلطنة القعيطي، ثقة مني،وافتراضا بأن النقاط المختلفة ستتبدل في الوقت المناسب).

واعتبر العقيد وصولي خطوة إلى الأمام في محاولاته لتطوير حضرموت وتقدمها .

وقال لي العقيد عندما لقيته أول مرة في دار الحكومة في عدن عند عودتي من أوروبا: (لا ريب في إنك تدركين انه في لا تزال نساؤها يرتدين الحجاب يجد الطبيب إذا كان رجلاً صعوبة بالغة في الوصول إلى النساء). ثم مضى يقول: (وعندما قمت بجولتي الأولى في حضرموت، أدركت إن أي تطوير للبلاد يجب أن يتركز على ثلاث نقاط متشابكة كل التشابك، وهي زيادة الإنتاج الزراعي ، ورفع المستوى الصحي، وبناء المدارس الجديدة. وليس ثمة من شك في أن صحة أمة من الأمم تعتمد على نسائها وأطفالها، وفي بلاد إسلامية لا يمكن إلا لطبيبة مثلك أن تصل بسهولة إلى نساء تلك البلاد.

وسافرت بعد بضعة أيام بطريق الجو من عدن إلى المكلا . وطرنا في اتجاه شرقي فوق مياه البحر الزرقاء على مرأى من الساحل. وأخذت سلسلة الجبال البعيدة تقترب منا شيئاً فشيئاً، وبات في وسعي أن أتبيّن الخطوط العريضة لهضبة أفقية عالية. وبعد ساعتين من الطيران ظهرت أمامنا على ساحل خليج واسع، مدينة واضحة المعالم. ورأيت بيوت هذه المدينة البيضاء تزدحم على شبه جزيرة صغيرة، وعلى مساحة صغيرة من الساحل بين الصخور الصفراء وبين البحر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنها المكلا، عاصمة سلطنة القعيطي وميناؤها. وتمتد هذه السلطنة من الساحل الواقع على المحيط الهندي إلى بضع مئات من الأميال في الداخل، لتصل إلى حدود الربع الخالي الواقع في الصحراء العربية الجنوبية.

وتؤلف هذه السلطنة مع سلطنة الكثيري الأصغر مساحة، والتي تحيط بها من جميع جهاتها، منطقة حضرموت التي تحمل اسمها هذا من وادي حضرموت، وهو الوادي الذي يقطع الهضبة الجرداء التي تبعد مائتي ميل عن الساحل.

ونزلنا في مطار ريان الواقع على بعد خمسة عشرة ميلاً إلى الشرق من المكلا.

وقد أوفد زميل هندي شاب لإستقبالي، وسلمني احد الخدم رسالة ترحيب من العقيدة يدعوني فيها إلى المنزل في بيته أي في دار الاعتماد. وكانت هناك سيارة على استعداد لنقلي عبر الفيافي الرملية، ومن وراء صخور المكلا، إلى باب المدينة الغربي الكبير. وكان باب دار الاعتماد على مقربة من الباب. وتوقفت السيارة أمام منزل فسيح أبيض اللون منطلق الجوانب يقع في سفح جلاميد الصخر، كان احد السلاطين السابقين قد بناه. ونقلني وصيف العقيد العجوز إلى غرفة الضيوف تطل على منظر رائع من البحر الذي تغمره أشعة الشمس وعلى جزء من المدينة ببيوتها ذات الطبقات الثلاث والأربع. ويقوم قصر السلطان أمام دار الأعتماد ويفصل بينهما الشارع الرئيسي ويحيط به سور عال، يطل على البحر. وتغسل أمواج البحر عند أندفاعها إلى الصخور أسوار القصر البيضاء. وكان الخليج مكتظاً بقوارب الصيد السوداء الصغيرة. ولم يكن قد توفر لدى وقت طويل للإعجاب بهذا المنظر الساحر، عندما دعيت لمقابلة وزير الداخلية في أسرع وقت ممكن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستقبلني الشيخ سيف في دار الدولة، وهي مقر الحكومة، وتقع في دار ذات ثلاث طبقات تقوم في المركز القديم للمدينة في شبه الجزيرة.

وكان الشيخ رجلاً عجوزاً ودوداً تظهر الألفة في عينيه الذكيتين وتبدو في ذقنه لحية بيضاء تشبه الهالة الجميلة. ولم يكن من أهل حضرموت وإنما من جزيرة زنجبار التي تشبه الفردوس والتي تقع على الساحل الأفريقي الشرقي. لكنه عربي في أصله وطيعته ولغته، وهو كسلطان زنجبار وغيره من أبناء الطبقات الحاكمة في الجزيرة، من أصل حضرمي، إذ هاجر أجداد هؤلاء من عمان وحضرموت قبل أمد طويل.

وأجتمعت بعد بضعة أيام إلى وزير المالية صاحب الشأن والنفوذ، وهو باكستاني صارم حاد الذكاء. وكانت له طريقته الخاصة في دفع ذقنه إلى الأمام ليعتبر بها عن ثقته بنفسه وتفضله بالملاطفة. ورأيت في عينيه عندما كان يحييني نظرة فضولية مستطلعة، يحاول بها أن يدرسني دراسة كاملة.

وراح يقول لي والابتسامة الجذابة تملأ وجهه وتنعكس على وجه كاتبه: (على الرغم من استعدادنا لدفع جميع ما تكبدته من نفقات في رحلتك، إلا أنني أجد نفسي مضطراً لحذف مادة واحدة من قائمة مصاريفك، وهي زجاجة نبيذ الكيانتي). وكان هذا النبيذ آخر ما احتسيته من شراب قبل أن أعود إلى الدخول بلاد إسلامية حيث تحرم المشروبات الروحية تحريماً تاماً .

وعلمت من الشيخ سيف أن السلطان الحاكم صالح بن غالب القعيطي كان في تلك الآونة يزور إقطاعياته في إمارة حيدر أباد في الهند. وكان نظام حيدرأباد قد منح هذه الإقطاعيات لأجداده مكافأة لهم على خدماتهم العسكرية. وقال لي أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولده عوّاد، وهو نائب السلطان سيقوم نيابة عنه بالترحيب بي. وكان لباس الأمير، يذكرني بملابس مهراجات الهند، بينما يرتدي معظم كبار الموظفين في حضرموت السارونج الجاوي الزاهي الألوان الممتد حتى القدمين مع قميص فضفاض وعمّة جميلة. ودار بيني وبين السلطان الشاب حديث قصير للغاية، وأنتهت المقابلة بعد أن احتسينا ثلاثة أقداح من الشاي. ولكن أحاديثي مع الطبيب الهندي الذي قمت بزيارته فيما بعد، كانت أكثر أهمية وجاذبية لنا. وكان قد قضى بعد أن تعاقد مع السلطان ثلاثة عشر عاماً في المكلا، كأول طبيب مقيم فيها. وقد تمكن في غضون هذه السنوات المنهكة المجهدة من بناء مستشفى في المكلا. وقد وجدته كتلة من حسن النية، ومن الصراحة والتجاوب، على الرغم من أنه ظل دائماً مفتقراً إلى المال، ولم يكن لديه ما يكفيه حتى لضمان سير المستشفى.

وأجتمعت أيضاً إلى عدد من ذوي النفوذ من تجار المكلا الذين دعوني لزيارة بيوتهم.

وتحتم علي للوصول إلى بيت عمر باسويد، أن أسير في الشارع الرئيسي، ولم تكن الحوانيت هنا مجرد ثقوب كما هي الحال في سوق تعز، وإنما كانت حوانيت واسعة هي الطبقات السفلى من بيوت كبيرة فخمة. ورأيت صيادين يحملون قضباناً على أكتافهم تتدلى منها أسماك كبيرة براقة تصل حتى الأرض، وهم يشقون طريقهم عبر الجماهير. وهنا في السوق يقوم بيت الشيخ عمر باسويد. وتتألف الطبقة السفلى من مخازن لمختلف أنواع البضائع، بينما يحتل عدد من الكتبة المكاتب في الطبقة الأولى، يعيش التاجر نفسه وأفراد أسرته في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطبقات العليا. وقد رحب بي بحفاوة بالغة، وطلب إلي الجلوس إلى النافذة، حيث رأيت عدداً ضخماً من الرسائل باللغة العربية تجثم على مقربة منه على الأرض.

ولم نكن قد بدأنا بعد في حديث عام يدور حول المكلا وعدن واليمن، عندما جاءت زوجته، تحمل أقداح الشاي وصحاف الحلويات. ولم تهرع خارجة على إستحياء من الغرفة كما تفعل نساء اليمن بل جلست معنا واشتركت في الحديث. وكانت مخلوقة سعيدة تنبض بالحياة، ولا نوحي بالانطباع بأن عالمها ضيق محصور كعالم شقيقاتها في اليمن.

وقال الشيخ عمر وأنا أحاول مغادرة المكان:(قد يكون من الأفضل لو ظللت في المكلا. فنحن في حاجة إلى طبيبة هنا لزوجاتنا وأطفالنا بنفس المساس الذي يحتاج إليه الشيباميون هذه الطبيبة. يضاف إلى هذا أن المكلا أكبر من شيبام وأكثر ثراء. وفي وسعك أن تكسبي الكثير من المال هنا). وكان يبتسم وهو يتحدث حاكماً على مهنة الطبيب من وجهة نظره هو كتاجر.

وتعرضت سلسلة الزيارات التي أقوم بها والزيارات التي أتلقاها لانقطاع ممتع، عندما جاء العقيد يبحث عني بعد ظهر ذات يوم في سيارته اللاندروفر، وأخذني معه في رحلة خارج المدينة. وقد تركنا المدينة من الباب الغربي فمررنا بمعسكر لقوافل الإبل، ثم مشينا على الساحل الرملي الذي يمتد أميالاً. ورأيت على مدى النظر الذي تحيط به سلاسل من الجبال، صخوراً تمتد إلى الساحل تصفقها الرياح، وتغسلها أمواج البحر. وكان المحيط الهندي يلطم بهذه الأمواج الدافقة وبصورة مستمرة، الساحل، تاركاً ورأه آثاره في الرمال البيضاء .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخرجنا من سيارة اللاندروفر ورحنا نمشي على أقدامنا. ورأينا جماعات من طائر النورس ترود الماء، ثم تطير زاعقة، لدى اقترابنا منها. وكانت طيور زمّار الرمل تبحث بمناقيرها في الرمل الرطب بحثاً عن الحشرات بينما تدب على مقربة منها مجموعات من السرطان الأبيض.

وكانت الدلافين تلعب في الأمواج العالية وتسبح ذاهبة آتية مثل حرس السواحل. ويمكن للمرء أن يسبح على مقربة من الشاطئ ولكن من الخطر كل الخطورة التوغل في البحر خوفاً من كلاب البحر. وتقوم بين كثبان الرمل عدة برك للماء المالح، خلفها المد العالي، وتبحث فيها طيور النحام عن الأسماك لتأكلها.

وعندما غطست الشمس وراء الجبال النائية، وانعكست أشعة الأصيل، على الأمواج وعلى المياه الضحضاحة وهي تجري نحو الساحل، ورأيت طيور مالك الحزين البيضاء الفضية، تتزلف على الماء، وتقف بلا حراك أمام هذه المرآة القرمزية، إلى أن تمسك بمسكة، في مناقيرها الطويلة، ثم تطير مصفقة بقوة بأجنحتها الطويلة.

واستأنفنا في هذه الرحلة وما تبعها من رحلات ما بدأناه من حديث في عدن عن عملنا المشترك في حضرموت.

ورأيت أن العقيد رجل وديع يحب عمله، الذي إتخذ منه هوايته وفنه.

وراح يعترف لي قائلاً ... (إنني أحب تطوير هذه البلاد). وكان قد حشد ثروة سنوات من التجربة وبات يعمل الآن كمستشار لحكومة السلطنات العربية في محمية عدن الشرقية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقدم إلي بعض التقارير رغبة منه في أن يتيح لي فرصة لأتعمق عن طريقها في بحث تطوير حضرموت التي غدوت الآن زميلة له من الناحية الطبّية منه، ولأحصل على فكرة عن الأوضاع المتحكمة في البلاد، والصعوبات التي يتحتم علينا التغلب عليها.

ويرجع الحضارمة بنسبهم إلى قحطان الذي ورد اسمه في أسطورة الخلقية.

وهو ابن النبي هود الذي تدعوه التوراة أيبر. وكان هود حفيداً لسام الذي يشترك مع حام ويافث في بنوتهم لنوح.

وكان لقحطان عدة أولاد منهم يعرب الذي غدا حاكماً لليمن التي كانت تضم في تلك الأيام الجنوب العربي بكامله حتى الخليج. وقد قسّم يعرب مملكته إلى عدة إمارات، و أعطى كلاً منها إلى أخ من إخوانه ليتولوا إدارتها. وكانت حضرموت من نصيب عمرو، وكانت تدعى آنذاك (حاضر الموت) وهو وصف مناسب لهذه البلاد القاحلة التي يندر المطر فيها.

لكن الحضارمة كانوا على أي حال يستمدون ثروتهم من تجارة العطور والبخور التي تصل من السواحل التي تجتمع فيها ثم تنقل عبر الأراضي الحضرمية إلى مأرب مدينة ملكة سبأ، ومنها إلى الحجاز فمصر واليونان وروميه.

ولم يكن من الصعب أن يتصور المرء الملوك والقادة العسكريين وهم يغدون باستمرار من اليمن لإعادة احتلال بلاد البخور والعطور، والأراضي التي تمر بها القوافل، بعد أن تكون هذه البلاد والأراضي قد نجت من قبضتها. وأياً يكن الحاكم صاحب السلطان، فقد كان يتحتم على قوافل البخور، أن تدفع جزئية ثقيلة لكل قبيلة كانت تجتاز أراضيها، أو تتوقف فيها طلباً للراحة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يضاف إلى هذا أن هذه القوافل كانت دائماً معرضة للهجوم من القبائل والمدن المحاربة ومن حكام المختلفين.وأدى تطر صناعة السفن والملاحة إلى إرسال السلع عن طريق البحر الأكثر أمناً وأرخص تكاليف. وهكذا باتت الطرق البرية القديمة هنا كما في اليمن مهجورة، وتحولت عدة مدن على هذا الطريق إلى خرائب.

ولكن ملوك اليمن وأمراءها القبليين ظلوا كما كانوا من قبل يحكمون تلك البلاد العربية، إذ من سواحلها تطورت التجارة بحراً مع شرق أفريقيا وجزر المحيط الهندي وأخيرا مع الشرق الأقصى ، ولا سيما مع سنغافورة واندونيسيا.

وكان الحضارمة يبحرون أيام الأمطار الموسمية في مراكبهم الشراعية في تلك الأيام إلى تلك البلاد النائبة طالما أن بلادهم لا تستطيع أن تؤمن لهم غذاءهم كما لا تؤمنه لهم الآن. وهكذا ما زالوا يجدون أنفسهم مرغمين على الاتجار مع البلاد الأجنبية وأن يظلوا على اتصال بأسرهم في الوطن، فيرسلون إليها باستمرار ودقة ما يجنونه من أرباح. ويعيش منهم نحو من سبعين الفاً في اندونيسيا وألوف أخرى في سنغافورة، وأفريقيا الشرقية الحبشة العربية السعودية. وقد تكون هذه الأرقام مذهلة، إذا عرفنا أن عدد سكان حضرموت كلها بما فيهم أهل الناطق الساحلية، لا يتجاوز نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة.

ولا يعتبر الحضارمة مطلقاً من المهاجرين الدائمين، إنما يعودون دائماً إلى وطنهم ليتزوجوا ويبنوا بيتهم ومساجدهم ومدارسهم، بما يجنونه من أموال في الخارج. وهم يشيدون أيضاً السدود والقنوات ويحفرون الآبار لري بلادهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليتمكن أهلها من زيارة المساحات التي يزرعونها بالنخيل والقمح ولزيارة ما ينتجونه من مواد غذائية.

ولم يصل حكم بلقيس ملكة سبأ إلى حضرموت. فقد امتدت مملكتها غرباً عبر البحر الأحمر إلى الحبشة. ولكن ملوك حمير ما لبثوا اندفعوا شرقاً، وسيطروا على حضرموت وبسطوا نفوذهم عليها، كما تثبت الآثار التي تم اكتشافها أخيراً.

وقامت قبائل كندة التي كانت تعيش في أواسط الجزيرة العربية بغزو حضرموت وسيطرت عليها إلى أن جاء انتشار الإسلام في القرن السابع والثامن والتاسع للميلاد، وغدت البلاد العربية كلها تحت سيطرة الخلفاء، الذين حكمها الأمويون منهم من دمشق العباسيون من بغداد. وما زال ذكر الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٦– ٨٠٩ ب. م)، حياً في حضرموت اليوم. وبدأت الخلافة العربية في الانحلال بعد وفاته. وعندما قامت خلافة العثمانيين فيما بعد وتوسع سلطانها حتى وصل إلى عدن، ظلت حضرموت خارج نطاق هذا السلطان وإن ظلت عرضة لغزوات القبائل اليمانية.

وكانت قبيلة الكثيري التي جاءت من صنعاء في عام ١٤٩٠ ميلادية هي إحدى هذه القبائل. وظلوا طيلة فترة ارتقائهم في طريق السلطان والقوة في صراع دائم مع القبائل المحلية ومع الغزاة من محاربي اليوافع الذين كانوا أشد خصومهم ضراوة وعنفاً. وقد قامت دولة أوروبية أيضاُ هي البرتغال باحتلال الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية حتى مسقط مدة خمس وثلاثين سنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتمكن آل القعيطي من إحراز اليد العليا على اليوافع في حضرموت في القرن التاسع عشر وجاءوا بالثروات التي جمعوها كمهاجرين في الهند عندما كانوا يخدمون كقوات مرتزقة عند نظام حيدر أباد.

وأخذت سلطنة (الكثيري) تتقلص شيئاً فشياً بعد أن خسرت جميع المنطقة الساحلية، وباتت مطوّقة من كل ناحية سواء من الساحل أو من الداخل حيث أخذت سلطنة القعيطي في التوسع.

ودخلت بريطانيا تاريخ الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر عندما استولت على عدن بيت عامي ١٨٢٩– ١٨٣٩م، من سلطان لحج، لتجعل منها قاعدة منيعة لحماية الطريق إلى الهند. وشرع البريطانيون مع مضي السنين يعقدون المعاهدات مع السلاطين والأمراء وشيوخ القبائل في الداخل لحماية عدن من الهجمات، ولتقدم بالإضافة إلى المنح والهدايا نوعاً من الحماية لهم من الدول الاستعمارية الأخرى.

وعقدت بريطانيا بين عامي ١٨٨٠– ١٨٩٠م معاهدة حماية مماثلة مع سلاطين حضرموت، على الرغم من أن هذه المعاهدة لم تصبح سارية المفعول حقاً إلا بعد عهد طويل.

ولم تظهر أهمية هذه المعاهدات إلا بعد نحو خمسين عاماً، عندما أدرك البريطانيون أن صيغة المعاهدات الأصلية مع السلطان لم تعد تمثل اتجاه العصر، وأنه بات من المهم كل الأهمية، أقامة روابط أكثر وثوقاً ونفعاً معها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما فصلت عدن في عام ١٩٣٧م عن حكومة الهند، وتحولت إلى مستعمرة للتاج، تحولت العلاقات مع الفرقاء العرب في المعاهدة إلى صورة حماية رسمية. وشرعت حكومة عدن تهتم الآن بالإضافة إلى الحماية، في الشؤون الداخلية لهذه السلطنات، وباتت على استعداد لمساعدة السلاطين في حكمهم وإدارتهم وتطور بلادهم، وتقديم المساعدات المادية لهم إذا أقتضى الأمر.

وبعد بضعة أشهر، عقدت معاهدات جديدة مع سلطنة القعيطي ، ثم مع سلطنة الكثيري بعد سنتين التي كانت قد عقدت من قبل ميثاقاً لحسن الجوار مع سلطنة القعيطي في حضرموت.

لكن سلطة السلاطين، ظلت محصورة على أي حال في المدن والقرى.

ولم تعترف القبائل التي عاشت في حضرموت منذ أقدم عصور التاريخ. والتي تعتز بانتمائها إلى سلالة قحطان، بالسلاطين الذين يمتون إلى قبائل أخرى إلا مع التحفظ. يضاف إلى هذا إن المنازعات القبلية كانت تخلق بينهم العداء والحزازات ومشاكل الثأر مما أدى إلى أن تصبح البلاد في حالة مستمرة من القلق والشك.

وكانت قبائل البدو الرحل، تهاجم القرى والمدن وتنهبها. ولم تكن قوافل الإبل التي تبدأ سيرها من الساحل تحس بالأمن والطمأنينة إلا إذا دفع صاحب القافلة مبالغ ضخمة كجزية إلى البدو الذين ستمر القافلة عبر أراضيهم. وكان الجميع ينشدون السلام، ولكن أياً منهم لم يكن راغباً فيه على حساب كرامته.

وأنفق السيد أبوبكر بن شيخ الكاف من تريم في وادي حضرموت مبالغ طائلة من المال لإحلال السلام ،لاسيما وقد عرف بواسع حكمته وطيبته وكرمه. ولكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الرغم من نفوذه الشخصي البارز ومن الاحترام الذي تفرضه شخصيته على جميع الفرقاء فأنه لم يتمكن وحيداً من السيطرة على الوضع. وقد ركز نتيجة لذلك آمالاً عظيمة على المقيم البريطاني المستشار الأول، الذي أقام في حضرموت بعد معاهدة الحماية التي عقدت في عام ١٩٣٧. وقد تمكن السيد أبوبكر، والمقيم البريطاني هار ولد انغرام، وزوجته دورين، عن الطريق تعاونهم الذي لا يكل، من أحلال السلال بين الحضارمة العنيدين عن الطريق القيام بدور المفاوضين الموثوقين، وعن طريق تسوية الخلافات القديمة قدم العصور والأجيال. وسحب هذا المستشار الأول ليخلفه رجل آخر لا يقل عنه كفاية ورغبة في العمل. وكان العقيد الذي قابلته هو المستشار الرابع.

وكان كل واحد من هؤلاء المستشارين يساعد حكومة السلطنة في مختلف الميادين لإعادة بناء البلاد ومتابعة التطور السلمي لا راضيها. ولكن هذه المساعدة كانت تتطلب عدداً من الرجال من ذوي الخبرة يعمل كل منهم في ميدانه، ويستقدمون من الخارج. ولعل هذا يوضح سبب كون وزير الداخلية من زنجبار. ووزير المالية من الباكستان ومدير المعارف من السودان.

وكان المجلس الخاص يتألف من الحضارمة وبينهم أكثر تجار وادي دوعن نفوذاً في المكلا، وقد تعرفت إليهم عن الطريق الشيخ عمر باسويد.

وقد أدت التحذيرات التي كنت قد تلقيتها في عدن عن الحياة في المكلا، إلى دهشتي البالغة المرة تلو المرة، ابان الأسابيع الأولى من وصولي، من هذه المعاملة الرائعة التي كنت ألقاها من جميع الفرقاء المعنيين ومن مختلف الطبقات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفئات وبينها بالطبع دوائر الحكومة الرسمية. وقد أتاحت لي هذه المعاملة آمالاً مشرقة بالنسبة إلى عملي المقبل في شيبام.

ولعل هذه الدماثة التي يتصف بها الحضارمة تعود إلى الرحلات الكثيرة التي قاموا بها في الخارج وإلى اتصالاتهم بمختلف الأقوام والشعوب.

ولم تكن هناك بواخر أجنبية ضخمة ترسو في المكلا. وكان ما يفد إليها من بواخر مقتصراً على المراكب الساحلية التي تحمل البريد والشحنات المختلفة مرة واحدة في الأسبوع على الأقل من عدن.

وكانت هذه المراكب ترسو في المسالك البحرية بدلاً من رسوها على أرصفة الجمارك في خليج المكلا نفسه. وعلى الرغم من ضحولة الماء، ألا أن التيار كان كافياً لتمكين المراكب الشراعية من الرسو.

وكانت المراكب الشراعية تبني وتصلح على مقربة من دوائر الجمرك، بينما كان صيادو الأسماك يبنون قواربهم خارج المدينة أمام البوابة الغربية. وكانت ألواح هذه القوارب الخشبية تشد إلى بعضها بالجبال، وهي أقدم طرق بناء السفن.

وكان من الرائع أن يجلس المرء في مكان ما على مقربة من الميناء الذي يعج دائماً بالحياة والرونق، والذي لا يبدو فيه أي إنسان في عجلة من أمره، وإن يرقب النشاط، والمراكب التي تبحر، الأزرق كالياقوت، ووراءها الجبال تقبع خلف المدينة البيضاء التي ترقد تحت جلاميد صخرية بنية اللون، تقوم في قمتها قلاع بيضاء صغيرة للمراقبة.

وكنا في شهر تشرين الثاني وهو تاريخ الرياح الموسمية الشتوية التي تهب من آسيا إلى أفريقيا. ورأيت من نافذتي في ساعة مبكرة من صباح ذات يوم مركبين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شراعيين كبيرين يرفعان أشرعتهما البيضاء المنتفخة يدخلان الميناء ليرسوا فيه.

واستشير اهتمامي كل الاستشارة، عندما أبلغني العقيد أن هذين المركبين يحملان السجاد من منطقة الخليج العربي.

وهرعت إلى أرصفة الجمارك، وسرعان ما أتيحت لي الفرصة مع عدد من المشترين المتلهفين والمتسكعين العاطلين للمضي في قارب إلى المراكب. وكان هناك قارب صغير، فهرعنا إلى دفته، وقد جلس فيه ستة من المجذفين في قمصانهم وعممهم البيضاء. وراحوا يجذّفون بضربات طويلة بطيئة بينما جلس ماسك الدفة إلى دفته ينشد الأناشيد التي تصحب الضربات في نغمة متزنة، وكان المجدفون يصحبونه في الغناء بأصواتهم الجهيرة الرنيمة.

واقتربنا من المركب الكبير، ودرنا بقاربنا حول الدفة ثم دنونا من جانبه. وانتصب أمامنا هيكل السفينة الخشبية القائم، الذي أثرت عليه الأجواء والعواصف. وذكرني مؤخرها المعقوف المتسع، بالسفن الشراعية البرتغالية القديمة التي كانت تمخر عباب البحار أيام الاستكشافات الجغرافية، ولم تكن هذه الفكرة خاطئة أو مضللة مطلقاً إذ أن العرب على طول ساحل المحيط الهندي وسواحل بلادهم في تلك الأيام كانوا على اتصال بالبرتغاليين الغزاة. وتسلقنا سلالم الحبال إلى ظهر المركب.

ورحب بنا القبطان وهو عربي يرتدي كالبحارة الآخرين قميصاً طويلاً أبيض وعمة بيضاء. ولم يكن في وسع احد إن يتبينه كقبطان في أي مكان في العالم من شكله الدقيق ويديه العصبيتين الصغيرتين. وقادنا إلى الدفة، حيث أقيمت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خيمة لوقاية سطح المركب من أشعة الشمس المحرقة ومدت البسط والسجاد لنستريح عليها.

واستدعى القبطان اثنين من بحاريه، وسرعان ما اختفيا ليعودا بعد قليل يحملان بالات من السجاد. وأخذا ينشران السجادات واحدة اثر أخرى أمام أعيننا على ظهر المركب، من النوع البخاري الأحمر ذي التصميم الزرقاء، ومن الأنواع القاتمة الأخرى التي تظهر فيها صور الأزاهير والحيوانات من مختلف أرجاء ايران.

وهكذا امتد إمامنا فن حياكة السجاد بكل ما فيه من روعه في الشكل واللون. ويستطيع الخبراء تمييز مكان صناعة السجاد من لونه وشكله. أما المتفوقون في خبرتهم ومعرفتهم فيستطيعون تمييز الرموز وإعادة بناء عالم الخيال الذي تستثيره هذه الرموز. وترجع الحياكة الأولى لبعض القطع إلى قرون خلت، وبعضها يصبح ملك أسرة واحدة أو قبيلة أو سلالة معينة.

ولم تكن قطع السجاد هذه مجرد متعه للنظر، بل كانت أيضا تعبيراً عن أولئك الناس الذين انموا قبل قرون خلت ثقافة عالية، حول حائكو السجاد اليوم الحفاظ عليها وعلى تقاليدها بشيْ من الشغف.

ولم يكن القبطان وهو من تجار السجاد أيضا، كثير الاهتمام بعرض ما يحمله علينا، إذ انه كان واثقاً من الحصول على أسعار أعلى بكثير في موانئ أفريقا الشرقية الأكثر ثراء. وراح الاروبيون منا يسألونه عن طراز السجاد الذي يطلبونه. وذكر القبطان أرقاما كانت نقطة البداية بالنسبة إلى عملية مساومة صغيرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جرت المساومة فيما بعد، إذ أن الاتجار يقف أبان ساعات الظهيرة الحارة. واجتمعنا في المساء في قاعة مفتوحة ذاب أعمدة كثيرة تقع على مقربة من بوابة الجمارك. وظهر أحد الوسطى الذين يعملون في هذه التجارة في رفقة وزير المالية الباكستاني، الذي كان يعمل في الوقت نفسه ناظراً للجمارك.

وعيد عرض قطع السجاد ثانية وتم تقييمها. وبدأت الهمسات تتناقل الأسعار حتى لا يسمع المتنافسون أرقامها.

وأعلن فجأة أن القبطان ينوي الإبحار بعد ساعة واحدة. وشرع رجالة في طي السجاد ثانية. ولم تكن لدى الأوروبيين الطاقة الموجودة لدى الشرقيين على الانتظار. وأزعجتهم فكرة أحتمال ضياع الفرصة وشراء القطع التي تشهوها، ولذا سارعوا إلى رفع أسعارهم. وواصل البحارة نقل سلعتهم إلى القارب. ووصل الوضع إلى ذروته من الحماسة والإثارة. وظل العرب والهنود المشترين على سلبيتهم وجمودهم. وحاولنا معشر الأوروبيين تقليدهم. أخذ الواحد منا يساوم لحسابه الخاص، دون أن يعرف إذا كان الآخر قد عقد صفقة أولا.

وحزمت الآن القطع التي باتت موضع الدرس ونقلت لا إلى القارب هذه المرة بل إلى دائرة الجمرك، وتولى موظفو الجمارك نقلها.

وراح كل منا في ساعة متأخرة من ذالك المساء، وتحت جنح الظلام يتسلم القطعة التي أختارها، وقد أوصلت إلى بيته دون أن تراها الأعين المتطفلة من الجيران والمارة.

ورأيت المركب الشراعي الحامل للسجاد يشرع أشرعته الكبيرة في الصباح التالي مستقلاً الرياح الموسمية، ليقطع مستعيناً بالرياح المواتية إلى أفريقيا، وسيعود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المركب في غضون ستة أشهر مع رياح الصيف الموسمية دون أن يحمل السجاد هذه المرة وإنما يحمل القرنفل و البهارات من زنجبار. وهذه شنشنة عرفها الحضارمة عن أخزم ، منذ وجد التاريخ.

شبام في وادي حضرموت

وأصبح المجال أخيراً متاحاً لي للسفر إلى شيبام في سيارة حكومية. وغادرنا المكلا، عابرين الأميال من الصحاري الرملية باتجاه الشمال، نحو الجبال. حيث تنحدر صخور هضبة حضرموت العابسة– الشول– باتجاه البحر. والتفت الطريق الضيقة، في منعطفات دقيقة تسير في مسيل نهر جاف بين السفوح العارية. وعرفت من السائق إننا سلكنا الطريق الشرقي، وهو الأقدم بين طريقتين للسيارات تربطان وادي حضرموت بالساحل. وكان السادة آل الكاف، من تريم، هم الذين شقوا هذا الطريق بين تريم والشحر، لا الحكومة ولا السلاطين. وكان السيد أبوبكر بن الشيخ، هو الذي تولى زمام المبادرة، لا يوفر مالاً أو جهداً للوصول إلى أتفاق مع البدو الذين تمر الطريق في أراضيهم، وليحول بينهم وبين وقف العمل أو تدمير عن طريق مصالحتهم وتهدئتهم. وكانوا قد رأوا في هذه الطريق الجديدة، ولهم كل الحق في ذلك، وخطراً يهدد طرق قوافلهم القديمة. وإنقضت سنوات طويلة،(حتى ١٩٣٧ بالحقيقة) قبل أن يستكمل شق الجزء الأخير من هذه الطريق الممتدة بين الشول والشحر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتوقفنا عن المسير عندما أرتفعنا مسافة عن السطح البحر. ولم تمض بضع دقائق حتى وجدنا أنفسنا محاطين بجماعات من البدو أنصاف العراة وسمر البشرات، من الرحل المقيمين في الهضاب الجرادء، يعرضون علنا ما يحملونه من جوز الهند. وكانوا يفتحون الجوزة بحركة ماهرة من أمواسهم المعقوفة، فنشرب منها ما فيها من عصير مرطب.

فهناك في الوادي، بين الجدران الصخرية السحيقة تقوم واحة المعادي الصغيرة، وهي ملأى بأشجار جوز الهند. ويبدو أن السائق لم يتوقف هنا إلا بقصد الحصول على جواز الهند.

ولم تبق أمامنا إلا بعض المنعطفات السحيقة لنصل أخيراً إلى قمة الشول . وكانت الهضبة الصخرية الجرداء تماماً تقف أمامنا وقد عرتها الرياح، دون أن تترك فيها أثراً لأية خضرة، وشقت فيها زخات المطر الشديدة، أخاديد عميقة، شكلت بعد قليل خنادق في هذا المدى الفسيح المترامي الذي لا يعرف النهاية.

وهبط الليل وتوقفنا عند المخفر العسكري في(رياضيات المرعى) وهو البناء الوحيد في المنطقة. وكانت هناك ريح قرة صرصر تهب في الخارج. ولما كان السائق قد ظل في الخارج، جالساً إلى النار مع الجنود. فلم يكن هناك خيار لي في أن أقضي الليل، في رفقة إنسان غريب كل الغرابة، وهو رجل أنضم الينا بسيارته الشاحنة. ولم يكن الرجل عربياً وإنما كان على الغالب من الهنود. وراح يلف نفسه ببطانية دون أن ينبس ببنت شفة، ويستلقي على الأرض على مقربة من الحائط. وحذوت حذوه وسرعان ما نمت كأية امرأة عربية على الحصيرة في الجهة المضادة من الغرفة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأفقنا قبل شروق الشمس ورحنا نقطع أميالاً عبر(الشول) القاحل. وسرعان ما اختفى زمهرير الليل الذي نخر عظامي، عندما أشرقت الشمس، باعثة الحرارة في الأرض الصخرية بحيث تحول الهواء فوقها بعد قليل إلى لهب قائظ. وبعد عدة ساعات من السير بسيارتنا في الطريق أخذنا نهبط بصورة متدرّجة نحو وادي العدم، الذي شق طريقه عميقاً في الشول، إلى أن باتت ضفتاه ترتفعان في أسوار عمودية إلى الجانبين. وسرعان ما توقف ما يتمثل فيه هذه الوادي من فقر مدقع بزراعة كثيفة وغنية من أشجار النخيل تربض فيها أول قرية كبيرة في المنطقة وهي قرية (الساه) ولا يوجد وراء هذه القرية، إلا الرمل والحجارة وبعض النبات الضعيف النمو.

ويتسع وادي العدم في نهايته لينضم إلى واد أكبر منه أتساعاً يسيل من الشرق إلى الغرب وهو وادي حضرموت. وتوقفنا عند مصبه برهة قصيرة في غراف وهي قرية صغيرة بنيت بيوتها والأسوار المحيطة بها من نفس اللون الأصفر الذي تتميز به تربة الريف المحيط بها، وهي تربة قاسية جافة كثيرة الغبار، تنتظر المطر لتخصب، ويصنع منها كل اللبن غير المطبوخ الذي أحرقته الشمس والذي بنيت منه كافة المنازل.

وتتشابه جميع البيوت الموجودة هنا وفي وادي العدم أيضاً، إذ أنها تتألف أما من طبقتين أو ثلاث طبقات من اللبن البسيط، مع شباكات من الخشب، تقوم على كافة النوافذ، التي لا توجد منها أي شي وفي الطبقة السفلى كما هي الحالة في اليمن، حماية للبيوت من غارات قطاع الطرق والغزو.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتبتعد طريق تريم في أسفل الوادي باتجاه الشرق وتصبح محاطة بالرمال من كل ناحية. وكنا مع ذالك نسير صعداً مع وادي حضرموت باتجاه الغرب، وهو واد تحيط به من جانبيه قمم صخرية ترتفع خمسمائة قدم تقريباً.

وتتجه الطريق الآن نحو صيون عبر واحات واسعة ووافرة على العدد من أشجار النخيل، عابرة بعدد من القرى والخرب الرابضة على مقربة من الصخور.

ورأيت وراء أسوار الحدائق العالية بيوتاً بيضاء في حجم القصور لها عدة شرفات وأسطحها مستوية تحيط بها أشجار النخيل... ويقوم في ضواحي المدينة الداخلية المكتظة بالسكان حصن سلاطين الكثيري القديم الرائع. سيئون هي عاصمة هذه المقاطعة الصغيرة، التي كانت في يوم ما أضخم وأقوى من سلطنة القعيطي.

وكان الظلام قد داهمنا عندما وصلنا إلى شيبام التي لا تبعد كثيراً عن حدود سلطنة الكثيري. وظهرت أمامنا خطوط الأسوار العالية اليابسة وبعض النوافذ التي تشع منها الأضواء في وسط الوادي، لتحيي قدومنا. وعبرنا نهراً واسعاً من الرمل، وتسلقنا صعداً إلى بوابة المدينة، التي كانت درفتاها المدعمتان بالمسامير المدببة الحادة لا تزالان مفتوحتين. وتوقفنا عند بناء ضخم يقوم في ساحة داخل البوابة، هي دار النائب، حاكم شيبام. وخرج من المدخل ذي النقوش الجميلة شاب رقيق البنية جميل الصورة يرتدي كوفية طواها على شكل زاوية لينحصر عنها صدغه الذي قص شعره بشكل أنيق يتفق مع شاربه القصير المشذب على شفته العليا. وابتسمت عيناه السوداوان الذكيتان والساخرتان بسمة ودية وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمد يده لتحيتي قائلاً.. (السلام عليكم. باسم النائب أرحب بك، وأقدم أليك في غيابه، حسن الرفد والضيافة في داره).

وكان هذا الشاب، وأسمه السيد مصطفى، الضابط التنفيذي للنائب، ويده اليمنى في تصريف الأمور.

وسرنا وراء غلام قادنا بمصباحه إلى سلم صعدناه لنصل إلى غرفة واسعة، يقوم سقفها الأبيض المصقول على أعمدة خشبية ثقيلة مزخرفة. وبعد أن تناولنا شاي الترحيب، تركني مصطفى إلى رعاية زوجة النائب الشابة، التي أعدت لي حماماً ساخناً ووجبة شهية، ثم قادتني إلى سرير مريح أقضي فيه ليلتي.

ولكنني لم أجدر راحة، فبعد لحظات جاء عدد من نساء شيبام لتحيتي والترحيب بي. وعندما نزعن أرديتهن الزرقاء الخارجية وحجبهن السوداء وشالاتهن ، رأيت أنهن يرتدين لباس الأعياد المؤلف من عباءات طويلة لها انطقة فضية، وقد تزين بالعقود والخلاخل والأمشاط الذهبية في شعورهن الحريرية السوداء. وكانت الواحدة منهن تمد لي يدها مع ابتسامة مشرقة حانية رأسها انحناءة خفيفة، بينما تمسك بيدها الأخرى شعرها، وحجابها الشفاف الرقيق الذي تربط به رأسها.

وجلسن ألي ، أخذن يتلين على مسامعي ونحن نتناول الشاي الذي جاءت به الخادمة ألي، مختلف القصص والشائعات والأنباء.

وعدن يتسربلن بحجبهن وأرديتهن ويتسللن من الغرفة بنفس السرعة والرقة اللتين جئن بهما إليها. ورأيت من نافذتي الغلام حامل المصباح يقطع الميدان، وخلفه بعض الأشباح إلى المنزل المجاور ليختفين فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكنت قد انتهيت من تناول إفطاري صباح اليوم التالي عندما جاء رجل عجوز قدم نفسه إلي على أنه سالم عبد وإنه يعمل خادماً وممرضاً في المستشفى. وقادني الرجل إلى حصن السلطان القديم الذي يؤلف ما يشبه الجناح مع مقر النائب. ولا أستطيع تسمية ما رأيته هناك بالمستشفى أبداً، فقد تحتم علي أن أصعد إلى الطبقة الثانية وأن أعبر من باب مزخرف بالغ الزخرف إلى ممر مرتفع السقف، أبيض الجدران، طويل الامتداد، تقوم في نهايته نافذة خميلة الزخرف.

ودخلت غرفة العمل، وهي غرفة واسعة عالية بيضاء الجدران. تقوم في وسطها حواجز خشبية وصفوف من الخزائن لتقسمها إلى ثلاث غرف إحداها للاستشارات الطبية والثانية كمستوصف وصيدلية والثالثة للانتظار. ويتألف الأثاث من منضدة خشبية بسيطة للكشف الطبي ومن مقعد تجلس عليه المريضات ومن مقعد ، ومنضدة أخرى تغطيها معدات الكتابة وللفائف والضمادات والحقن. وكان علي أن أجد مكاناً على هذه المنضدة يتسع أيضاً لمجهري. وكان أثاث المستوصف مؤلفاً من منضدة عالية القوائم، تعلوها خزانتان خشبيتان، عثرت في ادراجهما على بعض الأدوية معظمها من النوع الذي بطل استعماله، أو تجاوز وقت استعماله. فلقد أقام طبيب المكلا الهندي في المكان مركزاً للإسعاف، تولى إدارته مساعد يعاونه سالم عبد العجوز. وكان هذا المساعد يدعى عبداللّه وهو في الثانية والعشرين من عمره، وقد تلقى تعليماً لم يكمله، ولكنني سرعان ما عرفت أنه رجل ذو كفاية، يجب أن يتعلم. وينتمي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبداللّه إلى الحضارمة الذين يعيشون في جاوه وكان والده قد أعاده إلى حضرموت وهو في الثانية عشرة من عمره.

ولم يفد علي في اليوم الأول إلا عدد ضئيل من المريضات، إذ لم يكن نبأ وصول(الطبيبة) كما صرت أدعى، قد "أنتشر بعد. وهكذا اتسع لدي المجال، لاستكشاف شيبام، والتعرّف إلى معالمها. وكان أول ما فعلته هو أنني صعدت إلى سطح منزلي المؤلف من سبع طوابق، وهو الحصن القديم، وأعلى منزل في المدينة، لأجول بناظري مع الوادي صعداً وهبوطاً، ولأرى هذه المحيطات الفسيحة من الرمال، تتخللها بقع خضراء قليلة العدد، وتحيط بها جلاميد صخرية عمودية الانحدار في أسفلها سفوح سحيقة من الحصى وفتات الصخور. وتقوم بلدة شيبام المكتظة بالسكان، التي تضم نحواً من خمسمائة بيت وأربعة آلاف وخمسمائة إنسان في وسط هذه الوادي، على جزيرة لا يحيط بها المياه إلا مرة في كل أربع سنوات تقريباً عندما تتدفق سيول الفيضان من جراء الأمطار الشديدة. وقد بنيت بيوتها العالية التي تعتبر أكثر البيوت في حضرموت ارتفاعاً من الطوب الذي أحرقته الشمس. وتحيط أسوار عالية بسطوحها المنبسطة، تجنباً لأنظار الجيران المتطفلة وقد طليت بالكلس الأبيض كالطبقات العليا من المنزل، بحيث تبدو المدينة إذا تطلع إليها المرء من بعيد، بحراً من الأسطح البيض. وكان الأزقة التي تفصل بين هذه البيوت، أخاديد تغمرها الظلال.

وكان في استطاعتي أن أطل من السطح هذه الحصن القديم على الباحة التي تحيط بها الأعمدة في جامع صغير، لا تعلو مئذنته البسيطة المدورة على سقف الحصن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإلى جانب الجامع تقوم الحمامات التي يستخدمها المصلّون للوضوء عملاً بالطقوس الدينية قبل الصلاة، طبقاً لما شرحه لي سالم عبد. وفي الامكان تدفئة ماء هذه الحمامات في أيام البرد الشديدة. ومضى سالم يقول لي أن هناك ستة جوامع في شيبام، وأقدمها وأكبرها هو جامع السوق الذي يقوم في قلب البلدة. وقد بني هذا الجامع في أيام الخليفة هارون الرشيد وبأمر منه، طبقاً لتصميم بعث به إلى عامله في شيبام.

ولكل جامع بئر الخاصة به، التي يستمد منها الماء، لحمامات الوضوء. لكن ماء شيبام لاذع ومر للشرب. ومضى الرجل العجوز لي قائلاً: " ويضطر الناس للحصول على ماء الشرب للذهاب إلى السهل". أشار بيده إلى الجنوب باتجاه ضاحية تقع في سفح الصخور القائمة وراء مجرى النهر الرملي الواسع، ثم قال: " وكثيراً ما يضطرون إلى المشي ثلاثة أرباع الساعة على أقدامهم إلى القرى" .. أشارة ثانية إلى الصخور تقوم إلى الطرف الشمالي من الوادي.

ولم يكن الحصن القديم أعلى بنية شيبام أقدمها فحسب وكان أجملها وأكثرها تأثيراً. وارتفاع البناء أكبر من أتساعه، وتدق الأسوار المبنية من الطوب الكثيف، في قمتها لتتوج هاماتها زخارف فنية بيضاء تحيط بالشرفات والاسطحة.

وقد صنعت الشباكات التي تحيط بالنوافذ والأعمدة التي ترتكز إليها سقوف الغرف العالية والأبواب والمداخل من خشب الألب المزخرف بالنقوش الرائعة.

واحتلت كاتب القاضي طبقة هذا البناء أيضاً بالإضافة إلى الطبقة التي احتللتها أنا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد إن تمتعت بهذا المنظر الساحر من السطح، رحت أجول في بعض الوقت في الشوارع الضيقة وأتطلع بانزعاج إلى هذه الميازيب التي تندفع من جدران المنازل، ولكن انزعاجي سرعان ما زال عندما عرفت أن لا شيء ينصب على الشوارع من هذه الميازيب ألا الشاي. واكتشفت إن مجاري المطابخ والحمامات تمتد عند أطراف المنازل مؤدية إلى بلحاتها الداخلية. ولما كانت أوضاع النظافة في البلدة جزءا من مهمتي، فقد قمت بالتفتيش بدقة على المجاري المفتوحة التي تتولى نقل مياه البلدية المستعملة. وكان نضام المجاري هذا الذي عاش قروناً طويلة، قد تكيف الآن ليتفق مع الطقس الحار والجاف.

وجئت إلى الجامع الذي بدأ بمنارته البيضاء وعمدانه وزخارفه وكأنه مصنوع من السكر المثلج. ورأيت باعة الخضار يقفون أمامه في ظلال الدور المجاورة يعرضون بصلهم وبندورتهم وجزرهم وخيارهم وفلفلهم الأخضر والأحمر. وإلى جانبهم يجلس القصابون علو مقاعد حجرية واطئة وهم لا يبيعون إلا الحم الضأن والماعز، أذان الأبقار نادرة، وتستخدم في أعمال الحراثة وفي جر الماء من الآبار. ولا يأكل المسلمون لحم الخنزير، وهو نظام حكيم فرضه النبي بسبب ما يبدو على آكليه من علائم العدوى من الديدان الخيطية.

وتقوم حوانيت التجار في الأزقة الضيقة المحاذية للسوق في الطبقة الأرضية من البيوت بينما تتوزع مشاغل أصحاب الحرف أنحاء المدينة. وليس بين هؤلاء أي من اليهود، كما هي الحالة في تعز، إذ اختفى اليهود من هذه المناطق بعد إنتشار الإسلام فيها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووجدت عندما عدت إلى حصن السلطان، حسين العجم وهو من المواطنين البارزين في شيبام في انتظاري. وراح يرحب بمجيئي إلى مدينته. وكان يضحك مرحاً عندما يتحدث إلي بسرعة وبكلمات متلاحقة، تصحبها بعض الإشارات وكان يكشف في كل مرة يبتسم فيها عن أسنان ذهبية صنعها له أحد الصاغة المحليين. وراح يسألني عما إذا كنت قد تمتعت برحلتي، ثم أمطرني بوابل من الأسئلة على وطني، وكان مثل النساء، كثير الاهتمام بأسرتي، أذان الأسرة تلعب دوراً حيوياً بارزاً في حياة العرب، أذان احترام كل فرد منها وكرامته وسلامته الشخصية، أمور لها جذورها في الأسرة وفي القبيلة.

وعندما ودعني حسين العجم بعد تلك المتابلة دعاني لتناول الشاي بعد ظهر ذلك اليوم وللعشاء في بيته في الليلة التالية.

وقاد دني السيد مصطفى عبر الدروب الضيقة إلى بيت حسين الذي كان من بابه حتى سقفه مليئاً بالجدران المطلية بالكلس، والأدراج والزهور.

وصعدنا إلى الطبقة الثانية، إلى الجناح الذي يحل فيه سيد البيت ووجدناه في صحبة عدد من الرجال في مكتبه، وهو الاسم الذي كان يجب إطلاقه على هذه الغرفة الصغيرة المشرقة، لأنه كان يصّرف أعماله ويدون رسائله فيها. وكان حسين أيضاً كمعظم أهل حضرموت ولاسيما شيبام، تاجراً من كبار التجار.

وحذوت حذوا الآخرين فخلفت حذائي خارج الغرفة في الممر قبل الدخول إليها.

وأعد لنا الشاي أحد الخدم. وكان أمامه (سماور) صغير من الفضة، يسمى في هذه البلاد (بالبخاري)، وكان يوالي تزويده بالفحم من حوض صغير. وكان قد أعد لنا شاياً أحمر اللون، صبه في أقداح صغيرة من الزجاج، ملئت إلى ثلثها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالسكر، إذا أن هذه الشاي الشديد التخمير، كثير المرارة. وحمل شاب آخر، الطبق الذي صفت فوقه الأقداح، ووضع قدحاً واحداً منها على الأرض أمام كل ضيف من الضيوف. ويقضي العرف في هذه البلاد أن أحتسي ثلاثة أقداح متتالية من الشاي، إذ أن حفلة الشاي في هذه البلاد تعتني الترحيب والود كما تعني أن بيت حسين قد غدا منذ هذه اللحظة مفتوحاً دائماً لي.

وسمعت حسين يقول: تفضلي... بيتي هو بيتك.

ولد حسين العجيم في سنغافورة، وقد عاد إلى وطنه في حضرموت ليتزوج. وعندما نشبت الحرب الكونية الثانية، وأحتل اليابانيون سنغافورة وجاوه، تعذر على الحضارمة فيهما أن يبعثوا بأي مال إلى أقاربهم في الوطن، وعانى الألوف منهم، وهناك، وبينهم حسين من جراء ذالك.

وأدى النقص في النقد المتداول، والقيود المفروضة على التجارة إبان الحرب، وسنوات القحط والمجاعة في حضرموت إلى ما يشبه الكارثة. وكان البدو هم أكثر الذين عانوا من المجاعة، إذا أنهم كانوا حتى في الأوقات العادية يعيشون على الكفاف تقريباً في بلادهم العالية القاحلة. أما في تلك السنوات، فقد نضب ما لديهم من غذاء ونفقت حيواناتهم من أبل وغنم وماعز من الجوع والعطش، لتعذر حصولهم على العلف، ولجفاف الآبار من جراء نضوب الأمطار. ومات الألوف من البدو رجالاً ونساء وأطفالاً من الجوع، في طريقهم إلى الساحل حيث تتوافر بعض المؤن وتصل بعض المساعدات بسهولة من عدن.

وعندما تحوّلت جزر الهند الهولندية بعد الحرب إلى جمهورية اندونيسيا الجديدة، عانى الحضارمة مشقة متزايدة من جراء قيود النقد التي فرضتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدولة الجديدة وعدم سماحها بإخراج الأموال من البلاد، على النحو الذي كان سائداً قبل الحرب.

وتحتم عل هؤلاء (الفقراء الجدد) كما كان ضحايا هذه القيود النقدية الجديدة يحبون أن يسموا أنفسهم، العثور على اتجاه جديد، يستطيعون أن يستهدفوه في نشاطهم التجاري. وأصبحت سنغافورة بعد تحررها أخيراً من السيطرة اليابانية، مفتوحة من جديد أمام الحضارمة، وارتفعت القيود التي كانت مفروضة على النقد. وهكذا أتيحت الفرصة من الجديد لحسين، لخلق تجارة ناجحة مع أقاربه هناك.

وكان حسين أحد القليلين من أهل شيبام الذين يملكون السيارات. وكانت لدية سيارة دودج قديمة، يتركها دائماً على مقربة من بوابة المدينة أذان شوارعها الضيقة لا تتسع للسيارات. وكانت نوابض (زنبركات) السيارة قد أنكسرت أكثر من مرة، وتحتم عليه الآن أن يربطها بالجبال .

وعندما كان حسين يرغب في أن يمضي بي وبالسيد مصطفى إلى (الآبار) وهي حقوله التي ترويها المياه، كانت السيارة تمتنع عن الحركة، بسبب ما لحق (بالبطارية) من أجهاد، مما يحمله على أن يستصرخ أحد الخدم، ليدبر محرك السيارة بالموفق الحديدي.

وكنا نترك المدينة من بوابتها الوحيدة، وسرعان ما نجد أنفسنا وسط كثبان عالية من الرمال. ولم تكن هناك طرق معبدة، أو حتى آثار لعجلات سيارات مرت بالمكان منذ أمد بعيد. ولكن حسين كان عالماً بالطريق، ويقود سيارته الدودج القديمة والمتهاوية بمهارة، مجنباً إياها خطر الانغراز في الرمال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووصلنا أخيراً إلى أرض صلبة على مقربة من الصخور الشمالية التي لا تبعد كثيراً عن القرى، وهو المكان الذي يتوافر فيه الماء الطيب الصالح للشرب والذي كان سالم عبد قد أشار إليه في الصباح.

وكنت أرى ومجموعات من الأشجار منتشرة هنا وهناك ومعظمها من الطوفاء، التي تنمو على أطراف بعض الحقول المعنيّ بها عناية طبية والمزروعة بالحنطة الخضراء. وتلقي كل واحة من هذه الواحات بظلال أشجار على بئر من الآبار التي تسحب المياه منها بمساعدة الرجال والحيوانات والمواشي والإبل والحمير، لري الحقول، ساعات وأياماً, اسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر في الليل والنهار. وكان عمال الحقول، يتغلبون على ملل الليالي الطوال بالأغاني التي ينشدونها لتستثير حيويتهم، بينما تدور الدواليب الخشبية فوق البئر، وينصب الماء على مسافات متساوية من الأوعية الجلدية في أحواض يجري منها عبر قنوات وبحار إلى الحقول لريها.

ومع ذلك كان الشيخ حسين رجلاً عصرياً، إذ قال لي (اشتريت الحرب مضخة ديزل ألمانية الصنع. وما زالت تعمل حتى الآن رغم إنقضى عشرين عاماً على شرائها، ولم تحتج في أي وقت إلى إصلاحات كبيرة. هل تسمعين صوتها؟) وتوقفت السيارة عند هذا السؤال عند بيت البستاني.

وجاء البستاني مسرعاً وقبّل بإحترام زائد يدي حسين والسيد مصطفى . ودخلنا الظلال التي تلقيها أشجار الطرفاء، وشخصنا بأبصارنا إلى البئر. وهناك على بعد ثلاثين قدماً، وفي كوة تقوم فوق سطح الماء ، رأينا مضخة الديزل الأمينة العجوز ، التي كان حسين معتزاً بها أشد الإعتزاز .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما كان الليل قد حل ، فأن البستاني قد أوقف المضخة. وكان في وسعنا في هدأة الليل أن نصغي إلى خفقات الدواليب الخشبية وهديرها ، في الواحات المجاورة . وجلسنا في ظلال الأشجار ، وملأ حسين (نرجيلته) التي يسمونها هنا(روشيبه) ، والتي لا فن فيها ولا زخرف من الفضة أو النحاس كالتي رأيتها في اليمن، وأنما هي من النوع السهل الصالح للإستعمال في كل مكان بحيث يستطيع المرء أن يحملها معه أنى ذهب ، وهي مؤلفة من جوزة هند موضوعة في صندوق من الصفيح ، ولها عنق طويل مع رأس من الآجر المحروق ، مع أنبوب طويل آخر يمتد من جانبها.

ويجئ حسين بطباقه من (غيل باوزير) في أرض الحموميين التي تبعد مسيرة ساعة من ميناء المكلا. وقد إشتهر أمر الطباق منذ أكثر من مائة عام ، وكان يصدر دائماً إلى مصر وتركيا.

وطلب حسين إلى بستانيه أن يأتيني بقدح كبير من ماء الينبوع البارد. وقال لي : (إنه ماء حلو طيب ممتاز للغاية ، وعليك إن تذوقيه). ويتمتع العرب بميزة رائعة في تذوق أنواع المياه . إذ أن الماء في هذه البلاد شيء ثمين لا يقدر بثمن.

وعندما غطت الشمس في الأفق البعيد ، هب الرجال على أقدامهم ، وغسلوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم في البئر . وراح واحد منهم بعد ذلك ويتجه بوجهه إلى مكة ، ويستقبل الكعبة.

وقد أعد في الليلة التالية (عزومة) صغيرة خاصة على شرفي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أصدقائه الشيبانيين ، للتعرف علي . وكنت كسيدة مع التحدث بإنطلاق مع الرجال والجلوس إليهم . أما بالنسبة إلى السيدة العربية ، فكان هذا مستحيلاً هنا كما في اليمن . فحتى في الأوساط العائلية يظل الرجال منعزلين عن النساء.

وأمتد منديل أبيض من القماش على الأرض ، وانتشرت فوقه الأطباق وصحاف الأرز واللحم وعصير البندره الممزج بالبهارات . وكان هناك أيضاً طبق الخضروات الطازجة من أراضي حسين.

وكان جميع الرجال قد أنفقوا عدداً من السنين في بلاد أجنبية ، وكان باستطاعتي أن أتميز هذا بسهولة وفوراً ، إذ أن الاتصال مع الناس الذين عرفوا شيئاً عن العالم الخارجي يكون دائماً أسهل وأهون. وقضينا الليل في حديث ينبض بالحيوية . وأطلعني حسين قي زيارة أخرى ، غير هذه الزيارة على مسدسه (الموزر) الألماني الذي يحتفظ به للدفاع عن نفسه في صندوقة مغلقة . وقال لي : لا يعرف المرء مطلقاً ، إذا كان سيضطر في يوم آخر إلى استعماله ثانية.

ولم يمر طويل وقت على هذا الهدوء الذي يسود حضرموت . فقبل سنوات قليلة لم يكن في وسع أحد أن يسير خارج المدينة دون سلاح. وكان يتحتم علينا أن ندافع عن أنفسنا ضد غارات البدو، إذ كانوا يلبسوننا حاصلات تخلينا في الليل ويحرموننا الحنطة التي يأخذونها من حقولنا).

ومضى حسين يقول : (وكانت هناك ثارات ونزاعات قبلية مختلفة بين الأسر، التي تحارب الواحدة منها الأخرى، والتي ظل الصراع مستمراً بينهما عشر سنوات أو عشرين، وكان الفرد منها يطلق النار على عدوه فوراً إذا اطل برأسه من نافذة. ولم يكن في وسع النساء والأطفال الوصول إلى الآبار إلا عن طريق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خنادق تمر بالحقول . فلقد كانوا يصبون الزيت على جذور أشجار النخيل لقتلها. وكان السلاطين والزعماء القبليون يتصارعون على السلطان . وقد أضطررنا في كثير من الحالات إلى النزول بنسائنا وأطفالنا إلى السراديب والأقبية خوفاً عليهم من أن يصابوا بجراح ، أبان الإشتباكات التي يتبادل إبانها اطلاق النار.

ورحت أسال حسين ... ولكن هل كان السيد أبوبكر بن شيخ الكاف هو الذي وضع نهاية لهذه الحالة؟

ووافقني حسين على رأيي هذا بجماع قلبه ، وأعترف بأنه هو نفسه كان أيضاً واحداً من الحضارمة الصلبين الذين ساعدوا في إحلال السلام في البلاد.

وقدر لي أن أجتمع بعد قليل إلى السيد أبوبكر شخصياً عندما أخذني حسين والنائب الذي عاد إلى شيبام إلى حفل أقيم في تريم وشهده جميع البارزين وذوي المكانة من الحضارمة.

وتقع تريم إلى الشرق من وادي حضرموت ، وهي مدينة أسرة الكاف . إذ أن هذه الأسرة التي تعد أكثر من ستمائة شخص هي المسيطرة على هذه المدينة وهي أكثر الأسر ثراء ونفوذاً وعظمة.

وكانت البيوت أفراد هذه الأسر قصوراً شيدت على أروع أشكال البناء والهندسة المعمارية وأكثرها غرابة ، وإن كان بعضها بما عليه من رسوم وظلال ، لا ينطوي على أفكار فيها ذوق رفيع ، وإنما تطورت على خيالات حملها أصحابها من سنغافورة . ولا ريب في أن أرض بعض هذه القصور ، اللماعة البراقة كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تدعو أي إنسان حتى مؤلفة هذا الكتاب ، إلى الإمتناع عن السير بالأحذية عليها مخافة إتساخها.

ودعينا إلى أحد هذه البيوت في تلك الليلة . وكانت أضواء المصابيح الناعمة تنعكس على مياه بركة للسباحة تقوم في منتصف شرفة واسعة ، تقع أمام بيت أبيض من طبقة واحدة ، تمتد إلى جوانبه أفنية تستند إلى أعمدة مزخرفة. وكانت جميع الأبواب المؤدية إلى مختلف الغرف مشرعة على مصراعيها . وأخذ الضيوف جميعاً يتجولون في الدار بعد أن وجدوا الترحيب الحار من صاحبها عند مدخلها. ورأيت شاباً قصيراً ودوداً يرتدي عمة من الحرير الأبيض، وعقالاً من الذهب يحيط برأسه، وسرعان ما تبنيت إنه سلطان دولة الكثيري.

ووقف إلى جانب السلطان كاتم سره، وهو رجل كهل يتميز بوجه حاد للغاية.

وجلسنا جميعاً على السجاد على الأرض في إحدى الغرف الفسيحة ، بينما ألقيت الخطب، التي استهلها شابان. ثم هب رجل ضرير ، وهو سيد عجوز كريم على قدميه ، فألقى خطاباً ذكياً رائعاً ... وهمس حسين في أذني يقول ... إنه شاعر.

وقد تأثرت كل التأثر بالطريقة التي يخطب فيها هؤلاء الناس ، دون أن يتركوا إنطباعاً عن وجود شيء من النفاق أو الإذلال للسلاطين الذي يبدو عادة في الخطب التي تلقى في اليمن في حضرة الإمام في الأعياد الكبيرة.

ولم تبد لي العلاقة هنا قائمة بيت أتباع يتمسكون بالإنضباط الصارم وبين حاكمهم المطلق ، بل بين مواطنين أحرار وبين رئيس دولتهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان النائب وحسين يقدماني مزهوين فخورين بإسم طبيبة شيبام ، إلى الرجل الذي سمعت اسمه يقابل بكثير من الإحترام والإجلال في كل مكان حتى في عدن وهو السيد أبوبكر شيخ الكاف .

ووقفت أمام رجل في نحو الستين من عمره. وكان يرتدي كفية من تلك التي يلبسها عادة الذين أدوا فريضة الحج إلى مكة المكرمة ، تعلوها عمة بيضاء.

وبدت في وجهه الصغير مظاهر الجد والوقار ، كما ظهرت فيه التجاعيد العميقة نتيجة السنوات الطويلة من الألم التي عاشها وهو يحاول إحلال السلام في حضرموت . وكانت عيناه تشرقان بالحكمة واللطف . وقد أقنعني مظهره الصريح المستقيم بأني في حضرموت شخصية بارزة وعطوفة للغاية.

البداية

سرعان ما أزداد عملي في المستشفى . فقد جاءني عشر مريضات في اليوم التالي وسرعان ما ارتفع الرقم إلى عشرين وثلاثين. وأخيراً بات يؤم عيادتي في كل يوم نحو خمسين مريضاً من رجال ونساء وأطفال. وظل هذا الرقم على حالة طيلة الشهر الأول . وكان الناس يحسون بالراحة، في الفصل البارد ، ويصبح في إمكانهم الرحيل من مسافات بعيدة إلى المدينة ، بينما كانت الرمال المحرقة وقت الظهيرة في أوساط الصيف ، تذيب النعال التي يلبسونها في أقدامهم .

ولم يكن في الإمكان في مثل هذا الازدحام وهذا المكان المحصور الضيق ، الحفاظ على النظام وتنفيذ الأعمال بسرعة. وتحتم علي أن أتعلم فتح عيني دائماً والقيام بأعمال عدة في وقت واحد .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان الزحام على الباب كبيراً إلى حد حمل سالم عبد العجوز، على أن يقرر إغلاق الباب بالمزلاج، لكي نتمكن من العمل في هدوء. وبالنظر إلى انعدام الضير في معالجة الرجال معاً، فقد كنت أدخل خمسة منهم إلى غرفة العلاج في وقت واحد. وكانوا يدخلون خجلين صامتين ويجلسون على المقعد ينتظرون دورهم.

وكنت أسأل أولهم ... ما أسمك .

فيرد قائلاً ... صلاح بن محمد القربي .

- هل أنت بدوي ؟

ويحني رأسه بالإيجاب.

- وأين بيتك؟

- بير عساكر على بعد خمسة أيام إلى الغرب من هنا.

وكان صلاح القربي قد جاء مع قافلة من الإبل إلى شيبام ، وكان في طريقه إلى الساحل باحثاً عن حمل من الأرز ينقله إلى الوادي. ولكن أحد جماله عضه عضة مؤذية في يده .

وقلت للرجل ... اسمع يا صلاح، أن يدك تحتاج إلى علاج أسبوع لتشفى .

- ولكنني مضطر إلى السفر غداً، وليس في مكنتي منع القافلة من السير .

- اسمع. سيقوم سالم عبد بغسل يدك ، ووضع الدواء على الجرح . وعليك أن تعود غداً واليوم الذي يليه أيضاً . وأعتقد أن في ذلك الكفاية مؤقتاً وأني لأرى أن على قافلتك أن تنتظر يوماً واحد. وسأعطيك بعد ذلك عقار تستعمله في رحلتك.

وتولى سالم العجوز بعد ذلك العناية به، وكرر على مسامعه ما قلته عشرات المرات إلى أن قنعه أخيراً البقاء. وبعد أن تم ربط مدة بالضماد جاءني القربي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأبلغني ما قاله سالم ولكنه أصر على أن يسمع هذا القول على لساني. وأخيراً أقتنع الرجل ، وعاد إلينا في الأيام الثلاثة التالية طالباً العلاج وكان المريض الثاني سقّاء يحمل الماء للشرب على حماره كل يوم من موضع القرى. وكان يشكو من الحمى والألم مخيفة في رأسه . وأنها الملاريا.

وأعطاه عبدالله إبرة وبعض مسحوق اللإسبرين. ولم يكن لدينا علاج على شكل أقراص وإنما على شكل مسحوق وتحتم علينا أن نقيس المسحوق وجرعات بحد الموسى.

ورحت أرقب وأنا أضع مجهري على منضدتنا الوحيدة وأفحص المرضى ما إذا كان عبدالله وسالم عبد ينفذان تعليماتي تنفيذاً صحيحاً . وكان عبد يتمتع بيدين ماهرتين وسرعان ما أتقن عمله إتقاناً كاملاً . وظهر الرجل العجوز على حقيقته وكيلاً عاماً صحيحاً ، ووفياً ومتزناً . وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة ،إلآ أنه كان في استطاعته تمييز عدد من العلاجات من مجرد النظر إليها، أو ذوقها أو شمها ، وقد تخصص في معالجة الجروح والإصابات وتضميدها.

وفرغ صبر أحد مرضاي . ووقف على قدميه وتقدم مني ، وراح ينقر على كتفي ليستشير اهتمامي ، إذ أنه لم يكن قد رأى مجهراً من قبل، ولم تكن لديه فكرة مطلقاً في أن هذا الجهاز جزء من عملي.

ورحت أقوله ... أجلس وانتظر

ولكنه لم يعد إلى مقعده وإنما اقعى على مقربة من مقعدي مستنداً إلى الحائط وظل ساكناً بلا حراك. وخيّل إلى صديقه الذي جاء معه ، أنه قد يكون من الخير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا مضى إلى جانبه وجلس معه، ولكي يعرض نفسه بوضوح على ناظري راح يجذبني من تنورتي ، وكأنه يجذب جرس تنبيه.

وكان الرجلان ينتميان إلى وادي بن علي، وهو واد يتصل بوادي حضرموت على مقربة من شيبام . وكانا ولدي عم، ويملكان مساحة ضيقة من الأرض وبعض أشجار النخيل. ولم يكن في وسعهما أن يزرعا ويحصدا إلا إذا هطلت الأمطار غزيرة، وسالت مياهها في واديهم، إذ كان يتحتم عليهم للحصول إلا على المياه الجوفية ، أن يحفروا نحو من ستين قدماً قبل الوصول إليها ، وحتى لو وصلوا لما كان الماء كافياً ليشرب منه أهل القرية بلة ري مزروعاتهم.

وكان آخر مرضاي في ذلك اليوم رجلاً من شيبام يعمل نجاراً ويدعى عبد. وكان يبدو شاحب الوجه للغاية. وقد فقد شهية الطعام ورحت أقول له .. (في وسعنا أن نساعدك ، وفي إمكانك أن تأخذ كل شيء من المستشفى دون أن تدفع شيئاً . ولكن أسمع يا عبد . إننا إذا ساعدناك ، ففي وسعك أن تعمل لمساعدتنا مقابل ذلك . أن لدينا هنا قفصاً كبيراً من الخشب، وأني لأطلب إليك أن تعمل لي منضدة من خشبة . ولن يستغرق هذا العمل ، كبير وقت منك . فمستشفانا فقير، وليس لدينا مال لندفعه).

وتردد عبد في البداية ولكنه حمل القفص أخيراً، وعاد إلي بعد أيام قليلة يحمل منضدة عملها لي . ولكن سطحها الخشن لم يكن صالحاً لأستخدمه كمنضدة أضع عليها أدواتي اللازمة للعمليات. ورأيت أن تغطيتها بلوح زجاجي هو خير ما يمكن عمله ، ولكن ترى كيف أستطيع الحصول على هذا اللوح؟ ليست هناك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى ألواح زجاجية للنوافذ في هذه البلدة، إذ أن أهلها لا يشعرون بضرورة الزجاجة للنوافذ.

وبينما كنت أقلب الموضوع في فكري رأساً على عقب وأقتله بحثاً وتنقيباً ، خرج سالم العجوز من غرفة المهملات التي تضم الصناديق والصفائح والزجاجات الفارغة ، وهي أمور نادرة الوجود هنا، وإذا كانت لها قيمتها الكبيرة.

وحمل إلي صورة فوتوغرافية ضمن إطار لسلطان القعيطي. وراح يسألني ... ألا يمكنك استخدام زجاج الصورة غطاء لمائدتك؟

حقاً إن الحل لمشكلتي . وهكذا خدمتني هذه المنضدة المبتكرة مدة سبع سنوات طويلة.

ولما كانت تقاليد البلدة وعاداتها لا تسمح بجلوس الرجال والنساء معاً في الممر ، فقد كنت أسمح للنساء بالدخول والاختباء وراء الخزائن الخشبية التي كانت تؤدي أيضاً دور الحواجز في الغرفة. وهكذا حضرت على الرجال دخول الغرفة حتى تتمكن النساء من المجيء طلباً للمعالجة الطبية.

ولم تكن النسوة يألفن أن يسألهن أي أجنبي أو أجنبية عن أسرهن وأسمائهن وأماكن ولادتهن . ولذا كن يبدين حائرات ويسألن عبدالله وسالم من وراء أحجبتهن ... ماذا تقول الطبيبة؟ هل تتحدث بالعربية؟

فيرد عليها هذان ... (تحدثن إليها. إنها تفهم العربية ، وتفهم كل كلمة تقلنها).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى الرغم من أن مساعدي كانا ينسحبان إلى ما وراء الخزائن الخشبية إلا أن المريضات كن يترددن في رفع أحجبتهن، ويجلسن بشيء من الحيرة، وقد انفرجت أساريرهن عن ابتسامات غربية.

وقلت لإحداهن ...إذن فما سمك بركة؟ قولي لي ممّ تشكين، وماذا أصابك؟

وسرعان ما انتصبت في وجه المرأة شيماء الألم الفجائي، وبدأت بصوت ضعيف تخنقه العبرات تشرح لي العوارض التي تظهر عليها بأسباب واضح. وراحت تمسكني بشدة من ركبتي دون أن أستطيع تجنّب ذلك أو فكاكاً منها، وتقول: (هنا موطن ألمي). وكانت هذه هي طريقتها في إيضاح المكان الذي تشكو الألم فيه. وتمكن عبدالله وسالم أخيراً من حملها على إدراك أنني أستطيع الفهم تمام الفهم دون أن تضطر هي إلى إيذائي.

وعندما كانت بركة تنتظر علاجها في اليوم التالي قالت للمريضات الأخريات أن في وسعهن أن يتحدثن بأمان إلى الطبيبة ولكن عليهن أن تجنبن لمسها.

ولم تكن نساء البارزين والأثرياء من أهل المدينة وبناتهن يزرن الحصن القديم أذانه قريب من دوائر الحكومة في ميدان المدينة الكبير. ولم يكن يليق بسيدة محترمة حتى أن تمر بهذه الدوائر. ولهذا تحتم علي أن أقوهم بعدد كبير من الزيارات إلى البيوت الخاصة، لا إلى نساء الأثرياء وأطفالهم فحسب بل للمرضى سوء أكانوا أغنياء أو فقراء، إذا كانوا في حالة سيئة لا تمكنهم من المجيء إلى المستشفى .

وكثيراً ما وجدت في الصباح الباكر عبدالله وسالم على درجات الحصن ، بصبحة رجال آخرين من أمثال كاتب النائب وموظفي البرق والبريد والمعلمين وطلابهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصغار الذين كانوا يتمتعون بالحديث لإيقاظهم قبل الشروع في الأعمال العادية . وكانوا يفسحون لـي المجـال عنـدما أصـل إلـيهم ، فـأجلس معهـم علـى درج الحصن. وكان في وسع كل إنـسان أن يقـترب مـني وأن يعـرفني علـى رغباتـه ، وكانت هذه الرغبات تتلخص عادة في ترتيب بعض الزيارات لبيوتهم. ونقل إلى خادم التاجر عبـدالرحمن أن حالـة طفـل سـيده قـد تحـسنت . وجـاءني حـسن شخصياً ليأخذني لمعاينة والده. ووفد علي طفل بدوي أخذ يتوسل إلي علاج أمه. وكان سالم عبد يساعدني على القيام بهذه الزيارات في المدينة . فلقد كـان دفـتر عناوين متنقلاً ، وكان في وسعه أن يقدم إلي كل م أطلبـه مـن معلومـات عـن أي شخص من سكان المدينة . وبينما كان عبدالله يتولى تنفيذها ما وضعته من عـلاج للمرضى القدامى، كنت أغتنم فرصة برودة الصباح الباكر للقيام بجولاتي .

وكان سالم عبد يحمل حقيبتي ويسارع ماشياً أمامي عـبر أزقـة البلـدة الـضيقة وسرعان ما يطرق أحد الأبواب الضخمة، لنصعد بضع طبقـات ، إذ أن النـاس لا يعيشون هنا في الطبقات الواطئة، وإنما يستعملونها مخـازن أو حظـائر للمـاعز والمواشي الأخرى. ويظل سالم في الطبقة الثانية مع رجال المنزل، بينما أصعد أنا إلى الطبقة العليا لعيادة النساء. وكثيراً ما قادوني عبر ممر طويل ، إذ أن الأخوة أو الأقارب في بيوت متجاورة ، تكون هذه البيوت متصلة عادة في أحد الطوابـق بحيث يستطيع المرء أن ينتقـل مـن منـزل إلى آخـر وإلى ثالـث ورابـع وخـامس وسادس دون أن يضطر إلى الخروج إلى الشارع. وكنـت أرتبـك مـن هـذه الممـرات المتواصلة بين الدور والغرف الأدراج المختلفة. وكثيراً ما حدث أنني خرجت إلى الشارع من المنزل السادس عارية القدمين. إذ أنني أكـون قـد خلعـت حـذائي في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنزل الأول الذي دخلت. وتتمتع النسوة بميزة كبيرة، وهي عدم اضطرارهن إلى التحجب عندما يقمن بزياراتهن في هذه المنازل المترابطة، وهي زيارات تحتل القسط الأوفى من حياتهن اليومية.

وكان الفحص والعلاج يتمان على الأرض، إذ أن البسط وقطع السجاد والحصر، هي الأثاث الوحيد في الغرف. أما الأرائك فلا تفرش إلا في الليل، وتودع في النهار في غرف حسنة التهوية.

ولك يكن إجراء العمليات الجراحية الصغيرة، كفتح (خرّاج) أو انتزاع كيس صغيراً وتضميد جرح، بسبب متاعب كبيرة أو يلقي أعباء ثقيلة ، فقد كنت أحمل معي في حقيبتي الكبيرة كل ما أحتاج إليه من معدات وعلاجات. وكان هذا الإجراء يوفر وقتي ونشاطي ويحول بين المرضى وبين الإنتظار في حالة من العصبية والقلق، يتعرضون فيها لتنشيط العزائم من الأقارب الأصدقاء مما قد يؤدي أحياناً إلى رفضهم قبول العمليات المقترحة.

وكنت أحتاج إلى الصبر العظيم مع هاته النسوة. فلقد كن طليقات لا عمل لهن مطلقاً، وكنت بدوري امرأة كثيرة الشغل.

وتتمتع المرأة في حضرموت بإحترام يفوق ما تتمتع به شقيقتها في اليمن. وقد تبينت هذه الحقيقة فور وصولي إذ عرفت أن النساء لا يعشن في طبقات تقع دون الطبقات التي يعيش فيها الرجال، بل في طبقات أعلى منها. وكان في وسعي هنا أن أتحدث بإنطلاق أكثر إلى الرجل عن زوجته أو بناته، وأن أذكر حتى أسماءهن. ولم يكن هنا مجهولات كل الجهل في هذه الحياة العامة، كما هي الحالة في اليمن. وكان الرجال يسمحون لنسائهم بأن يلعبن دور أكبر في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حياتهم، مما أدى إلى إن أفكار المرأة هنا كانت أكثر إتساعاً وأن أفاقهن أوسع شمولاً.

وكن يتحركن بجلال بملابسهن الطويلة ، التي تجرر وراء ظهورهن ، وكن يمسكنها بأنطقة من الفضة، مربعة في صدرها موشاة بالقصب الأبيض والمطرز في جميع أطرافها . وكن يتحلين في زينتهن،اليومية بالقلادة تضم حبات من الذهب، وبأساور ذهبية. وكن جميعاً يصففن شعورهن السوداء في ضفائر لا عد لها ولا حصر، وهي طريقة متناهية في الجمال والروعة. ولما كانت شعورهن تغسل مرة في كل أسبوعين فأن قص الشعر وتصفيفه ورسم بعض الزينات الفنية بالحناء على الأيدي والأقدام ، مما يستغرق سبع ساعات وثمانياً في كل مرة، عمل مربح للغاية لكثير من النساء الفقيرات. وتصبغ النساء المتقدمات في السن، شعورهن البيضاء بالحناء أيضاً ، فهن هنا، كما في أي بلد آخر من بلاد العالم يحاولن كل ما في وسعهن من جهد أن يخفين أعمارهن . وترتدي النساء المحجبات في الشارع أردية خارجية زرقاء فاتحة، بينما يرتدي الخادمات أردية سوداء ، ويرتدي الساقيات أثواباُ بنفسجية.

وكانت المربيات (الدادت) تجلس في الصباح خارج دورهن، ويسمحن للأطفال المعهود إليهن برعايتهم باللعب في الرمل، وكذلك في القذرات لسوء الحظ. وكان هؤلاء الأطفال يتطلعون إلى في بادئ الأمر بعين الفزع، ولكن الكبار منهم سرعان ما ألفوني ، وأخذوا ينشدون معاً وكأنهم جوقة منشدين، عندما يروننني (:الطبيبة... حقنا)... تم يقدمون إلى أيديهم ألقى التحيات الودّية من أهالي شيبام. وكانوا يفدون إلي لينقلوا إلي بعض أنبائهم العائلية ، وليوجهوا إلي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض الأسئلة. وكان البدو الذين يأتون بما عزهم وفخمهم إلى السوق يـؤثرون أن يعالجوا فوراً، وكان من الصعب إقنـاعهم ، بـأن مـن الخـير والأسـهل لهـم لـو عولجوا في المستشفى . وكثير ما تذكر بعضهم عند رؤيتي ، وبصورة مفاجئـة ، مريضاً، يشكو أوجاعه منذ أمـد طويـل فيقولـون: (معنـا واحـد مـريض)، ثـم يقودونني لأفحص حالة من أكثر الحالات سوءاً ومدعاة إلى الرثاء.

وينظرون هؤلاء الناس إلى أدوائهم، وكأنها تفقد من الله لهم. ولم أسمع منهم قط كلمة لوم أو تأنيب عندما كنت أجد نفسي عـاجزة عـن تقـديم أي عـون لهـم أو مجرد قليل من العون.

وكنت أستأنف عملي في المستشفى بعد عياداتي اليومية العاديـة حتـى سـاعات متأخرة من بعد الظهر. ولكن لا ألبـث حتـى أتلقـى دعـوات لزيـارة المرضـى في القرى، ولذا فان عملي اليومي ما كان ينتمي قط . وكانت المشقة العظيمـة الـتي عانيت منها، أنني لم أجد سـيارة تحـت تـصرفي في الـسنوات الأولى مـن عملـي وهكذا كان أقرباء المرضى يجدون أنفسهم ملزمين باسـتئجار أحـدى الـسيارتين الموجودتين في شيبام، أو وقف أحدى الـشاحنات القليلـة، وإقنـاع سـائقها بـأن يقوم بهذه الرحلة الإضافية مقابل أجر باهظ .

وكانت السيارة تحمل ركابـاً آخـرين وبـضائع ورسـائل في مثـل هـذه الـرحلات الإضافية، وكان كل فرد يغتنم هذه الفرصـة، وهكـذا كـان مـستأجر الـسيارات يحصل على بعض المال، فيخفـف مـن النفقـات الـتي تكلفّهـا. وتقـف الـسيارة الطريق في أماكن لا عد لها ولا حصر، وكثيراً ما توّجب علينـا أن ننتظـر بينمـا يقوم السائق بجمع الأجور الجديدة، وتحميل السلع البريد. وكثيراً مـا توقفنـا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لتناول وجبات من الطعام أكراماً للطبيعة، ولم يكن في وسعي أن أرفضها أما تطييباً لخاطر السائق الذي كان يشترك في هذه الوجبات أيضاً، لآن رفضي يعد تنكراً صارخاً لعادات البلاد وتقاليدها.

وكثيراً ما نقلتني سيارة حسين القديمة يقودها سائقها مبارك لتجول بي في الطرقات صاخبة مدوية.. ويسأل السائق الخادم فارح الذي جاء ليسلمني رسالة... وأين سنعطف عن الطريق؟

ويشير فارح إلى حقل بعيد، وبين لنا الطريق الأفضل للوصول إلى هدفنا. وكثيراً ما توقف الآلة القديمة محدثة صريراً مخيفاً، مما يدعونا إلى الانتظار حتى تبرد، قبل أن نعود إلى مواصلة السير. وتنتهي الحقول وتصبح الأرض صلبة ومنبسطة، ولا يمضي طول وقت حتى نجد أنفسنا مرة ثانية نخوض كثبان الرمل، ولكن فارح، يرشدنا إلى طريق تظهر فيها آثار الإبل، ويطلب إلينا أتباعها، حتى نخرج من الكثبان على مقربة من حصن وحيد ناء، يملكه سيدة في واحة من الحقول الخضراء وأشجار النخيل. وسرعان ما يقودونني لرؤية المريض.

ولكن هناك أكثر من مريض واحد. فجميع أفراد الأسرة وحتى الخدم ينتهزون الفرصة لاستشاراتي. وقد جاء بعضهم أيضاً من الخرب والقرى القريبة .

وسأل عم مبارك ، عندما تحين أخيراً ساعة العودة إلى شيبام واسمع احدهم يقول : (سيكون هنا بعد دقيقة واحدة. وأجلسي واشربي شايك في نعيم وهدوء). لقد ذهب ليوصل رسالة من سيده إلى أحدهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وانتظر ساعة اشرب فيها الشاي واطرد الذباب بتكاسل عن وجهي بمروحة أحملها في يدي. ولا اشترك إلا نادراً في أحاديث الرجال ، إذ أنني متعبة. ويعود أخيراَ مبارك، ويجلس مع الناس ليشرب نفساً من (الغليون) معهم . وأقرر أنه يستحق هذه الراحة، عندما أفكر بالطريق الطويلة الشاقة التي يتحتم عليه أن يقود السيارة فيها عند العودة ، في ظلام الليل. وأروح اسأله بعد فترة : هل أنت على استعداد ؟ وهل نبدأ عودتنا؟

ويقول مضيفنا : انتظري لحظة. ثم يختفي في البيت . ويعود بعد ربع ساعة ويجلس ثانية . وأوقف الآن وقد أصبحت مستعدة للذهاب.

ويقول الرجل : اجلسي يا طبيبة. عليك أن تتناولي العشاء أولاً.

- لا. شكراً. لقد تأخرت . ما زالت أمامنا ساعة لنصل هدفنا.
- وسيكون العشاء جاهزاً في غضون حمس دقائق. انك تزورين بيتي لأول مرة، ولا أستطيع أن أتركك تغادريننا دون أن تتناولي شيئاً من الطعام معنا. هذه هي عاداتنا . وألا تحتم علي أن أقطع يدي.

لا يبقى أمامي أية حجة إزاء هذا التهديد. فهل أسمح له بقطع يده؟

وإذا كانت شوارع شيبام ضيقة وكانت بيوتها متراصة مع بعضها ، فأن شوارع سيئون وتريم وهما المدينتان الكبيرتان في الدولة المجاورة ، فسيحة ومنتشرة. وفي كلتا هاتين المدينتين مركز قديم ضيق وشوارع ممتدة تملاها الحدائق ، وبيوتها كبيرة جميلة، تنم عما ينعم به أصحابها من ثراء ورخاء.

وتحتم في المستقبل أن أقضي يوماً واحداً في هاتين المدينتين لزيارة المريضات فيها لإجراء بعض الاستشارات الطبية . و كان وكان في كل من المدينتين مستشفاها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاص بها والذي أقيم قبل مدة ولكن بات من العير الحصول على أطباء لهذين المستشفيين ، إذ لم يكن هناك من الأطباء من هو على استعداد للعيش في مثل هذا المكان النائي من العالم مقابل مثل هذا المرتب الضئيل . وكان ثمة طبيب هندي قد أوصل إلى سيئون عندما وفدت إلى تلك البلاد، أما مستشفى تريم، فقد ظل على أي حال ، مهجوراً .

وجاءت سيارة تملكها حكومة الكثيري في ساعات الصباح الباكر لتقلني إلى سيئون. وكان المستشفى وكان المستشفى فيها إلى حد الذي لا يكفي زميلي الهندي لمعالجة الرجال ويكفيني أنا في الوقت نفسه للعناية بالنساء. ولهذا وضع سلطان الكثيري (بنجلة) تحت تصرفي ، أعالج فيها مرضاتي من النساء.

وكانت (البنجلة) زرقاء اللون رائعة ، وفيها الكثير من البياض أيضاً، ويتميز داخلها بالنظافة التامة. وعهد إلى (رحمة) وهي خادمة شابة ودودة من قصر السلطان بالعناية بالبنجلة، وبخدمتي طيلة وجودي فيها. وقادتني عبر القاعة السفلى إلى الدرج الذي أوصلني إلى الغرفة الوحيدة في المنزل حيث وجدت منضدة حديدية من التي توضع في الحدائق عادة ، ومقعداً حديدياً . ورأيت في الممر الضيق وفي الشرفة المكشوفة ثلاثاُ وأربعين امرأة محجبات بالسواد انتظاري. وكن يردن الدخول إلي جميعاً وفي وقت واحد. وكانت كل واحدة منهن تريد أن تراني . وكانت تخشى أن لا يقترب مني. وتحتم علي أن أدفعهن إلى الممر وأن أغلقه بالمزلاج أخيراً. أما اللائي بقين في الغرفة لاستشارتي فقد اختبأن وراء المنضدة حتى لا تراهن الأخريات، اللائي كن لا يزلن يحاولن التطلع من الشرفة لرؤية ما يدور في داخل الغرفة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخذتني رحمة وقت الظهيرة لمقابلة السيد أبو بكر الكاف. وكان قد بنى في سيئون بيتاً فسيحاً ذا أعمدة ودعائم لضيوفه . وقد استقبلني في هذا البيت حيث بادرني قائلاً ... السلام عليكم.

وقلت أرد ... وعليكم السلام.

– تفضلي . أسعدنا مجيئك للعناية بنسائنا في سيئون وتريم. وأني لأضع غرفة في منزلي تحت تصرفك دائماً ، كما أني على استعداد لتلبية كل ما تطلبين . فبيتي هو بيتك.

ولم يكن هذا مجرد وعد فارغ. فلقد قدم السيد أبو بكر جواده الذي يعتبر ثميناً للغاية في حضرموت. إذ لما كان السيد قد توقف عن الركوب فقد سره أن يعيرني الجواد بسرجه وعدته، وبالغلام البالغ العشر سنوات من عمره والذي يتولى خدمته.

ولما كنت الأوروبية الوحيدة التي تعيش في شيبام ، فقد كان من الممتع لي أن أجتمع إلى بعض الأوروبيين عندما وفد إلى سيئون في زيارتي الأسبوعية لها. وكان من بين هؤلاء الضابط السياسي والمستشار الزراعي والمهندس ، ومهندس الخرائط ، وكلهم يعمل في خدمة دار المقيم البريطاني، وبعض أعضاء مكافحة الجراد الصحراوي.

وكان الكل من هؤلاء الأوروبيين عمله الخاص به، وكثيراً ما تغيب أسابيع طويلة متتالية متنقلاً من السوط، إلى حدود الربع الخالي . ولهذا لم أكن ألقاهم دائماً في المدينة، أما من كنت ألقاه عرضاً فيها يبدي لي كل زمالة وحسن وفادة. وكان السؤال الذي يوجه إلي دائماً ... "(ترى ما الذي أستطيع أن أفعله لك ؟)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان الدافع إلى زيارتي أحياناً قضية تتعلق بالعمل ، أما في حالات أخرى ، فقد كان الدافع إليها مجرد الرغبة في نوال قسط من الراحة وتناول قدح من الشاي والتمتع بحديث لطيف والإصغاء إلى بعض القطع الموسيقية.

وسرعان ما قمت بزيارة أخرى إلى تريم اتبعتها بزيارتي السابقة لسيئون ، حيث قمت باستشاراتي الطبية العلنية في المستشفى المهجور.

وتعتبر تريم قلعة دينية إذ تضم (٣٥٠ مسجداً) ويسيطر السادة وهم من ذرية الرسول سيطرة كاملة على أهل هذه الدينة الذين يعدون نحواً من عشرة آلاف.

وقد أبلغني الحضارمة إن أول السادة قد أرتحلوا قبل نحو من ستمائة سنة إلى حضرموت من العراق، وعرضوا على قبة صغيرة منعزلة تقع عند سفح الصخور الجنوبية بين سيئون وتريم. وهي القبة التي تغطي ضريح السيد الأول الذي ارتحل إلى حضرموت.

ولا يحمل السادة في حضرموت كإخوانهم في اليمن أية أسلحة أو جنبيات من الفضة. ويعتبر السادة هنا ، الطبقة الأرستقراطية الدينية، وأفرادها وهم ممثلوا الإسلام، وقد أحرزوا قسطاً كبيراً من النفوذ على أفراد الشعب في جميع أنحاء البلاد ولا سيما في سلطنة الكثيري التي تعتبر تريم جزءاً منها، وغدوا حماة العقيد ورسل السلام. ويعيش بعضهم إلى الخارج كغيرهم من الحضارمة ، وبين هؤلاء السيد شيخ الكاف من تريم وهو والد المحسن السيد أبوبكر، إذ ارتحل مع أخيه إلى سنغافورة، حيث جمع ثروة طائلة وامتلك ضياعاً واسعة، يستطيع ابناءوه أن يعيشوا من دخلها في حضرموت حياة رخيّة هانئة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقضي الإسلام بالزكاة والتصدق بجزء من الثـروات علـى الفقـراء والمحتـاجين وللإنفاق على المصلحة العامة . ولهذا فقد بنى سادة الكـاف المستـشفى في تـريم وظلوا ينفقون عليه من ما لهم . وكانوا يبتاعون الأدوية والعلاجـات ويتعاقـدوا مع الأطباء. ولكنهم كانوا حتى الآن غير موفقين مع الأطباء الذين تعاقدوا معهم ، وذلك لأن شروط العقود محدودة وتقوم على أسس تجارية محدودة .

وكان آخر أطباء المدينة قد وجد في هذه الوظيفة ضالته وملجأ له، إذ كـان رجـلاً مريضاً مجهداَ ، ولا جنسية له وقد توفي بعد شهر واحد مـن وصـوله إلى وطنـه الجديد. وقرر سادة الكاف بعد ذلك تغيير شروط عقودهم ، ولكن اشهراً طويلة انتقضت قبل أن يستطيعوا الحصول على طبيب جديد.

وسر أهل تريم من زيارتي لهم مرة في الأسبوع . ولكن واجباتي لم تقتصر علـى هاتين المدينتين فحسب ، أي سيئون وتريم . فطيلة الطريق إلى هاتين المدينتين كنت أتلقى الطلبات لزيارة المرضى حالما يـصل مـسامع النـاس أن الطبيبـة تمـر بقراهم.

ولحق بي رسول يـركض إلى تـريم وقـال ... هنـاك امـرأة تعـاني أشـد الآلام في مسيلة منذ ثلاثة أيام ، إذ تعذر نزول الطفل منها . فهل تـستطيعين المجـيء لنجدتها؟

وكنا نفق خارج البوابة الغربية للمدينة ، وتحتم علـي أن انتظـر حتـى يكـون فارح السائق ، قد حشر جميـع ركابـه في سـيارة الكـثيري وبيـنهم عـدة نـساء محجبات يبدو إنهن يتمتعن بشيء من المقام والمكانة ، ولحقت بهـن مجموعـة من السلال الملأى بالبندورة والخيار والباذنجان وغيرهما من الخضار الطازجـة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التي اشتهرت بها حدائق تريم المروية رياً ممتازاً . وأخيراً صعد إلى السيارة عدد من الرجال والصبيان وبينهم الرسول الذي جاء في طلبي.

وسار بي الرسول في مسيلة إلى كوخ واطئ السقف. ورأيت على أرض الكوخ امرأة شابة شديدة الشحوب يبدو عليها الإنهاك والجهد، وقد تولى إسنادها أنها وشقيقتها ، إذ أن نساء حضرموت يلدن أطفالهن وهن جلسات. وعندما مددت يدي لأقس نبضها، تعلقت الأم المجهدة بذراعي وكأنها تتوسل إلي أن أساعدها ، في الخلاص من الألم التي تعانيها.

وكان قد مضى على الأم الشابة، عائشة، يومان كاملان وهي جالسة في هذا الوضع المنتصب، مما لم يتح لجسدها أية فرصة الراحة. وكانت الولادة قد وصلت قبل مدة مرحلتها الأخيرة ثم توقفت. ولم تبق قوة احتياط لمساعدتها في الولادة وإخراج الجنين. وتحتم علي أن أعين الولادة باستخدام كلابتي الطبية. وعندما قلت للأم وأسرتها أن الطفل ولد ميتاً ، تمتمن قائلات : (... الحمد لله ، فأن الطفل الأول يموت عادة).

وظلت المرأة تعاني آلاماً مخيفة طلية الأسابيع القليلة التالية، إذ أن مثانتها أصيبت بأضرار لا يمكن إصلاحها نتيجة التأخر في الوضع. وشاء زوج عائشة أن يضاعف آلامها فطلقها وأعادها إلى أهلها .

ولم تكن حالة عائشة استثنائية مطلقاً. ففي غضون إقامتي في البلاد، رأيت عدة نساء كان مصيرهن مشابهاً لمصير عائشة.

وقد لاحظت أم المرأة التي توشك على الوضع، تظل ثابتة لا تتحرك من المكان الذي تجلس فيه فور ابتداء آلامها، فلا تحرك عضلاتها ولا ذراعيها أو رجليها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دون مساعده، وتعتمد في أوضاعها الصحية على غيرها من النساء اللاتي كن يجدن هذا الوضع طبيعياً، وقد أصابهن الرعب عندما طلبت المريضة أن تنهض من مكانها، وان تستقل عن عون النساء الأخريات حتى يؤدي تحركها إلى تسهيل وضعها.

وكان هذا الاستسلام السلبي والخانع لآلام الوضع وأوجاعه ، منتشراً – في رأيي ونتيجة ما قمت به من تجارب ، لدى الأمهات والفتيات اللائي تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، واللائي كانت أرحامهن لا تزال ضيقة، ولم تكن لديهن ، وأن كان ذلك على درجات متفاوتة ، الطاقة البدنية الأزمة على الاحتمال والصبر كما هو الوضع مع عائشة مثلاً .

ولم يكن في وسع القابلات المحليات أن يتدخلن ، ولا سيما في موضوع مساعدة المرأة التي تضع بالطريقة التي شرحتها ، ولم يكن يلمسن الطفل إلى أن يكون قد ولد، ويكن قد سمعته يبكي لأول مرة.

ولم تغّير النسوة الآن من طرقهن حتى بعد مجيء الطبيبة بالنظر إلى أنهن يكن قد ألفن العون الطبي بعد. وما كن ليستدعينني إلا في الحالات اليائسة التي تصبح فيها المرأة الوالدة في خطر الموت، كما حدث بالفعل بالنسبة إلى عائشة.

وكان تشجيع النساء على الحركة، وعلى السماح بفحصهن إبان فترة الحمل، وعلى تقبل النصيحة الطبية واستدعاء الطبيبة في الوقت المناسب وقبل أن يفوت الأوان، يتطلب انقضاء عدة سنوات ، إذ لم يكن الأمر مقتصراً على لقابلات، وإنما يتعداهن إلى الجدات، اللاتي تعلمن من جدّاتهن أيضاً، على كره أي تدخل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في عمليات الولادة الطبيعية. فلماذا تعرف المرأة الأجنبية خيراً من السيدات العجائز ؟ وهل قدر لها أن تلد طفلاً.

وكان هناك طراز آخر من المقاومة، وهو موقف السادة المتعصبين والأتقياء بصورة خاصة.

وبعد ولادة تمت بمعونة (الكلابات) في تريم، وأدت إلى إنقاذ أرواح الأم والتوأم المولود، مع أن موتهم كان واقعاً لا محالة لو لم تتم العملية، نهض سيد محترم في أحد المساجد وقال ... (ومتى كانت العادة عند النساء أن يسمحن لأحد بمساعدتهن في الولادة؟ إن مشيئة الله تقضي بأن تلد المرأة الطفل بصورة طبيعية).

وتوقفت زيارتي المنتظمة لسيئون وتريم بعد بضعة أسابيع. إذ لم يكن في وسع الحكومة الكثيري الاستغناء عن سيارتها الوحيدة، يومين أو أكثر في الأسبوع لتتولى نقلي إلى تلك المدينتين .

وتحتم على نساء هاتين المدينتين أن يعودن لنفسهن على فكرة المعالجة عند طبيب رجل بدلاً من الطبيبة، إلا إذا شئن تحمل مشقة القدوم إلى شيبام. ولم أكن أمضي إلى هناك إلا في الأحوال نادرة، أو عندما يستدعيني الطبيب الهندي وفيما بعد الطبيب الإيطالي إلى سيئون وتريم . ولم يكن يحدث هذا إلا بصورة غير منتظمة وإن كانت متكررة.

واستأجر لي نائب شيبام منزلاً في ضاحية السهيل، وهي الضاحية التي يصطاف فيها أهل شيبام، والتي تحيط بها بساتين النخيل وسط ريف منطلق ساحر، عند أقدام الصخور الشاهقة التي تطل على منظر رائع في الوادي السحيق.ويملك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البيت شخص يدعى محفوظ باسويدان ، وقد سرني أن يكون هذا الشاب الودود الهادئ صاحب منزلي.

وكانت للمنزل شرفات كبيرة واسعة واسطحة محاطة بجدران عالية مزخرفة.وتمكنت بعد شهر، أي عشية الميلاد من التمتع لأول مرة بمملكتي الصغيرة . ولكن قدر لي أيضاً أن أنعم بمفاجئة مسرة أخرى. فقد وصل إلي من صيون الجواد الذي كان السيد أبوبكر قد أعاره لي مع سائسه عاشور. وعرف أهل شيبام أن النصارى يحتفلون بعيد الميلاد، ولذا فقد تحملوا أشد العناء، وهم يحاولون أن يجنبوني خطر الإزعاج باستدعائي لمعاينة المرضى في ذلك اليوم. ولا ريب في أن هذه العاطفة كانت رائعة.

وسمعت بعد الظهر طرقاً عنيفاً على الباب ، وجاءني خادمي عبادي، وهو شاب ذكي جميل الصورة ينتمي إلى الساحل يقول أن حسين العجيم قد جاء لزيارتي. وقد حان الأوان الآن لأكرم حسيناً في منزلي وأحسن رفده. ووجدته ما زال على ما عهدته فيه من حيوية وميل إلى الكلام. وراح يكيل لي المديح وأنا أعرض عليه أنحاء منزلي..

وسألني حسين... هل أنت بحاجة إلى شيء؟ لا تخافي من الطلب إذا كنت بحاجة إلى أي شيء ، إذ أننا جميعاً نحب أن نشعرك بالسعادة وأنت بين ظهر أنينا. ولم تمض لحظات على انصرافه حتى سمعت طرقة ثانية على الباب . وكان الطارق هذه المرة، خادم مريضي سعيد، وقد جاء يحمل إلي تحيات سيده وبعض الكعك والمربى وصندوقاً كبيراً من الحلويات للعيد . ووضع في المطبخ أيضاً سلة كبيرة من الخضروات الطازجة ، من حدائق سعيد الخاصة. ولا ريب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في أن هذه الهدية كانت رائعة إذ أن الخضار تكون نادرة في أشهر الشتاء الباردة.

وعندما غطست الشمس وراء الجبال القائمة إلى الغرب وارتفع القمر بدراً من الشرق، امتطيت صهوة جوادي زنجبيل، ومضيت مهرولة به فوق الرمال المتلألئة الناعمة. وبدت شيبام في قلب الوادي كقلعة عابسة.

كانت ليلة هادئة رائعة. وبدأت أتمتم بأنشودة عيد الميلاد بلغتي الألمانية. ولم يسبق لي أن شعرت كما شعرت الليلة ، بالنعمة التي أفاضها علينا ميلاد السيد المسيح. ورفع زنجبيل أذنيه وكأنه يستمع إلى غنائي.

وعندما عدت إلى البيت سعيدة ، رأيت ضوءاً خافتاً من مصباح ينبعث من وراء الشباك الخشبية لنافذة في الطبقة السفلى ويلقي خيوطه على الباحة ، كما شممت رائحة زكية تهب من المطبخ حاملة عبير الخبز العربي وهو يجري أعداده. وحملت مصباحاً وصعدت إلى الطبقة العالية.

وعندما حلت ليلة العام الجديد بعد نحو من أسبوع جلست إلى شرفتي أمام نار صغيرة تشتعل في منقل من الفخار. وأخذت استعرض ما مربي. لقد انقضى علي الشهر الأول الذي عالجت فيه أكثر من ستمائة إنسان بين رجال ونساء وأطفال من مختلف العلل وفي طليعتها الملاريا وأمراض الأميبيا، والحصبة والرمد الحبيبي على مختلف مراحله ، من العلائم الأولى حتى العمى المطلق، والآلام الروماتيزمية والأنفلونزا بالإضافة إلى حالات أخرى تتراوح بين الشدة والضعف من نقص التغذية أو الغذاء غير الموزون .وطلبت لمعاينة عدد المصابين بالشلل المزمن وحالات يائسة عانى أصحابها أمداً طويلاً. وكنت قد حصلت على طاقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كبيرة على استجلاء الأوضاع السائدة في هذه البلاد،وإن كنت لم أجرؤ بعد على استخلاص استنتاجات محدودة، عن أكثر أنواع الأمراض شيوعاً في حضرموت، وعن أسبابها.

وكانت المشكلة الكبرى التي أواجهها ، هي الحصول على العلاجات، إذ لم يكن من السهل في البداية الحصول إلا على شحنات إضافية محدودة من المكلا. ومن حسن حظي ، أني قد حملت معي معداتي الجراحية. وكنت قد حصلت على هذه المعدات قبيل مغادرتي ألمانيا إلى اليمن بصعوبة بالغة من مدينة ممبورغ، إذ في ذلك الوقت ولم يكن قد انقضى على نهاية الحرب الكونية طويل وقت ، لم يكن يسمح إلا للأطباء المعروفين من ذوي الاختصاص بالحصول على هذه المعدات شريطة إبرازهم أذوناً خاصة ، وهو ما لم يكن متيسراً لي، آنذاك، بوصفي مساعدة طبيبة في مستشفى. وقد حل هذه المشكلة بالنسبة إلي، تاجر للعاديات القديمة. فقد ابلغني ذات يوم انه كان قد ابتاع قبل بضع سنوات المعدات الجراحية الإضافية لطبيب غادر المدينة. وأضاف أن في حيازته حتى تلك اللحظة حقيبة قديمة ملأى بهذه المعدات. ثم قال:((... ولم يطلب هذه المعدات مني حتى الآن أي طبيب، وبالطبع لن أبيع الحقيبة إلى غريب أو إلى شخص ليس أهلاَ للحصول عليها، إذ أنني كنت صديقاَ للطبيب الذي باعها. إما إذا كنت أنت ترغبين في شرائها ...))

واخرج الرجل العجوز حقيبة ثقيلة يعلوها الغبار كانت موضوعة تحت خزانة صغيرة من خشب الماهو غني ... وقال ... ((لم آخذ منها إلا الأمواس الحادة الدقيقة لاستخدامها في ((الترصيع)) الموجود في بعض تحفي)) . ورأيت أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معظم الأدوات كانت صالحة للعمل. وهكذا ابتعتها كلها من صديقي بائع العاديات.

وقد مرّت بي أيضا أول عملية كبيرة أجريتها. ففي ذات صباح وقفت سيارة شحن خارج الحصن، واندفع السائق إلى البيت قائلاً ... معي في السيارة، فتاة بدوية صغيرة. لقد سقطت من ظهر الجمل قبل خمس أيام فأصيبت ساقها بكسر. وحدث أن مررت بقريتها أمس فحملتها معي. هل تستطيعين أن تفعلي لها شيئاً ؟))

قلت للرجل : احملها إلى هنا.

وكانت لدينا غرفة إضافية في طرف الممر، كان في وسعي إن استخدمها إذا أحببت في العمليات التي أجريها. وراح السائق يحمل الفتاة بخيتة ووضعها على المنضدة الخشبية العادية .

وأصدرت أمري إلى عبدالله وسالم بإعداد الاستعدادات اللازمة. وكانت هذه الاستعدادات كبيرة إلى حد ما، إذ أن كنا في حاجة إلى أدوات التعقيم على اختلاف أشكالها . وركعت بجانب إحدى النوافذ لأخرج ما لدي من معدات لازمة، وضعتها في قدور الطبخ أسلمته إلى سالم عبد. وكان قد أشعل في غضون ذلك طباخ الكاز وجاء بقيل من الماء من جره فخارية.

وقلت لسالم ... قل لي عندما يغلي الماء، حتى أستطيع أن أقدر على ساعتي المدة الكافية لتعقيم المعدات . وراح عبدالله يأتي ببعض الأقداح التي نملكها فيغسلها بالصابون ثم يطهرها بالكحول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولك يكن هناك وقت كاف لإعداد الضمادات الطبية اللازمة، ولذا فقد قطعنا بعض الشاش وقمنا بتعقيمة أيضاً.

وكنت قد بعثت بمريض سليم الطوية إلى السوق حاملاً بعض المال. وقد عاد إلي الآن يحمل المواد الرخيصة اللازمة وساعدني في تقطيعها إلى أجزاء.

وقد بينت السالم كيف ينشر هذه القطع وينثر فوقها مسحوق الإلصاق وكيف يطوي الأربطة.

وباتت الأدوات معدة الآن. ورحت أصب بحذر الماء الغالي في قدح حتى نتمكن أنا وعبدالله من غسل أيدينا قبل العلمية. ولم يكن عبدالنجار قد سلم إلينا بعد منضدتنا الصغيرة. وهكذا تركت المعدات في صحفة وضعتها في قفص .

وقلت لسالم ... « قف إلى جانب القفص يا سالم، وطارد الذباب لتبعده عنه. ولكن لا تضع يدك في الصحفة مطلقاً».

وكانت الإعدادات قد مضت الآن بعيداً حتى بات لازماً علينا أن نغسل أيدينا.

وقلت ...« انظر يا عبدالله كيف أغسل ذراعي ويدي. عمل مثلما أعمل، ولا تبخل بالصابون والماء. ولا تلمس أي شيء آخر».

وكان هذه المرة الأولى التي يساعد فيها أي من الرجلين في عملية جراحية.

وظلت بخيته هادئة طيلة العملية، وهي مستلقية على المائدة وبدت وكأنها لا تخاف مطلقاً على الرغم من أن كل شيء كان جديداً عليها. ووقف السائق إلى جانبها وأخذ يحدثها. وكنت قد طلبت إليه البقاء .

وكانت الفتاه البدوية في العاشرة من عمرها. وكانت ترتدي قميصاً أزرق من النيلج، يربطه نطاق من الجلد . وكان هذا هو الثوب الوحيد الذي تملكه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت بشرتها من لون البرونز، كما كان شعرها مجعداً وغير مصفف واتقدت أسنانها البيضاء براقة في فمها، بينما كانت عيناها البريئتان براءة الطفولة تتفحصاننا وترقبان كل ما نعمله.

وقلت للطفلة ... « لا تخافي يا طفلتي، أنا أعتزم؟أن أثقب جلدك لأضع الدواء تحته ولن تشعري بأي ألم مطلقاً » ...

وقلت لسالم ... « هات القفص بما فيه من معدات يا سالم . وكن حريصاً. أما أنت يا عبدالله فقف هنا . وعليك أن لا تلمس شيئاً، وعندما أطلب إليك أن تقدم لي شيئاً أمسكه بثبات. وأنت أيها السائق أمسك بالفتاة لمنعها من الحركة و المعارضة ».

ولم يكن هناك مجرد كسر في الساق تحت الركبة فحسب، بل كان هناك جرح عميق ينغر أيضاً ... وشرعت في العملية.

وقلت – أسمع أيها السائق، أسحب ساقها السليمة قليلاً إلى جانب واحد. حسناً ، هذا يكفي...

وأنت يا عبدالله أمسك هذه بيدك اليمنى. أما في يدك اليسرى فأمسك بضمادات الشاش. لا تشد كثيراً. يجب أن تكون اليد خفيفة في العملية. هذا أفضل .

وكان الوقت يقترب من الظهيرة، وكانت الحرارة هائلة... ورحت أقول : « ذباب! ذباب !. أنتبه يا سالم . ولا تجعل الذباب يستقر على الجرح».

وكانت مهمة شاقة للرجل العجوز، فالنوافذ الخمس مفتوحة، وليس عليها شباك كما هي الحال في جميع البيوت هنا. ولم يكن لدينا المال اللازم لإقامة مناخل من الشباك عليها لمنع الذباب أو البعوض. وبدأ العرق يتصبب مني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بغزارة. وتسلق الذباب ساقي متسرباَ تحت ثيابي ... وقلت ... « اسمع يا سالم خذ قطعة من القطن وامسح بها العرق عن وجهي حتى لا تسقط قطراته على الجرح».

وكانت المنضدة واطئه للغاية حتى أنه تحتم علي أن أنحني وأنا أعمل. وبدأ الألم يشتد في ظهري.

وقلت ... « اسمع يا سالم، أليس ثمة صندوق من الخشب في المخزن؟ أنني أود أجد شيئاً أجلس عليه ».

- لقد أعطيت الصندوق الكبير للنجار.
- لا بأس. سأنتهي من العمل قريباً.

وربطت ساق بخيته ربطة عظيمة بالشاش المشمع، أضمن بها تثبيت الكسر في موضعه. وكان كل أملي أن يشفي الجرح بسرعة.

وقدم إلي النائب بناء على طلبي غرفة فارغة كبيرة في الحصن استخدمها كمستشفى للمريضات. ونقلنا بخيته إلى هناك. وظل سالم العجوز وعبدالله يعنيان بها، إذ أنها كانت يتيمة، وقد تعذر على إخوانها وأخواتها المجيء معها إلى شيبام. ولم تشعر الطفلة مطلقاً بالخوف من بقائها وحيدة. وكانت تنسل في النهار إلى النافذة لتتطلع منها. أما في الليل فكانت تلف نفسها بشال تركه السائق لها.

طافت هذه الذكرى وكثيرات غيرها بخاطري وأنا أجلس هناك عشية رأس السنة الجديدة. وخبت النار في موقدي. وكان القمر المتضائل، يلقي بأشعته على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جدران شرفتي البيضاء. وكان في مكنتي أن أرى عبر الشباك الوادي الذي أضاءه نور القمر، والصخور السوداء البعيدة وراء الوادي.

وادي دوعن

بادرني العقيد بقوله عندما وصل إلى الوادي بعيد رأس السنة الجديدة ... « انك تبدين في أحسن حال، وأسعد بال ». ثم راح يسألني إذا كنت أحب أن أمضي معه بالسيارة إلى وادي دوعن.

وكان الشيخ عمر باسويد قد طلب إلي المجيء بسرعة إلى المكلا للكشف على زوجاته وأطفاله، ولذا فقد بعثت فكرة هذه الرحلة السرور في نفسي.

ولم يمض يومان حتى كنا نستقل سيارة النائب الشاحنة ونتجه صعداً مع الوادي. وذكرتني آثار القلاع وأبراج المراقبة طيلة الطريق بغارات الغزاة في الماضي . ورأيت في « قطن» وهي بلدة صغيرة مسوّرة، يحتل فيها قصر السلطان مكاناً مشرفاً بحيث يرى على بعد ميلين وتحيط به حقول غنية بالحنطة، النتائج التي يحققها الري بالمضخات بدلاً من الري بيد الإنسان أو بواسطة الحيوانات .

وكان لبرنامج المضخات الذي شجعته حكومات عدن و المكلا وسيئون، عدد كبير من المعجبين المتحمسين في هذه المنطقة. وكانت الرغبة العامة مصحوبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالجهد متجهة إلى زيادة المحاصيل، وإزالة خطر المجاعة الذي يهدد هذه البلاد بازدياد.

وتنحصر هذه المنطقة بما فيها من مياه جوفية غزيرة وقريبة إلى سطح الأرض في وادي حضرموت الكبير، وفي مصبات مجاورة عدة تعتبر روافد للوادي الكبير، وتمتد إلى مسافة سبعين ميلاً من « هينين» في الغرب إلى شيبام وتريم والقسم في الشرق. ولكن هذا الجزء من الوادي الواسع الذي شق طريقه آكلاً السوط وهو ما يسمى بوادي حضرموت. أما في القسم العلوي فيحمل الوادي اسم« وادي القصر» بينما يحمل الجزء الأسفل منه اسم « وادي المسيلة» الذي ينساب حتى يصل إلى ساحل المحيط الهندي إلى سيحوت الواقعة على مسيرة بضعة أيام إلى الشرق من المكلا.

وكان أحد المستكشفين في القرن التاسع عشر ويدعى ليو هيرش الألماني من برلين قد عرّف حضرموت « بمنطقة المدائن والأراضي المزروعة» بينما يطلق اسم البادية على« منطقة المراعي والصحراء» رامزاً بها إلى المنطقة التي يسكنها البدو.

ويتسع الوادي بعد قطن ليتضاعف حجماً. وتصل الطريق إلى نهايتها، متكثفة في شبكة من الطريق التي كانت تسير عليها السيارات والتي طمستها الرمال، عبر قطعة من الصحراء تمتد خمسة وأربعين ميلاً . واجتزنا هذه المسافة دون أن تغطس سيارتنا في الرمال ثم اتجهنا إلى وادي دوعن، الذي يطلق عليه في جزأيه الأوسط والأدنى اسم آخر ، لم أسمعه على لسان الأهلين مرة واحدة. وقادتنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رحلتنا إلى الجزء العلوي من وادي دوعن، وهو الذراع الأيمن من الوادي الأصلي الذي يتصل بالذارع الأيسر المسمى بالوادي الأيسر عند جاهي.

ووصلنا جاهي في الساعات المبكرة من بعد الظهيرة، وهناك انتهت رحلة السيارة إلى مطافها الأخير. وأوصى لنا الموظف الإداري الذي يسمى « بالقائم» على بعيرين، وهكذا امتطيت للمرة الأولى سنام هذه الحيوانات الصابرة على حمولاتها. وكان نصيبي البعير الأخف حملاً، وجلست على مجموعة من البطانيات بين الأقفاص والأكياس التي تدلت على جانبي الحيوان. ومضيت يقودني بدوي عجوز أمشي الهوينا على مسلك صحراوي تملؤه الحصى الصفر، في مجرى النهر.

وتقف الجلاميد الصخرية المحيطة بجانبي الوادي وراء أشجار النخيل، وقد حملت لوناً يجمع بين البنفسجية والبنية أمام سماء المساء الزرقاء.

وكان الوقت غسقاً عندما وصلنا إلى بيت باسويد في الحجرات. وأعد لنا العشاء قبل أن أستطيع الإيواء إلى فراشي في غرفة الرجال وذلك مع مضيفي الأخوة من أولاد باسويد. ونثرت أمامنا على حصيرة كبيرة من القش صحاف الأرز ولحم الضأن المشوي والحساء. وتناول الأخ الأكبر مطواة طويلة من حزامه، قطع بها اللحم عن العظم، وقدم قطعة منها إلى كل واحد من الضيوف. وجلسنا حول الحصيرة وأخذنا نتناول ما لذلنا وطاب من جبل الأرز المتصاعد أمامنا.

وشرعت في الصباح التالي في معاينة أسرة باسويد المؤلفة من ستين امرأة وطفلاً. وسرعان ما أذعنت النساء جميعاَ للنظام المطلوب إذ كان عليهن أن يعدن إلى أعمالهن اليومية العادية في المطبخ وفي الحقول. ولم تجر العادة في وادي دوعن أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون لدى الأسرة عدد كبير من الخدم. وكان زيهن عملياً إلى حد كبير، وشعورهن قصيرة وقد جمعت في قطع برتقالية من القماش ويرتدين ملابس كالأكياس لا أكمام لها تمتد حتى الركبة من الأمام وإلى ما دون عضلة الساق من الخلف. وبالرغم من « الترتر» البراق في الألبسة الصفراء والخضراء والحمراء التي يرتدينها نساء وادي دوعن وعلى الرغم من النطاق الفضي الثقيل، والخلاخل الفنية الصنع، فأن ذوقي لم يستسغ لباس بنات وادي دوعن، مع أن هذا اللباس لم يكن يفتقر إلى الابتكار.

ويعش ستة أخوة من أبناء باسويد في هذا البيت الذي حللت فيه ضيفه الآن. وكانت كل منهم شقته الخاصة به، والتي تعيش فيها زوجاته وأطفاله.

ويجتمع الرجال في غرفة مشتركة يستقبلون فيها ضيوفهم ويتناولون وجبات طعامهم. وتشترك النسوة في المطبخ. وتتألف كل شقة من غرفة كبيرة وممر صغير وحمام. ويقوم أمام النوافذ جدار خشبي أسود يضم عدداً من الخزائن وطرازاً من الكهف يوضع فيه الفراش في النهار. وجميع الأثاث الخشبي وحتى النوافذ ذات الشباك والصناديق المنقوشة كلها مصنوعة من خشب الألب القوي الذي ينمو بكثرة في وادي دوعن. وقد رصعت الأبواب بمسامير كبيرة من الفضة، كما غطيت الأرض ببسط من صوف الغنم الأسود. وعلقت النساء على الجدران المصبوغة بالدهانات صحوناً كبيرة من معدن الفضة أو من النحاس والخزف الصيني، وفي إحدى الزوايا توجد صفائح من التنك لها بطون ضخمة وأعناق نحيلة، يصنعون فيها القهوة ممزوجة بالهال. وقد قدم لي هذا الشراب في قدح من الصيني بعد بضع حبات من التمر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت الشمس قد غابت عن الوادي عندما وصلت إلى بستان النخيل. وقد ظلت هنا بعض الحشائش حية تحت أشجار النخيل نتيجة الأمطار التي هطلت في أواخر صيف السنة الماضية. أما بقية أجزاء التربة فكانت جافة وقاحلة. وليس المطر الذي يتساقط في الوادي غزيراً كل الغزارة، كما هي الحالة في السوط، حيث تسقط حبات البرد بحجم معصم الإنسان. ويعتبر وادي دوعن المسيل الذي تتحول إليه مياه مساحات شاسعة من الهضبة الصخرية.

وهكذا يسيل طوفان عرم من الماء إلى الوادي بعد عاصفة رعد ممطرة. وكانت هذه المياه الثمينة تسيل منذ أقدم العصور في قنوات وخزانات وسدود إلى الحقول وبساتين النخيل. وتحيط أسوار من الحجر بالتربة الثمينة للحيلولة بينها وبين الانحراف مع الماء. لكل مجلس قرية، قناته الرئيسية الخاصة به والتي تستخدم في عمليات الري الجماعي. ويختار لأفراد المجموع محافظاً يكون مسؤولاً عن صيانة أجهزة الري وإدارتها، ويتحتم على كل فرد في القرية إطاعة أوامره لمصلحة هذا الفرد ومصلحة المجموع.

وقد قمت بزيارة بودا أبان وجودي في الوادي. فلقد طهر مرت أخرى بدوي مع بعيره الذي يستخدمه كسيارة أجرة في الصحراء. وقد حملني عبر القناة الرئيسية الجافة إلى حقول بودا الواقعة إلى اليسار من الأسوار التي يتراوح ارتفاعها بين التسعة أقدام والأثني عشر قدماً والتي تحيط بالحقول المسوّرة، وإلى اليمين من السد يرتفع هذه المسافة أيضاً والذي يفصل القناة عن مجرى النهر. وسار رفاقي الستة في صف واحد على طول سور السد، وفي طليعتهم صيدلي خورياباه، وهو إنسان متحذلق مغرور، كان يعرض عصا للمشي متقنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزخرف، ومشى في المؤخرة كاتب محفوظات وهو شاب رقيق ذو شعر اسود وقد بان في ذقنه زغب من الشعر. وكان يتطلع إلى لقائي لا شفية من ثمار حياة العمر التي يعيشها.

ولك يتوقف هذر رفاقي العالي والملي بالحيوية لحظة واحدة. وكان البدوي العجوز يرقبني باهتمام وحرص ليتأكد من عدم اصطدامي بأحد أغصان الإلب المتدلية.

وتحتم علي في بودا أن أترجل، وأن أتسلق الدروب العمودية الملأى بالحصى على قدمي. وكانت هذه العملية أكثر مشقة، إذ أن النفايات الخارجة من الدور، كانت تسيل على التل، كما كانت مجاري المراحيض تنصب على الشارع. وعم ذلك وعلى الرغم من هذا العيب فأن بيوت هذه القرية المكتظة والقابعة تحت الجلاميد الصخرية العمودية، وكانت من النوع الذي يلقي العناية والرعاية لأن بودا هي عاصمة وادي دوعن الذي يقيم فيه شعب العموديين.

واستقبلنا علي عبدالرحمن، أنا وحرسي المؤلف من ستة رجال. وكان قد عاش ثلاثين سنة على التناوب في بودا وأسمره في اريتريا، ويتحدث اللغة الإيطالية بطلاقة.

وكان على العمودي رجلاً نشيطاً وذكياً. ولكنه ظل في مظهره وفي قرارة فؤاده دوعنياً خالصاً. ويتميز هذا الشعب بأنه محافظة من الأقوام الأخرى في وادي حضرموت.، وينعكس هذا انعكاساً قوياً في وضع النساء اللاتي يعتبرون حفظة التقاليد القديمة. وفي الصيف عندما تنتج الأمطار ثلاثة مواسم من الذرة، وعندما ينضج الثمر، يعيش الدواعنيون في واديهم. أما في الشتاء، فيظل في الوادي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النساء وحدهن وبعض الأيدي العاملة ليس إلا، بينما يمضي الرجال بكثير من البساطة ودون أي تظاهر، للاتجار في الاريتريا، وهو المكان الذي يؤثرونه، أو في الحبشة والعربية السعودية أو حتى في المكلا، حيث تستند التجارة إلى حد كبير على التجار الدوعنيين. وقد حققوا جميعاً نجاحاً يقوم على أسس ثابتة.

وراح يقول ... « ليس بيننا هنا فقراء أبداً».

وعندما كنا في بيت أبن عم علي الذي تبدو سعة العيش والهناء، وصاحبه رجل عجوز صخاب، يرتدي رداءً ممزقاً، خيل إلي أن الرجل بعيد كل البعد عن الثراء. وبدا لي ممثلاً لما يتميز به الدواعنيون من جشع وشره للمال، كما بدا لي غريباً في هذه الغرف المؤثثة بفاخر الأثاث والرياش. ورأيت في بيته، وبين عوارض السقف، لوحات صغيرة بيضاء من الخشب تحمل كتابات عربية، ولا أدري هل وضعها بدافع التقوى أو بدافع الإيمان بالخرافات، وأن كان القصد منها حماية البيت من الأرواح الشريرة، كما رأيت بيوض النعام في إحدى زوايا الغرفة وقرون الوعل في صدر الجدار، كما في عدد من بيوت الحضارمة الآخرين. ويبدو أن أبن عم علي كان يتوقع المعجزات مني. وكان ولده البالغ الخامسة عشرة من عمره يشكو ألماً في ساقه يحتاج إلى علاج خاص في عيادة التجبير. وعندما قلت له أن عليه أن يبعث بولده إلى المستشفى في أسمره حيث يعيش علي، هز رأسه، وبدت عليه علائم عدم الاقتناع بما أقول وبما عملت، وقد أعرب عن عدم قناعته بقوله أنه لن يدفع إلى أجري، لأنني لم أفعل شيئاً لمعالجة ساق ولده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان الغلام قد خيم عندما انتهيت من فحص المرضى الكثيرين ومعظمهم من نساء أسرة العمودي. وكان الوقت قد بات متأخراً بالنسبة إلى البدوي العجوز، ولذا فقد اختفى مع بعيره. وتحتم علي أن أعود مستعينة بضوء مصباحي. وكان القمر المتثائب يلقي بأضوائه الخافتة على جدران الوادي السوداء.

وعندما حل بعد الظهر اليوم السادس من وجودي في الحجرات حملت متاعي على بعير قوي، وامتطيت سنامه من جديد. وساروا أمامي حراسي يستقلون حميراً صغيرة ضعيفة.

ووصلنا بعيد المغيب إلى قرية « مسنة» التي تشبه القلعة، حيث نزلت في دار نائب دوعن المتغيب عن القرية. وجاءني أحد الرجال سعياً وراء راحتي بمرتبة كثيفة حسنة التنجيد، بينما جاءني ثان بمسنده، وثالث ببطانية حمراء مشرقة ، إذ أن البرد كان شديدا في شهر كانون الثاني .

ولم يراودني الأمل لحظة واحدة في أنني قد أتمكن من النوم إذ أن الممر الواقع أمام غرفتي كان مكتظا بالناس الذين يتحدثون بأصوات جمهورية عالية.

ويبدو أنهم كانوا يتناقلون آخر الأنباء والشائعات التي وصلتهم من الحجرات .

وكان أحد الرجال يطل برأسه بين الفينة من الباب ليراني، فكنت أتظاهر بالنوم وأظل مغلقة عيني لأني كنت أشد تباً من أن أسدي مشورة طبية أو أتلقى زيارة في مثل هذه الساعة. ولم أتحرك إلا عندما سمعت (قرقعة) الأطباق. ودخل عدد من الرجال ألآن ومعهم والد النائب. وجاء عدد من الغلمان بأطباق الأرز واللحم، وسرعان ما تحولت البسط القائمة بيننا إلى موائد للطعام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأكل كالنوم عند العرب، واجب له جلاله، ولا يجوز إزعاج المرء وهو يتناول طعامه. ولهذا أنتظر الرجال حتى فرغت من طعامي، وبدأت في تناول الشاي، ليواجهوا لي ما يشاءون من أسئلة.

ورحت أتجول في الساعات المبكرة من الصباح بحذاء أسوار السد، عبر بساتين النخيل اليانعة، التي تتلألأ في أشعة الشروق الأولى لأعود بعض المرضى قبل أن أغادر الوادي.

ولم أتعرف حقاً على ما في وادي دوعن من جمال وجلال إلا بعد مضى عامين عندما وجه إلي النائب بأزرعة، رسالة عاجلة للمجيء إلى « مسنة». وكان الوقت شهر تموز، وفيضانات الأمطار في أوجها في وادي دوعن، وتتكرر كل يوم، مما اضطرنا إلى الدنو من « جاهي» عند عقبة الطريق الغربي المؤدي إلى السوط لنصل إلى وادي دوعن فوق « مسنة» .

وبدا أمامنا أخدود عميق في مدى الهضبة الذي لا نهاية له. ومشيت إلى طرف الأخدود وألقيت بناظري إلى ما تحتي بين الصخور العمودية القطاع، والعارية من كل شيء، لأرى الوادي على بعد خمسمائة قدم تقريباً، وما يحيط به من آماد النظر الخضراء الرائعة، وفيها الحقول الحسنة التجدير، والعناقيد الكثيفة من البلح، وقد بانت بين أشجار الألب المنتشرة. وعلى ضفاف المنحدرات، تقوم القرى التي كان من الصعب علي تمييزها على الجلاميد الصخرية الشبهاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم تكن ثمة إلا دروب قدمية قليلة تقود من السوط إلى الوادي. وعلى رأس كل درب من هذه الدروب المنحدرة يقوم حصن كان يضم حتى وقت قريب الجنود لحماية الوادي من غزو البدو.

وقادني رسول النائب عبر قناة واسعة خلقتها الأمطار إلى درب صغير يسير بحذاء جدار الوادي. ورأيت فوق رأسي، هامات الصخور المدببة، وقد انفصلت عن الجلاميد بفعل الرياح وعوامل الطقس. وكان لابد من أن تنهار هذه الصخور ذات يوم إلى الوادي، تماماً كالصخور الأخرى التي تجمع بقاياها في أسفل الوادي. وضللنا نسير بحذاء هذا الممر عدة مئات من الياردات حتى وصلنا إلى منحدر صخري عميق ، وأخذنا نتعرج في سيرنا ونتلوى في منعطفات دقيقة دقة رؤوس الإبر. وكانت ظلال السماء الباردة قد خيمت على الوادي. وأخذت النسوة الهارعات في طريق العودة إلى بيوتهن يتطلعن إلينا بعين الفضول والاستطلاع من وراء حجبهن السوداء الكثيفة.

وسرعان ما أنطلق صوت المؤذن داعياً صلاة المغرب. وعندما وصلت مسنة وجدت النائب في حالة من الضنك الشديد، من جراء نوبة عنيفة من نوبات الملاريا. وقضيت ليلي في العراء، كما كانت أفعل طيلة أيام السنة. وكان في وسعي أن أرى في ليالي الصيف الصافية برج العقرب وصليب الجنوب في كبد السماء، لا في هذا الوادي العميق وإنما في السوط المرتفع.

وأيقظني نسيم بارد عليل في الصباح التالي. وكانت السماء ملبدة بالغيوم، ولكن سرعان ما أنجلى الضباب. وتناولت طعام الفطور مع النائب وابية. وبدأ إلي الرجل العجوز بمعطفه الأزرق وكوفيته البيضاء، ودوداً ونبيلاً، مما استهواني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إليه. وكان يتولى منصب النيابة قبل ولده، كما كان والده وجده من قبله. وكانت واجباته تحمله على أن يجوب الوادي صعوداً ونزولاً. وعلى الرغم أن يمضي إلى السوط وإلى الوديان الأخرى الواقعة في منطقته. وكان يقوم بهذه الرحلات دائماً على قدميه. وعلى الرغم من أنه غدا الآن رجلاً عجوزاً، إلا أنه كان أكثر حيوية وأسرع مشية من كثيرين من الشبان. وقال لي النائب العجوز أن أسرة بازرعة تنتمي إلى قبيلة حمير. وقد هاجر الحميريون من المنطقة المحيطة بصنعاء في اليمن قبل نحو من خمسمائة عام إلى الشحر. التي كانت تعتبر أهم ميناء في حضرموت قبل تفوق سلاطنة القعيطي، مما حول الأهمية منها إلى المكلا. وانتقل آل بازرعة من الشحر إلى وادي دوعن، كما شيدوا عدداً من المعاقل في وادي حضرموت. وكان جد النائب قد عاش سنوات عدة في مصر حيث تعلم الكثير وراء الكثير. وعندما عاد إلى دوعن خاض حرباً ضروساً مع البدو، الذين ظلوا يبعثون الفزع والرعب والقلق لغاراتهم الدموية في المنطقة وما جاورها. وانتصرت عليهم أخيراً وفرض حاله من الأمن والاستقرار في دوعن. وراح يطلب من السلطان القعيطي في المكلا، أن يتولى حماية المنطقة وأن يبعث بعدد من جنوده ليخلص الدوعنيين من مهمة حماية مداخل واديهم.

وسادت حالة من الهدوء النسبي بعد ذلك وادي دوعن ووادي الأيسر أيضاً. ومضيت مع بازرعة العجوز إلى بيته في القسم العلوي من البلدة. وكانت جميع البيوت عالية كالعادة ولا تضم أية نوافذ كالطبقة الأرضية، وقد بنيت كلها متقاربة، حتى أن هاماتها كانت تكاد تتلامس لتربطها الجسور فوق الأزقة الضيقة المفروشة بالحصى ولا يكون في الأمكان تحصينها ضد هجمات خارجية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعدة أبواب ثقيلة منيعة. ورأيت ثقوباً واسعة بين النوافذ تنحدر إلى الأسفل من الجدار. وتبين لي أن هذه الثقوب تستخدم لإطلاق النار من أهل هذه البلدة بأمان واطمئنان على الغزاة من البدو، تماماً كما كان يفعل سكان القلاع في القرون الوسطى .

ووجدت في بيت الرجل العجوز سبعة أحفاد يعانون جميعاً من الملاريا ويعشش البعوض بشكل مزعج في البرك التي تخلفها الأمطار في الحقول وحول أشجار النخيل. ويروح هذا البعوض مهاجماً الناس وكأنه طاعون مخيف. وكان أزيزه يتخذ المساء شكلاً مزعجاً للغاية ولهذا فجميع أهل الوادي مصابون تقريباً بالملاريا ولاسيما الأطفال منهم، الذين يلقى الكثيرون منهم حتفهم من جراء ذلك.

وهبت عاصفة من الرعد بعد الظهر تماماً ولم تمض ربع ساعة حتى كانت مياه الأمطار قد شكلت سيولاً جارفة منصبة فوق الجلاميد الصخرية إلى الوادي السحيق. ولكن هذه السيول ما لبثت أن جفت فور توقف المطر. وشق الماء طريقه بسرعة عبر القنوات والسدود فوق الحقول. ولكنه لم يكن كافياً ليملى مجرى الوادي.

وقادني والد النائب بعد قليل « الخوريباه» وهي مركز الحكومة في الوادي، ولكننا لم نصل إليه أبداً. إذ سرعان ما تعالت الصرخات في الوادي معلنة حدود الطوفان. ويبدو أن المطر كان شديداً في أعالي السوط في الصباح. إذ أن وصول السيول منه إلى « الخوريباه» كان يستغرق ست ساعات. وكنا نسير بحذاء سد القناة الرئيسية عندما وصلت مياه الفيضان هادرة من المرتفعات، ورأيت أمواجاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من المياه ترغي وتزبد وترعد، هادرة من مزمجرة. وارتفع الماء إلى علو الإنسان. وعلا صوت الهدير في الوادي. ونحولنا عن السد الكبير إلى المروج الصغيرة التي تعلوها الأعشاب بين أشجار النخيل. وعندما وصلنا إلى الجدول، كان الماء قد أسرع بالسير نحو الأخاديد والحفر وملأها. وسار بي بازرعة العجوز إلى سد صلب، يتولى تحويل جزء من الجدول إلى قناة واسعة. أما ما تبقى فقد تحول إلى شلال ضخم يتهاوى فوق الجدار. وعبق الجو برائحة دافئة من الأرض التي بللتها المياه.

ولم تمضي ساعات حتى كان مجرى النهر قد خلا من الماء ثانية. وغمرت المياه في شهر آب(أغسطس)، عام ١٩٥٤، الوادي بكامله حتى وادي حضرموت مدة أسبوع كامل. ووصلت كذلك إلى شيبام وسيئون وتريم. ويعتبر حادث الفيضان دائماً من الأحداث المثيرة عند الأهلين، ولاسيما عندما تأتي المياه بلسانها النهم الشرة، ليعلق المنطقة الريفية كلها. ورأيت في هذا السيل الجارف المزبد، شيئاً حيوانياً قاسياً بل وشيئاً خطراً ومهدداً بالنسبة إلى زحفه الذي لا ضابط له. إذ لا تمضي ومضة عين حتى يكون الهدير قد وصل، وكثيراً ما داهم الفيضان بعض الناس بغتة وجرفهم معه مؤدياً بأرواحهم. وكثير ما حطمت المياه الهائجة بيوتاً بكاملها، وألافاً من أشجار النخيل الثمينة، التي يقتلعها من جذورها ويجرفها معه مسافة تتروح بين عشرة أميال وخمسة عشر ميلاً .

وكان هذا مثابة كارثة الدوعنيين. وعند وقوعها تنهال الهدايا من صغار النخيل على وادي دوعن من جميع المناطق المنتجة للتمر في حضرموت لتحل محل الأشجار التي اقتلعها الفيضان. لكن هذه الشجيرات لا تعطي أول ثمرها قبل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انقضاء عشرين عاماً على الأقل. يا لها من خسارة ! وتنتج شجرة النخيل التي تلقى العناية.، وتجد الري الكافي، وتكون قد نمت نمواً كافياً، ما يتراوح بين مائة ومائتي رطل من التمر. ويصل ثمن الشجرة الطيبة في وادي دوعن نحواً ثلاثة آلاف شلن. ولعل السبب في هذا الارتفاع في الأسعار ناجم عن كثرة الطلب، إذ أن كل دوعني يود لو أستثمر جزءاً من المال الذي حصل عليه في الخارج في أشجار النخيل، بدافع ما تقدمه من ربح طيب في وقت الجني، وبدافع ما يخلق له امتلاك هذه الأشجار من جذور عميقة في أرضه.

وعندما طلع صبح اليوم التالي، كان الجانب الشرقي من الوادي لا يزال يعيش في الظلال. ورحت أتسلق الممر مرة ثانية وأسير فوق الوادي الأخضر إلى جانب الجدار الصخري لأعبر المضيق نحو قمة السوط .

وكانت شاحنة في انتظاري هناك على مقربة من برج المراقبة القديم واختفى وادي دوعن وراءنا، ورحنا مرة ثانية نأخذ طريقنا على الهضبة التي لا حدود لها لنعود إلى الوادي على مقربة من جاهي. وأرعبتني من جديد رؤية العقبة العميقة بمنعطفاتها الشديدة التي لا تستطيع أية شاحنة عبورها دون الرجوع إلى الوراء، مع وجود هاوية مخيفة إلى حد الجانبين. وكان السائق يشير بين الفينة والفينة إلى أحد المنعطفات الشديدة الخطورة ويبلغني قصة سائق يدعى عبود أو آخر يدعى أحمد، كانا قد هويا بشاحنتهما إلى الوادي السحيق، بعد أن تعلق مقدمها مدة كافية بحافة الهوة، مكنت ركاب السيارتين من القفز منهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورأيت في الوادي الأيسر بعض الماء ما زال متخلفاً من الفيضان الكبير، وهو يسيل في اتجاه الوادي الرئيسي. وتمكنا من عبور هذا الوادي بسيارتنا دون أية مشكلة أو مصيبة.

ولكننا رأينا الطريق فجأة تنقطع أمامنا. فلقد جرفت المياه التي سالت من وادي جانبي التربة وأصبح الماء الآن على انخفاض بضعة أقدام من مستوى الطريق العادي. وقفز جميع من في السيارة من ركاب وكلهم من الرجال الذين جمعناهم في طريقنا، وأخذوا يخوضون في الماء بحثاً عن أكثر النقاط تضحلاً، حتى لا تعلق السيارة في الطمي. وانتزع الرجال جلاميد الصخر، وملأوا الحفر بالحصى، حتى تتمكن سيارة (الفورد) من المرور بأمان. وعاد السائق الصومالي فتسلق السيارة ورجع إلى مقعده، وأراد المرور على الطريق المؤقت، ولكن الدواليب أخذت تلف في الطمي، وتحتم علينا أن نعمل على دفع السيارة، وأن نتأكد من أن الحصى التي قذفتها عجلاتها لا تصيب أقدامنا. ومضت السيارة وئيداً في طريقها، وكان فرحنا شاملاً عندما وجدنا أنفسنا على أرض جافة في الجانب الثاني. وتطلب السائق ومحرك السيارة الذي اشتدت حررته بعض الراحة. وأحسسنا جميعاً بالحر والظماء، فأطفأنا عطشنا بالماء الذي نحمله قي « قربنا» الجلدية التي كنا تعلقها على طرف السيارة ليلفحها النسيم العليل فيضفي علم ما بها من ماء شيئاً من البرودة. وعاد الركاب نشطين يتدفقون بالحيوية إلى الشاحنة التي عادت تشق طريقها من جديد. ولكننا كنا قد أصبحنا الآن خبراء في معالجة الأمر، وكررنا العمل الشاق أكثر من عشر مرات في تلك الرحلة. وفي أحدى هذه المرات تحتم على السيارة أن تهبط أرضاً شديدة الانحدار وباتت في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضع عمودي خطر يهددها بالانقلاب ولكنها عادت فصححت وضعها، ومضت بهدوء خارجة من الرمل والحصى.

وهكذا قضينا ثماني ساعات في قطع المسافة التي كنا قطعناها في رحلة الذهاب في ساعتين. وبضب الماء من قربنا، وأحسسنا جميعاً بظمأ ساعر، إذ أن مياه الفيضان بلونها الأصفر والبني من الرمل والطمي، لم تكن صالحة للشرب .

ونجونا أخيراً من المياه، وصلنا، إلى قرية صغيرة تدعى « غار السودان» .

وكنا في حالة شديدة من الإنهاك و الظمأ، وتركز أملنا على إيجاد بعض الماء لنشربه ونشدان بعض الراحة. ولكن القرية كانت مهجورة تماماً. إذ خرج كل من فيها من رجال ونساء بعد انحسار مياه الفيضان عن الحقول، وامتصاص ما تبقى منها في التربة، إلى الحقول يحرثونها وينثران البذار فيها.

وخرج القائم، وهو الموظف الإداري الذي رافقنا في رحلتنا من السيارة ينادي على مختارها. ومضى بنا الرجل إلى بيته حيث قدم إلينا جرعة كبيرة من الماء المنعش القراح، من قربة « قربة» كبيرة، وقدحاً من القرفة الممزوجة بالبن والتمر.

وبد أن نال الرجال قسطاً من الراحة، أخذوا يثبون واحداً بعد الآخر على أقدامهم، وينشرون أرديتهم على الأرض لأداء صلاة العصر.

وخيّل المكان إلي أننا اكتفينا بما نلناه من راحة، وأن علينا أن نوصل السير إلى المكان الذي نقصده. ولكن المختار أحضر في تلك اللحظة غداء رائعاً مؤلفاً من الأرز واللحم والسمك المقدد والخبز والعسل العذب والمذاق يحيط به الشمع، وهو ما تشهر به منطقة دوعن. وكان الرجل على وجه التأكيد ، فقيراً وقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أتيناه ضيوفاً بغتة وعلى غير استعداد. ولكن العرف يقضي بأن ندخل جميعاً إلى منزله، حتى الركاب الذين حملناهم معنا في السيارة، وأن يقدم إلينا الطعام والشراب وكأننا من أصدقائه القدامى، مع إننا كنا جميعاً غرباء عنه هذا هو الكرم العربي في أروع صورة، وهو يسود البلاد في كل أطرافها فالمسافر هو الضيف اليوم، وقد يغدو الضيف غداً أو بعد غد، ولهذا فأن أجود الأطعمة الموجودة في البيت يجب أن تقدم دائماً إلى الضيف .

وأكملنا رحلتنا في الصباح التالي. ووجدت في شيبام حشداً كبيراً من الحجاج ينتظرون بفارغ الصبر الحصول مني على شهادات تطعيمهم. فلقد كانوا يعتزمون الشروع تلك الليلة في رحلة تستغرق عشرة أيام عبر الصحراء لا ماء فيها ولا حياة إلى مكة المكرمة.

في الحصن القديم

أخذنا نضع أيدينا بصورة متدرجة على الغرفة تلو الغرفة في الحصن القديم، لنستوعب فيها مرضانا، أذ أن عددهم ظل يزداد يوماً بعد آخر، وكانت معالجتهم تتطلب بقاءهم في المستشفى.

وكانت بخيتة، الفتاه الصغيرة، هي أول من رحل في مستشفانا من المرضى وقد انضم إليها بعد قليل عدد من النسوة والفتيات من وادي الأرمة، وجلهن من البدويات، اللائي جاء بهن أبوهن الشيخ إلى شيبام للمعالجة. ويقع وادي الإرمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى الغرب من شيبام، ولكن النائب فيه كان قد نصح هذا الوالد بأخذ عائلته إلى شيبام لأرى أفرداها. وأعطاه تشجيعاً منه له على القيام بهذه المغامرة، رسالة يقدمه فيها إلي، وقد اعتبروا الشيخ ذا قيمة كبيرة. وكان العجوز من النوع الذي لا يصبر والذي يصعب التعامل معه. وقد خيل إليه أن من القوباء « الأكزيما» وكان في حاجة إلى أبر الكالسيوم لعلاجه.وراح يقول لي غاضباً في الثالث من المشروع في العلاج...(انك لا تعطينني دواء ناجعا. فأنا لا اشعر به في عروقي ،ً كما انه لا يترك أي أثر في مذاقي).

وقلت له...(اسمع أيها العجوز ، في وسعنا أن نعالج ذلك بسهولة).ورحت أسرع في إعطائه الإبر التي يحتاجها، وبدأ طرف لسانه يحس بوخزه من الألم . وأشرق وجه الرجل بالرضا، وبات على استعداد الإنتظار ، حتى ينتهي علاجه وعلاج بناته.

واستلقى في الطبقة التي تعلو الطبقة التي تحل فيها بخيته، عبدان، وهو يشكو من خراج فوق كبده.وكان إخوانه قد جاءوا به ذات صباح من الوادي الذي يعيشون فيه ، إلى عيادتي وهو أشبه ما يكون بهيكل من العظم والجلد، ضعيفاً خائر القوى.

وكان الرجل قد عولج في الهند قبل أربع سنوات من الزحار الأميبي، أما الخرّاج فليس إلا نتيجة من نتائج هذا الزحار.

وتمكنت عن طريق فتح الخرّاج، من إنقاذ حياته . وكنت أتولى علاجه في كل يوم ، وتضمد جرحه. وقال بابتسامة باهته ... « أشكرك بالغ الشكر».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ظل والد عبدان إلى جانب ولده طيلة الوقت. وكان يعني به أشد العناية. وبات في استطاعتي في اليوم السادس والثلاثين من بدء علاج، دوعن في سجل المريض... « لقد شفي المريض تمام الشفاء، وقد استعاد كامل صحته وعافيته، وغادرنا اليوم عائداً لإلى بلده ».

وفي الطبقة الثالثة التي تعلو المكان الذي آوى عبدان، كانت هناك حليمة، وهي امرأة شابة، وضعت طفلها الأول قبل نحو من شهرين، وأصيبت بنزيف مستمر وخطير. وكنت قد أجريت لها عملية في أحدى المرات وساعدتني فيها زوجة أحد ضباط هيئة مكافحة الجراد، التي كانت قد عملت في التمريض، ولم تتمكن حليمة من المجيء ثانية لإجراء عملية أخرى لها بسبب الافتقار إلى وسائل المواصلات اللازمة، إذ أن هذه العملية وعمليات أخرى مماثلة قد تكون أمراً ضرورياً للغاية. ترى من سيساعدني في هذه المهمة؟

وقلت لأمها وأختها اللتين ظلتا تعنيان بها بإخلاص لا مزيد عليه ... « عليكما فقط أن تمسكا بحليمة أمساكاً قوياً. وبالفعل فقد نفذتا رغبتي وأمسكتا بحليمة وهي على منضدة العمليات بقوة وإصرار. وكانت الأم قد غطت وجهها بحجابها الأسود بينما ظلت الأخت تحملق بعينيها إلى السقف لتتجنب النظر إلى العملية. ولم يسمح لعبدالله بالعمل مساعداً لي. وعلى الرغم من إدراكها المعتاد، فأنهما ما كانتا لتسمحان بذلك، حتى وفي اللحظة التي تكون فيها فتاتهما مخدرة بالبنج. لكنهما سمحتا على أي حال بأن يمسك لها رأسها، حتى تتمكن من التنفس بصورة أفضل. ولكن لم يكن يسمح له بأن يرى أي شيء من النساء، كما أن وجهه كان مغطى بقطعة من القماش.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعل من حسن الحظ أن سالم عبد، كان يعتبر رجلاً عجوزاً لا ضير فيه، ولذا فقد سمح له بمطاردة الذباب وإبعاده عنها.

وكان علي أن أجدد المخدر الذي أعطيه لها بالعرق، من وقت لآخر، إذ أن عبدالله لم يكن قد تعلم بعد كيف يعطي هذه التطعيمات .

وقد سررت عندما انتهيت من العملية، وأصبح في وسعنا أن ننقل حليمة إلى سريرها، في الطبقة الثانية، بعيدة عن جميع زائري الحصن .

وكنت أشعر بشيء من حدة الطبع دائماً عندما أمضي لزيارتها. وكان لابد وأن تكون النتيجة مدعاة إلى الفجيعة، لو لم تنجح عملية التجبير. يضاف إلى هذا أن المواد الموجودة لدي لخياطة الجراح، كانت قد غدت نادرة. فلقد كانت الفتاه بالفعل في حاجة إلى عملية ثالثة، ولكن القيام بها كان يتطلب بعض الخيوط التي لا أملكها.

لكنني قمت بالعملية الثالثة أخيراً، ونجحت العمليات الثلاث نجاحاً كاملاً. ووضعت حليمة بعد أربعة أعوام، طفلها الثاني دون أي تعقيدات.

وكان مسيري إلى العمل ذهاباً وإياباً عبر السيل، وهو مجرى النهر الرملي الجاف الذي يفصل بين المدينة والسهل، يعوض علي كل ما أعانيه من الم وتعب، ويتيح لي مرة ثانية منظراً رائعاً من الحياة السليمة.

وكنت أرى في الصباح وأنا في طريقي إلى المدينة، السقّايات في عباءاتهن البنفسجية وقد اجتمعن إلى بئر في وسط مجرى النهر الجاف. وكن يسحبن الماء في أدلاء جلدية صغيرة وهن يتبادلن الأحاديث والضحكات ثم يملأن قربهن من هذا الماء. وكانت الجمال تنتشر معقولة فوق الرمال البيضاء، ويقوم البدو من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذوي الضفائر السوداء، والعيون الضاحكة والأسنان البراقة، بالعمل في تحميل هذه الحيوانات الصابرة البالات التجارية. وكانت أبدان هؤلاء البدو النصف عارية التي أحرقتها الشمس حتى أصبحت سوداء كالفحم، قد صبغت بالنيلة الزرقاء، وكانوا يأتون من الساحل يحملون الأسماك المقددة أو الأرز ويفرغون جزءاً من محمولهم في سوق مدين شيبام قبل المضي في الرحلة.

وقد مررت بنساء ورجال على أقدامهم أو يركبون صغار الحمير في طريقهم إلى السوق لشراء بعض الخضار أو بيعها. وكانوا يمضون في طريقهم متسلقين المرتفع إلى بوابة المدينة حيث يستقبلهم موظف الجمارك، وقد جلس إلى جانبه أحد التجار يتحدث باهتمام زائد بينما يفتح مساعده أحدى بالات السلع أو صندوقاً من صناديق التاجر.

وسرعان ما تبتلع شوارع البلدة الضيقة وراء هذا الحشد من الزبائن.

وعندما كنت أمر عند الغسق بنفس المكان في طريق عودتي إلى البيت، كنت أرى الرجال يجلسون في حلقة على الرمال الدافئة وهم يتناقلون الأنباء ويتبادلونها عن أسرهم وأعمالهم. ويتحدثون أيضاً عن مدينتهم وأرضهم قبل أن يتجهوا إلى مكة في صلاة المغرب.

وكان الصبية يلعبون طرازاً من كرة القدم أو شكلاً غريباً من أشكال الهوكي، وكان الأطفال يلعبون في الرمل بينما النسوة في ملابسهن الزرقاء عائدات من زياراتهن في السهل.

وغطست الشمس وراء الرابية، وبانت الجلاميد الصخرية شهباء اللون كالرصاص، إلى أن ظهرت الخطوط القرمزية الشاحبة من الغرب إلى الشرق عبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السماء الزرقاء البعيدة المدى. وانعكست على الصخور الآن أشعة وردية في هذا الوقت من الشفق وغاب اللون إلا شهب الجامد. وبدأت ظلال الليل في الظهور بصورة متدرجة.

وكنت أحب في هذه الساعة الزرقاء بين الغسق وحلول الظلام، امتطاء صهوة جوادي زنجبيل إلى الوادي، فأمضي خبباً عبر المسيلة وعلى طول طريق الإبل القديمة إلى الحقول وبساتين النخيل في الواحة. وفي طريق العودة كنت أنا وجوادي نسرح في أحلامنا وقت الشفق.

وكنت أنعم بالكثير من فترات الراحة والاسترخاء هذه كما أشقى بساعات طويلة من العمل. وكانت تتاح لي الفرصة في كل يوم، للحصول على تجارب جديدة، ولأدرك ما تستطيع أن تفعله طبيبة وحيدة، ليس لديها من الخبراء من يعاونها، بين قوم متأخرين في مكان ناء. وكان من الضروري وضع حد لطاقات الانسان، وأن يعمل المرء ضمن حدود امكاناته.

ولم أتوان قط عن السعي لتحقيق هدفي وهو بناء مستشفى وكسب ثقة الآهلين في العمل الطبي عن الطريق النتائج.

وتحتم علي أن أحظى باهتمام حكومة سلطنة القعيطي، لكي أحصل على المعدات الضرورية اللازمة، والأموال الكافية لإدارة المستشفى، فلقد كانت تقديرات الميزانية السابقة تقضي باعتبار شيبام مجرد مركز عادي للإسعاف.

وكنت أعمل في أوقات فراغي في أعداد القوائم وكتابة الرسائل التي لا عد لها ولا حصر إلى المؤسسات الصيدلية لأحصل على المعدات الطبية التي لا يمكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستغناء عنها. وقد بعثت إلي بعض المؤسسات بنماذج مجانية سنوات طويلة، ولا سيما تلك التي يحتاج إليها في مكافحة الأمراض الاستوائية.

ولم أكن أخفي عن الشيباميين ما نعانيه من فقر. وقدّم إلينا شاب عاد من الخارج، وبات الآن أحد مرضانا، أول خمس قوارير من البنسلين، التي أستوردها من عدن. وعلى الرغم من بعض الهدايا الأخرى، ومن كمية من العلاجات التي أتيت بها على حسابي، فقد كانت خزانة علاجاتنا الشحيحة فارغة تقريباً في نهاية السنة الأولى .

وقمت بزيارة خاطفة في هذا الوقت إلى عدن. واجتمعت هناك إلى عدد من الشيباميين الذين كانوا مقيمين هناك. وقد قدموا إلي خالص شكرهم على العمل الذي أقول به وطنهم، ولا سيما على العلاج الذي أقوم به لأطفال مدارسهم. ورددت عليهم قائلة: أن من المستحيل علي أن أمضي في عملي، إذ لم تعد لدي مؤن أو علاجات.

وابتسموا ابتسامات كيسة ثم مضيت عنهم عائدة إلى فندقي. وبعد ثلاثة أيام، جاءني محمد بن سالم بو عبيد العجوز وهو رأس ثرية في شيبام.

وقال لي الرجل... « لقد جمعنا من الشيباميين في عدن ثلاثة آلاف شلن أي مائة وخمسين جنيها. والنقود موجودة عند ولدي في مكتبة وسيقدمها إليك. وسيارتنا تحت تصرفك أيضاً. متى تريدين أبيباع العلاجات؟ إننا نود لو حملتها معك عند عودتك إلى شيبام بحيث تتمكنين من استئناف عملك فوراً.»

وعندما قمت بزيارة با عبيد الأصغر في مكتبة سلمني المبلغ . ولم يطلب مني أي إيصال به. ولم يطلب رؤية فاتورة الحساب بعد أن أتبعت كل ما أريده من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علاجات كما لم يكلف نفسه عناء فحص محتويات الأقفاص والطرود. وقد تسلمها بو عبيد وبعث بها فوراً إلى شيبام بطريق الجو. زمن المعروف عن العرب أنهم قزم يميلون إلى الحذر والحيطة. ولكنهم عندما يثقون بأي إنسان فأن ثقتهم لا حدود لها. وكلمة العربي هي العقد الذي يربطه، ولذا فلا ضرورة الإيصال مطلقاً.

وهكذا تلقيت عوناً لا يقدر بثمن، وإن كان هذا العون غير كاف إذ أن عدد مرضاي قد أرتفع إلى أكثر من ثلاثة آلاف في السنة الأولى. ولما كان معدل الزيارات التي يقوم بها المريض للمستشفى يبلغ ثلاث زيارات، ففي وسعنا أن نقول أننا عالجنا تسعة آلاف حالة في السنة الواحدة.

ولم تعد مساعدة سالم العجوز وعبدالله كافية لي. وكنت في حاجة ماسة إلى المعونة مع النساء. وعندما كنت آخر مرة في المكلا، ذكر لي العقيد المدرسة البدوية وكيف أقيمت نتيجة المجاعة العظيمة الأخيرة. ففي ذلك الوقت كان هناك في المدينة الساحلية عدد كبير من اليتيمات من مختلف الأعمار، وكانت قبائلهن عاجزة عن إعالتهن، ولذا فقد أنشئت قرية خاصة للأطفال. وسرعان ما أنشئت مدرسة البدو وتحت حماية المستشار البريطاني الخاصة. وكانت الطفلات يرتدين ملابس البدو ولكنها بيضاء لا من المصبوغة بالنيلج. وكن يعملن طبقاً للتقاليد الإسلامية ويتولى تعليمهن معلمون ومعلمات من العرب. وكانت بعض الفتيات قد أنهين سبع سنوات من الدراسة. ولم يكن أمامهن إلا مجالين للعمل، وهما التعليم والتمريض. وكانت الفتيات يحببن عملهن. ولم يكن هناك أي نوع من الإكراه. وقد وجدت هاته الفتيات من النوع الساحر والراغب في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمل بطريقتهن البدوية البسيطة والمنطلقة، حتى أنني وافقت على أن آخذ اثنتين منهن كمساعدات لي، وإن أتولى تدريبهما بنفسي. وكانت الفتاتان اللتان اخترتهما فاطمة ونور. وجرى لي حديث مع حسين العجيم قبل وصولهما.

قلت لحسين ... « اسمع يا حسين؛ إن هاتين الفتاتين آتيتان لمساعدتي بل لمساعدة نسائكم وأطفالكم. وهما كبدويتين، من طراز طيب. وأنا أعرف أن أهل شيبام لا يثقون بالفتيات اللائي يتلقين تعليماً مدرسياً، ويمارسن مهنة من المهن ولا سيما إذا كن يأتين دون عائلاتهن. وعليك أن تساعدني لتحمل أسرتين محترمتين من أسر المدينة على تبني هاتين الفتاتين إذ إنني أريد أن تكونا محترمتين في البلدة ».

ورد حسين قائلاً... « سأتحدث إلى شقيقتي أنها أرملة، وهي الأنسانة الصالحة لرعاية هاتين الفتاتين».

وكانت المرأة على استعداد لتقديم المساعدة، ولذا فقد أخذت فاطمة ونور إلى بيتها وشملتها برعايتها وكأنها أمهما، وقدمتها إلى أفراد أسرتها وصديقاتها .

وكنت دائماً أطلق عليهما أسم « ابنتي»، وأخاطب الواحدة مهنما بيا أبنتي. وسرعان ما أتضح لكل إنسان أنني أشمل الفتاتين بحمايتي وأن من الواجب معاملتهما بما يتوجب من احترام. وقد راعت الفتاتان بدورهما، لحسن الحظ، الأخلاق والعادات الصارمة التي كان من الواجب مراعاتها في شيبام .

وكان أصدقائي الشيباميون من رجال ونساء ينتظرن وصول الفتاتين بحماسة زائدة. وكانوا يخشون أن يؤدي وصولهما إلى ثورة بين فتياتهم والشابات من نسائهم. وكلهن من اللائي لا يعرفن القراءة ولا الكتابة، وقد يبقين على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جهلهن هذا. لكن الفتاتين لم تكونا من ذوات المطامح التربوية على أي حال؛ على الرغم مما كان يحسان به من إعتزار وسرور غامر، لأنهما كانتا من المثقفات. ولو حاولتا على أي حال القيام بإصلاح تربوي، لما حققنا أي نجاح، إذ أن نساء شيبام كن يؤثرن البقاء أميات جاهلات لأن رجالهن يفضلون أن تلقى نساؤهم جاهلات. وقد تحولت الشكوك والتردد مع مرور الزمن وبصورة متدرجة إلى شيء من الاعتراف والاحترام.

وأستقبل عبدالله وسالم عبد الفتاتان بكثير من الفرح. فأن وصولهما لم يحمل لهما معنى المساعدة الإضافية فحسب، بل وحمل أيضاً معنى الزيادة النافعة لأسرة المستشفى. وكانت العلاقات بيني وبين من يعملون معي من طراز حب العمل الجماعي وروحه. وبالنظر إلى هذه الروح العائلية التي سادتنا جميعاً، لم تكن الفتاتان تجدان نفسيهما مجبرتين على ارتداء الحجاب بحضور الرجلين.

وخلقت فاطمة ونور لنفسيهما مملكتهما في الحصن وراء الخزائن حيث تعالج النساء والأطفال. فبعيد وصولهما، بدأت أدربهما وأدرب عبدالله على مبادئ عملنا. وكنت أود أن يستطيع أعواني تشخيص الأمراض الشائعة البسيطة وإن يتقنوا طريقة معالجتها، كالملا ريا مثلاً والتراخوما وأمراض العين المنتشرة.

وكنت أريد منهم أيضاً أن يتعلموا مع مضي الوقت طريقة التعامل مع المرضى دون عون أحد إذا حدث ولم أكن في المستشفى، وإن يعالجوا الأوجاع البسيطة، ويقدموا العون في الحالات الشديدة إلى أن أعود .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان من المهم كل الأهمية أيضاً أن أغرس في نفوسهم طريقة وصف الحمية الصحية اللازمة للمرشدين والأطفال على حد سوى، وتحديد المواد الغذائية التي يمكن الحصول عليها لهذه الغاية في بلادهم. وكان عليهم أن يتعلموا أيضاً الطريقة التي يمكن استخدامها في منع الأمراض المستوطنة العديدة في بلادهم. وفرضت عليهم واجباً في أن يمارسوا هذه المعلومات على مرضانا فحسب، بل وأن ينشروها أيضاً بين أفراد عائلاتهم وأصدقائهم في جميع أنحاء البلاد ولم يكن هذا بالأمر الشاق هنا، إذ أن كل ما يحدث في المستشفى في شيبام يعتبر موضوعاً مثيراً للاهتمام والأقاويل.

وقد أدهشني وسرني أن أرى مدى الاستعداد العظيم لتفهم كل هذه التعليمات عند الفتاتين وعند عبدالله أيضاً. وكان سالم العجوز يصغي بانتباه إلى التعليمات أيضاً، ولكن كان من الشاق عليه أن يتفهمها، وإن كان قد أنمى إحساساً دقيق في معرفة إجراءات الوقاية العلمية والأنظمة لتنظيم الحمية والشؤون الصحية.

وكثيراً ما كنت أسمع الرجل العجوز يقول لي ... « لقد نصحت جار حيدر بأن يعطي ولده زيت السمك. أنه نافع له أليس كذلك ؟ فلقد جرب ولدنا سعيد، وقد أشتد عوده بعد تناوله، وبات في مكنته الآن أن يهرب من الدار كغيره من الأطفال». وكان سالم يقوم دائماً بدور الوسيط الرائع بيني وبين البسطاء من أهل البلدة .

ولم يكن في حضرموت أية صحف أو مطابع. وتنتشر الأنباء والقضية الهامة بسرعة البرق من فم إلى فم. ولهذا كنت أستعين بطريق المواصلات هذه لأنشر تعليماتي، وكنت على استعداد تام لإيصال ثمار السنوات من التجارب التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قضيتها لكل من يطلبها. وعرضت عليّ امرأة تقيم في أكثر جزء من البلاد نأياً ولا تعرف شيئاً عني ذات يوم ولدها الرضيع القوي البنية، وقالت... «أنه يعيش على حليبي ولا أعطية أبداً حليب الماعز. وتقول الطبيبة أن حليب الأم هو خير ما ينفع الطفل الرضيع. وقد سمعت ابنة عمي ذلك في شيبام عنده مضت إليها للمعالجة». وقد برهنت هذه الحادثة وأمثالها، على أن جهودي لم تذهب هباء. ونبتت أحسن العلاقات بيني وبين منطقة القربي التي تجاور « بير عساكر بفضل الفتاه بخيته ذات الساق المكسورة، وكانت هذه المنطقة تبعد مسيرة خمسة أيام إلى الغرب من شيبام. وطل أقرباؤها يزورونا طيلة الأشهر التسعة التي قضتها في مستشفانا وينشدون العلاج مني. ولم يحن وقت رحيل الفتاه عن المستشفى حتى كانت قبيلتها كلها تضع ثقتها في الطبية وفي مستشفاها.

وأحزننا فراقنا للطفلة. ولكنها بعثت في نفوسنا المرح بما بدأ عليها من إشراق. وكانت فترة الشهور التسعة التي قضتها معنا في المستشفى طويلة ولكن الكسر كان معقداً للغاية، وكان علينا أن نواصل رفع « الجبيرات، عن ساقها بين آونة وأخرى لتبديلها. وأخيراً شفيت الساق تماماً على أية حال، وأصبحت الفتاة تسير عليها تماماً.

وسألت الفتاة ذات يوم عما إذا كانت ترغب في الدخول إلى المدرسة في المكلا. وكان ردها سلبياً قاطعاً، وأضافت وهي تبتسم « أريد أن أعود إلى أهلي، لأعنى بماعزي». أنها يتيمة ولكن أخواتها وأقاربها وأفراد أسرتها الكبيرة، كانوا يعنون بها. وكانت بخيتة شديدة الإحساس بارتباطها إلى قبيلتها. وقد سرني هذا الرد الذي صدر عن الطفلة. وعندما بات في مكنتها أن تسير على قدمها أول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مرة، غمرتها الحماسة عندما رأت أن ساقها قد عادت سليمة من جديد. وقدم إليها عبدالله وأصدقائه من الشيباميين ثوباً جديداً، إذ أن ثوبها القديم، كان قد تحول الآن اسماه بالية. وظلت تمشي بعض الوقت متكئة على عصا. ولكن حان أخيراً اليوم الذي بات في استطاعتها أن تغادرنا وأن تمضي إلى (بير عساكر). ونقلتها إلى هناك سيارة من سيارات « اللواء البدوي». وعندما اقتربت الطفلة من السيارة قذفت عصاها جانباً وهتفت ... « لقد أنتهى أمر مرضي الآن»، وراحت تصعد إلى السيارة الشاحنة بنشاط وحيوية.

أمينة

كان الوقت ليلاً عندما طرق محفوظ بابي ...

وقلت أسأله ... ترى ماذا حدث ؟

- « أن طفلتي مريضة أيتها الطبيبة». ولم تمض دقائق حتى كنت أتبعه على ضوء مصباح عبر « السيلة» إلى البلدة. ورأيت الشوارع خالية من الناس تماماً. وانعكس خيالانا على أسوار المدينة وكأنها شبحان هائلان. وظهر أمامنا المسجد الصغير، أبيض كالثلج. ومررنا عبر طريق مسقوف إلى شارع آخر، ثم وصلنا في النهاية إلى بوابة دار فخمة الزخرف. وقرع محفوظ الباب بقبضة حديدية. وتناقلت الشوارع الضيقة وقرارة البيت رجع هذا القرع العنيف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأطل راس امرأة متلصصاً من نافذة تقع في الطبقة الرابعة. وقال مرافقي بهدوء وهو ينظر إلى العلى ... « أنا، محفوظ » ... وسرعان ما فتح الباب، ودلفنا منه إلى الداخل. ولكننا لم نجد أحداً وراء الباب. وكانت المرأة قد فتحت الباب من مكان بحبل يمتد عبر المنزل إلى الزلاج. ورحنا نصعد الدرج بسرعة. ورأيت امرأة تنتظرنا في أعلاه حاملة مصباحاً من « الجاز». وتبنيت الآن أنها امرأة عجوز للغاية، وقد لفّت رأسها وكتفيها بشال اسود. وكانت ثيابها الفضفاضة سوداء اللون، ذات شكل باهت وغير مستقر. أنها جدة محفوظ. وتطلعت إلي بنظرات يبدو فيها الإجهاد والتوتر العصبي. ودلفنا إلى غرفة صغيرة رأيت فيها طفلة في التاسعة من عمرها، مستلقية على حشية على الأرض. وكانت ضفائرها السوداء رطبة وملتفة حول تقاطيع وجهها الجميل ... وركع محفوظ إلى جانب الطفلة.

وراح الرجل يقول بصوت ناعم ... « أمينة ... أمينة». وفتحت الطفلة عينيها، وتطلعت إلى أبيها. وهمس الرجل في أذنها ... « لقد جاءت الطبيبة ». وتفرست الطفلة فيّ بعينيها المحمرتين من الحمى، ولكن جفنيها ما لبثا أن أغلقا ثانية. إنها تعاني من نوبة عنيفة من نوبات الملاريا، وكانت في حالة من الإعياء الشديد .

وقلت للفتاة ... « أسمعي يا أمينة عليك أن تبلعي هذه الأقراص. أنها مرّة للغاية ولكنها ستنفعك. » والتفت إلى الجدة الواقفة على مقربة من الباب وقلت ... « أسمعي يا حبابة . هات لي قدحاً من الماء لأمينة». وخرجت المرأة هارعة من الغرفة. وسمعت صوت أنضباب الماء من قربة من جلد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابتلعت أمينة الدواء دون شكوى، ولكنها تقزّزت مما قي مذاقه من مرارة. وتحسنت الفتاة في اليوم التالي، وتمكنت من مغادرة البيت في غضون بضعة أيام. وكانت الفتاة الجميلة ذات الوجه الذي تتوجه ضفائرها السوداء الناعمة، تهرع إلى عندي تلقاني وتقول هاتفة ... « أعطني يدك»، ثم تتناول يدي وتقبلها كما يقبل الأطفال هنا أيدي الكبار. وكانت عيناها تشرقان بالمرح وهي ترفع ناظريها إلي. ثم سرعان ما تركض ضاحكة لتعود إلى لعبها مع رفيقاتها. ولم تكن أمينة من فتيات المدارس، إذ ليس في شيبام إلا مدرسة واحدة للصبيان. ولكنها مع غيرها من الفتيات دوت العشرة، كانت تتعلم بعض سور القرآن الكريم غيباً على يد امرأة ضرير عجوز. وكانت الطفلات تجلس على الأرض أمام المرأة الضرير ويرتلن أي الذكر الحكيم بصوت واحد. وتقوم فتاتان كبيرتان حرصاً على الحفاظ على النغم بدور ضابط الإيقاع في أية فرقة موسيقية. وتتولى كل واحدة منهما بإشراف بصف الغرفة. وعلى الرغم من أداء الفتاتين لدورهما بشكل رائع، إلا أن اللحن كثيراً ما يصاب بالنشاز من جراء صعوبة الأداء للطفلات من سن الرابعة، وعدم حفظهن للسور حفظاً صحيحاً.

وسرعان ما تمضي الفتيات الكبيرات في التلاوة بسرعة وبصوت جهوري يضيع معه صوت المعلمة العمياء. ولكن مساعدتها النصف عمياء، تصدر أمرها بصوت عال إلى الفتيات، فيسكتن، ويعدن إلى الإصغاء إلى صوت المعلمة. وتمضي المساعدتان فتستأنفان، دوراهما في ضبط الإيقاع ويعود الصف بكاملة إلى الانضباط إلى أن تحفظ جميع الفتيات السورة الجديدة التي يتعلمنها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أصيبت المعلمة التي تدعى بالمديرة بالعمى، نتيجة أصابتها بالجدري. وبالطبع لم يكن مقدراً لها أن تتزوج أو تساعد في الأعمال البيتية. وكان ورعها وطهرها، وهي تتلو آيات الذكر الحكيم ينعكسان على كل ما حولها، ويبدوا أن في طالباتها الصغيرات اللائي يتعلمن منها، وفي النساء اللائي يجتمعن كل يوم خميس ليستمعن إلى المديرة وهي تتلو الآي الكريم.

وتعلمت امينة السور بسهولة وسرعة. وسألت ولدها عن الأسباب التي تحول بينه وبين أن يعهد بهذه الفتاة الذكية المندفعة بالحيوية إلى معلم خاص يتولى تعليمها القراءة والكتابة. فرد قائلاً ... لو تعلمت فتياتنا القراءة والكتابة لسعين إلى المزيد من المعرفة. وسيؤدي تعلمهن إلى توليد رغبات ونشوء طلبات عندهن. ولن يمضي طويل الوقت حتى يصبحن راغبات في مساواتنا نحن الرجال. إننا نعيش الآن في رخاء. ولكن إذا زادت مطالب النساء فإننا سنجد أنفسنا عاجزين عن تأمين نفقاتنا. وفي مكنتنا الآن أن نؤمن نفقات عائلاتنا. أما إذا زادت مطالب النساء فسنعجز عن ذلك».

ولم تكن أمنية نفسها راغبة في أن تتعلم أكثر من حاجاتها المطلقة لكي تكون زوجة وأمة صالحة. ولم تكن قد بلغت العاشرة عندما راحت تحث والديها على أن يسمحا لها بالتحجب والبقاء في البيت كرفيقاتها من الفتيات اللائي من عمرها. وسرعان ما قص شعرها طبقاً للمألوف في البلدة، وغدت محصورة في البيت لا تستطيع الاختلاط إلا مع أقرب قريباتها، وغيرهن من الفتيات، دون النساء المتزوجات حتى ولو كن من جاراتها. وتعلمت أمنية الطبخ وبعض الخياطة وأعمال التطريز. ومارست مع صدقاتها اللائي من سنها عزف الألحان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الراقصة على الطبول الملونة الزاهية، مغنية مع الموسيقى الأغاني الشعبية المنتشرة.

وبلغت أمنية الرابعة عشرة من عمرها عندما نما شعرها، فأخذت تغسله باستمرار وتصففه وتلمّعه، كما بدأت في تزيين يديها وقدميها بالرسوم المختلفة التي ترسم بالحناء. وأعطاها أهلها ملابس جديدة زكية الرائحة، وجواهر ثمينة تزين نفسها بها، وهي هلال من الذهب تضعه على صدرها، وقلادة فيها ثلاث مداليات فضية صغيرة، تضم وريقات كتبت عليها آي الذكر الحكيم، لإبعاد الأرواح الشريرة عنها وحلقاً ثقيلاً، ومجموعة من الأساور والخواتم الذهبية المرصعة بالحجار الثمينة وخلاخل تتدلى منها أجراس صغيرة. وكان يوم زواج أمينة. ولم تسمع به إلا في نفس الصباح إلا عند أبلغها والدها أنها ستتزوج إلى الشاب البالغ السابعة عشر من عمره والذي كان والدها قد تعاقد مع أسرته على زواجه من فتاته قبل عدة سنوات. هذه هي التقاليد التي عاشت قروناً طويلة.

ونقلت أمينة في الليلة إلى بيت عريسها ليبني بها. واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام في بيوت أهل العروسين،. ولكن في حفلات منفصلة للرجال والنساء. وكانت الولائم تتوالى، والزائرون يتوافدون ليلاً ونهاراً. وذبحت الأغنام والماعز وشوي لحمها أو طبخ ليقدم إلى الضيوف مع عصير البندورة المليء بالتوابل، ومع جبال من الأرز الأبيض والمصفر بالزعفران وقد ملئت بها « السلطانيات». وتقدم مع الطعام سلطات الخضار الطازجة من خيار وفجل وبصل فليفلة. كما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدم الفراخ المشوية والبيض المسلوق ومن ثم الحلويات المزوجة بالقرفة. وأخيراً كميات التمر الكبيرة.

هذه هي قائمة الطعام لأفراد الأسرة المدعوين في اليوم الأول . أما في الأيام الثلاثة التالية حيث كان عدد الضيوف يبلغ خمسمائة شخص كل يوم، فقد قدم الأرز واللحم وعصير البندورة وكلها تألف المواد الصالحة لوجبة عظيمة.

ويقف شبان الأسرة في صف طويل يبدأ من المطبخ، ويتناولون من رب البيت الصحاف التي يملؤها هو، لينقلوها إلى الضيوف وتقوم على الملايات البيضاء الطويلة التي مدت على أرض الغرفة، أكوام من الأرز، تحيط بها الصحاف التي تضم صنوف الطعام الأخرى، بحيث يستطيع كل ضيف الوصول إلى ما يشاء من الطعام دون أن يضطر إلى الانتقال من موضعه.

أما على « السفرة»التي أعدت لأفراد العائلة. فيضع الشبان صحناً أمام كل فرد، وهي طريقة فيها شيء من الاصطناع، إذ أن الطريقة البسيطة هي تستخدم في تقديم الطعام للضيوف. وتقضي عادات الأكل، بأن يعمل كل شخص تجويفاً أمامه في أكوام الأرز يضع فيه ما هو بحاجة إليه من حساء ولحم.

ويقف خادمان في مدخل غرفة الطعام، يحمل كل منهما أبريقاً و « طستاً» من النحاس الأصفر، ليصب الماء على أيدي الضيوف القادمين يغسلونها قبل الجلوس إلى الطعام. ونظام الجلوس واضح ومفهوم. فعندما يجلس أكبر الضيوف سناً ومقاماً، يجلس الآخرون وقد عرف كل منهم مكانه بصورة آلية رتيبة. ولا يأكل المضيف وأولاده في الحفلات الكبيرة مع الضيوف وإنما يظلون واقفين يشرفون على كل شيء، ليتأكدوا من أن الضيوف يلقون كل أكرام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما يفرغ الضيف من طعامه، يقف على رجليه ويغسل يديه ثم يمضي إلى غرفة أخرى حيث يتناول قدحاً من الشاي.

وعندما ينتهي الضيوف الثلاثون الأول من طعامهم، تجدد العملية والطعام لثلاثين آخرين يكون بينهم الشبان من الذين تتروح أعمارهم بين الرابعة عشرة والعشرين. وأخيرا يجيء دور الخدم فيتناولون طعامهم.

وتقدم الوجبة الأخيرة للضيوف في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثالث من العرس، بينما تقدم للنساء في الساعة العاشرة. ولما كان وقت الوجبة الأولى وقت عملي، فقد كنت أتناول الطعام مع الرجال.

ولا ينقضي اليومان إلا ويكون عدة مئات من الضيوف قد نعموا بضيافة البيت وكرمه. ووصل الآن نحو من مائتين آخرين من رجال البلدة ونسائها من الأغنياء والفقراء إلى حد سواء ومن المهم بالنسبة إلى الفقراء أن تقع حوادث من هذا النوع وأن ينعموا فيها بالغذاء الطيب. ولهذا فقد جاء سالم العجوز بولديه لهذه المناسبة. وبينما يجلس الضيوف الأوائل إلى طعامهم، يقف الباقون في صف طويل يمتد من غرفة الطعام نزولاً مع الدرج على الباب الخارجي .

وتحمل الدفعة الأولى منهم محل الذين أكملوا طعامهم بطريقة منظمة ويحمل شباب الأسرة جبال الأرز واحداً إثر آخر وصحاف اللحم متوالية الضيوف.

وكانت أمينة تجلس طيلة هذه الاحتفالات وحشود الضيفات يتوافدن على البيت ويمضين، ساكنة على أريكة من الحرير وقد ارتدت كل ما لديها من لباس جميل المرصع بالجواهر الثمينة البراقة. وجلست إلى جانبها أمها يفتر ثغرها من بسمة مشرقة محاولة أن « تهوّي» على أبنتها بمروحة في يدها، بينما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تتساقط حبات كبيرة من العرق على جبهة العروس نتيجة الحرارة الزائدة والعواطف الثائرة. وتجد نفسها مضطرة إلى الانسحاب بين الآونة والأخرى، لتستنشق الهواء العليل في جناح عرسها الواقع في الطبقة الخامسة من المنزل والمطل على شرفة فسيحة بينما تنزع عنها وصيفتها جواهرها الثقيلة وتزودها بكأس من الماء البارد القراح لتشربه.

وتظل النساء في رقص ومرح طيلة ساعات بعد الظهيرة وحتى يتجاور الوقت نصف الليل، بينما يرقص الرجال في باحة الدار السفلى، وكان في استطاعتي حتى في منزلي في « السهيل» أن أسمع صوت الغناء ودق الطبول صغيرها وكبيرها مصحوبة بالعزف على الرقوق والدفوف.

وأنجبت أمينة في السنة الثانية من زواجها ولداً. ورأيتها مستلقية وقد أضناها الإعياء، وظهرت على جبهتها علامة سوداء كبيرة للدلالة على أن الطفل قد ولد. وعلى عتبة الغرفة بعض البيض الذي كسر لحماية الوليد من عين الحسود. وذكرتني رؤية البيض بالدم الذي رأيته على عتبة أمينة ليلة زفافها. وقد تأكدت، وان لم يقل لي ذلك احد، إن الغاية من الدم المسفوك على العتبة، إضفاء الرفاء والبنين على الزفاف الجديد.

وسألتني أمينة عن الطريقة التي يتوجب عليها أن تستخدمها للعناية بطفلها وتغذيته. وشرحت لها كل شيء. ولكن الجد كانت ترى رأياً مخالفاً وأصدرت أمرها بأن يتناول الطفل عسلاً وحليب ماعز. وكانت العجوز قد ولدت أربعة عشر طفلاً لم يعش منهم إلا أربعة. وكان لبناتها وزوجات أولادها،عدد كبير من الأطفال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا ريب في إنها كانت امرأة ذات تجربة كبيرة. ولقد علمت أمينة كيف ترضع طفلها، وكيف تعني به، تماماً كما علمتها هي أمها، وجدتها من قبل. وعلى هذاالمنوال فأن حياة النساء هنا في أدق تفاصيلها وقواعدها لم تتبدل منذ مئات السنين .

وظلت أمينة بعد ولادتها لطفلها في بيت أبويها لآن زوجها مضى إلى الخارج متاجراً في أموال والده، ذلك حتى يتمكن أخوه الكبير من العودة لمدة سنتين إلى شيبام ليعيش مع والده وأطفاله.

حياتي الخاصة في سهيل

لم يكن بيتي يبعد أكثر من سبع دقائق مشياً عن بوابة، ولكن هذا البعد كان كافياً ليحمل أهل شيبام على التفكير فيما إذا كانت الضرورة ماسة تتطلب منهم المجيء لرؤيتي، وفي نفس الوقت كان قرب البيت كافياً لي لأصل إلى أي مكان أطلبه في غضون بضع دقائق. ولما كانت مهنتي تستنزف من قواي الكثير. فأن بيتي كان لابد وأن يكون بعيداً إلى الحد الذي يجعل منه جنة آوي إليها طلباً للراحة.

وكنت أحصل من صغار الأصدقاء على الراحة التي تنجم عن المتع الصغيرة واجه التسلية.

كان فرانز ينسل إلى غرفتي عادة بين الرابعة والخامسة. وكانت له أذنان كبيرتان وأنف مدبب وفروة رمادية شهباء، وذنب يبلغ طوله ضعف طول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جسده الصغير. ولم يكن فرانز هذا إلا جرذاً. وعندما رأيته لأول مرة وأبصرت بأذنيه الكبيرتين، أدركت لتوي أن الاسم الوحيد الذي يمكنني أن أطلقه عليه فرانز. وكان يبدو لي انه لا يعرف الخوف أبداً وأنه مخلوق ماكر للغاية، إذ أنني وضعت مصيدة خارج الحجر الذي يعيش فيه في الحائط، ولكنه كان يخرج، ويمر بالمصيدة دون أن تصيبه. وإذا استثنيت ما كان ينزله بحذائي من انتقام، فأنه ما كان يلحق بأشيائي أي أذى. وكنت أسرته في البداية متعبة بعض الشيء. فقد كانت تحمل طعام الجواد زنجبيل في حذائي وتأكله فيه. وكنت اعثر على البقايا في الصباح التالي.

وعلق عبادي ذات يوم خرج على الجواد عالياً، وعادت أسرة الجرذان دون أن تخطي بشيء. ومع ذلك، واصل فرانز الظهور في كل يوم. وكنت أتميز أن الساعة باتت متأخرة من النهار من ظهوره إذ يجلس في طرق الباب، ويأخذ في النظر غلي بعينه الصغيرتين ثم ينسل إلى الغرفة. وما كان ليتقاعس يوماً عن أن يدور حول صناديق الكتب المدهونة الملونة يشمها املآ منه في أن يجد فيها شيئاً يأكله. ويروح يتسلق خفيفاً بعد ذلك المنضدة التي أكتب عليها، فلا يجد أمامه إلا الورق والكتب والرسائل التي بقيت بلا جواب، وتقارير المستشفى. ولم تكن كل هذه الأمور التي تصلح لغذاء فرانز. فيعود وقد خابت أماله، هابطاً ثانية ليصل إلى بساطي الأحمر اللون ويحول فوقه يشم هنا هناك حتى يصبح أمام الباب . وهنا يركض مترددا إلى الأمام و الخلف عبر العتبة إلى أن يختفي نهائياً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا ريب في أن أزمة غذاء قد وقعت طيلة الشهر الذي قضيته في المكلا. لكن حشداً من الجرذان قد اتخذ مقره في غرفتي، ولما فشل هذا الحشد في الحصول على أي غذاء له، أخذ يسد هذا النقص بقرض ما في وسائدي من حشايا. وعندما عدت كان جميع الأزرار قد اختفت من ملابسي وكانت جميع القشط الجلدية في أحذيتي قد قضمت. واكتشفت أخيراً عشاً للجرذان المولودة حديثاً تحت غطاء جهاز مجهري، عندما جلست لتناول طعامي، رأيت صغار الجرذان تنتشر حول أطباقي. ووصلت الحالة حداً لا يطاق، ولذا فقد جئت بالقط موريتز إلى البيت، وعلى الرغم من أن القط لا يزال صغيراً، على أنه كان كبيراً إلى الحد الذي يمكنه من الإمساك بالجرذان. وسرعان ما تحول إلى قط كبير أبيض اللون، يطوف أرجاء المنزل أميناً وفياً، ويفد لاستقبالي عندما اصل إلى البيت بهرير عذب. ولكنه كان يتميز بعادة سيئة واحدة على الأقل، وهي اللصوصية، إذ أنه كان يسرق اللحم من عندي أو من عند احد الجيران إذا أتيحت له الفرصة للسرقة.

وقد عثر على موريتز أخيراً غريقاً في أحد الآبار، ولا ريب في أن أحد الجيران كان سؤلا عن غرفه .

وكان طيور الخطاف البنية اللون الشهباء، والتي تعشش في كل عام تحت عوارض غرفة الطعام، متعة أخرى بالنسبة لي. وقد عثرت على استكشاف بارز عظيم. وفي ذات يوم أصيب الأنثى بأذى عندما طاردها عبادي وقد ضايقه ما تخلفه الطيور من قاذورات على السجاد. ولم يعد في وسع المسكينة إن تطير إلى عشها، فاضطرت بما تبقى إليها من قوة إلى البحث عن ملجأ آخر لها خارج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنـزل. وبعـد بـضع سـاعات جـاء الـذكر بـأنثى أخـرى غـير مـصابة، لـتعني بصغارها.

وكان لدي عدد آخر من الأصدقاء ومنهم ليسّي، وهي سحلاه لها ذنب شـفاف لا يزيد في طوله على إصبعي، وكانـت اقـل جنبـاً وخوفـاً مـن فرانـز، وكـثيراً مـا تسلقت ساقي أثناء بحثها عن الذباب. وكان المنـضدة الـتي اكتـب عليهـا مكانـاً جذّاباً لليسّي. ومن المحتمل أن تكون قد استهوتها القـراءة والتعلـيم، إذ أنهـا كانت تزحف دائماً بين كتبي وأوراقي وكانت الغرفة تكتظ، في الأمسيات عندما أوقد مصباحي، بعدد من الحشرات البراقة، وكان بينها حشرة رفيعة خـضراء تسمى السرعوف أو المنطيس. وتلتصق هذه الحشرة على الحائط الأبيض بأرجلها الأربع، رافعة رجليها الأماميتين وكأنها تصلي. وكانت تظل علـى هـذا الحـال ساعات وساعات. لا ادري لماذا كنت كلما رأيتها أتصور امرأة عانساً أمامي.

وتلقيت ذات مساء زيارة حشد من الوافدين الذين أكتـضت بهـم غـرفتي، أنهـا جماعات من الجراد التي فرغـت مـن التهـام كلمـا في الـوادي مـن نبـات. وكـان شكلها جميلاً للغاية بأجسادها الرقيقة التي تجمع بـين الخـضراء والاصـفرار، وبجناحتها الضعيفة الواهية. وقد لا يتصور المـرء إن هـذا الجـرادات يمكـن أن تأكل كل ما في بيت الإنسان، وتتركه يتضور جوعـاً. ويقـول أهـل الـبلاد: « أن الجراد يأكل كل شيء، ولذا فنحن بأكله بدورنا». وكان بالفعـل يحبونـه مقليـاً بالـسمن ويعتبرونـه لذيـذاً، كمـا نعتـبر نحـن الـسرطان البحـري، أو الجـراد البحري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان من واجب خادمي عبادي، يدير البيت بكامله. وهو صبي ذكي جميل، دقيق ونشيط في عمله، ولكنه بات شديد المكر والدهاء معي بعد مضي الوقت فقد شرع يحسب الآن مشترواته اليومية من السوق بالشلنات بدلّ من السنتات، وعندما أكون غائبة فأنه كان يوقع الفواتير باسمي. ولهذا فقد وجدت نفسي مضطرة لإخراجه واستبدال آخر به يدعى صلاح وكان يساعد في العمل في البيت منذ عدت اشهر.

وكان صلاح ولداً بسيطاً أميناً ينتمي إلى أسرة فقيرة كانت تعيش في وادي بن علي الذي لا يبعد كثيراً عن شيبام.

ولم يسرق فلساً واحداً طيلة المدة التي قضاها في خدمتي. وكان أميناً صادقاً إذ يعتبر نفسه أحد أفراد المنزل، ولذا فقد كان عنايته بشؤون البيت تفوق عنايتي أنا، ولهذا كنت دائماً أجد كل شيء في موضعه، ولا أرى شيئاً في غير موضعه الطبيعي. وكنت إذا تناولت طعاماً من مخزن المؤونة دون أن أبلغه، أتعرض للومه.

وكان صلاح بطيء التفكير، ولذا فقد كان هدفاً لسلاطة لسان النساء. وكان يتعرض لمشاكل مستمرة مع المرأة التي تحمل الماء العذب للبيت، كل يوم من البئر، وتقوم بكنس المنزل، مما أدى إلى إستعاتنا مرات عدة بامرأة أخرى. ولقد قال لي صلاح ذات صباح ونحن نبحث في قضية التسويق لحاجيات البيت ... « لقد مللت من هات السقايات. أنهن لا يقمن بكنس البيت بصورة صحيحة. عندما آمرهن بشيء لا يطعن أمري، ويتواقحن معي. هل تظنين أن من الأفضل لو تزوجت؟ في مثل هذه الحالة ستكون هناك امرأة دائمة في البيت، وستنفذ ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصدره إليها من أوامر. ولأبنة عم، هي أكبر مني بقليل وقد تزوجت مرتين، ولهذا فلن تطلب مني مهراً كبيراً. أنني أفكر في هذا يا طبية، وسأسأل عمي عن المهر الذي يتحتم علي أن أدفعه».

وكان صلاح في العشرين من عمره، وتحتم علي أخذ في عين اعتباري أنه سيتزوج، في يوم ما ولما كان قد وجد نفسه مضطراً إلى استئذاني بوصفي رئيسته، قد رأيت أن أراعي العرف وأن أدفع له مهره.

وعندما قرر العم أن يكون المهر مائتي شلن، وافقت على ذلك فوراً. وسرعان ما بات صلاح رجلاً متزوجاً، وأصبحت زوجته تحمل إلينا الماء كل يوم، وتحافظ على نظافة المنزل على النحو الذي يريده صلاح.

وما لبث صلاح أن غدا مريضاً. وقد شفي من مرضه بسرعة، ولكنه ما لبث أن أصيب بانتكاسة. وكان يؤثر أن تتولى أمة وشقيقه العناية به، إذ أنه كان يخشى أن تكون زوجته هي السبب في مرضه وأحسنت المرأة بالغيرة الشديدة، وظلت غيرتها هذه حتى بعد شفائه.

وجاء صلاح إلى بيتي ظهر هذه يوم، وقد بدا شاحباً كل الشحوب وهو يرتجف ... وقال لي... « ماذا أعمل؟ تريد زوجتي أن تبتاع تعويذه من أحد السادة لتوثق حبي لها، وتضمن بقاءه إلى الأبد. وقد قامت امرأة بمثل هذا قبل أربع سنوات، ففقد زوجها عقله».

- ولكن كيف عرفت أن امرأتك تعتزم ذلك؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- قالت لي ذلك أحدى قريباتي. لقد طلبت منها زوجتي مبلغاً تدفعه ثمناً لهذه التعويذة إذ أنها تفتقر إلى المال. وقد رفضت قربتي أن تعطيها، ولكني واثق من أنها ستحصل على المال من مكان آخر.
- إذن مزق التعويذة أو أحرقها عندما تأتي بها أليك.
- لن أرى التعويذة مطلقاً. ستضع الورقة في الماء الذي أشربة أو في الطعام الذي أكله، وأنا في غفلة، ودون أن أعلم، إذ إن الورقة ستذوب، لا سيما وهي مكتوبة بحبر سحري. وبعد أن أبتلع التعويذة، سأجن وأفقد عقلي تماماً. ولن يكون في وسعي أن أظل بلا أكل أو شرب إلى الأبد.

وتبين لي أن صلاح المسكين كان قد غدا مثقل الفكر، مبلبل الخاطر.

وقلت له أذهب إلى السيد، وقل له، أن عليه أن لا يعطي لزوجتك هذه التعويذة.

- لا أدري أي سيد ستقصده زوجتي. هناك عدد كبير منهم في حضرموت.
- إذن أمض وأشتر تعويذة تبطل تلك التعويذة.
- هذا لا يجدي مطلقاً .
- أو ليست هناك طريقة لتجنب مفعول هذا السحر.
- أجل، إذا طلقتها قبل أن تحصل عليه. ولكن عمي والدها سيثير لي عدداً من المشاكل في مثل هذه الحالة.

وأقنعت صالح بأن يمضي إلى عمه فيحدثه بصراحة، إذ أنني كنت على ثقة من أن أحبه لزوجته قد مات نهائياً، وأنه والحالة هذه، سيظل في خوف دائم منها. وكان من المستحيل حمله على أن يدرك بأن هذه التعويذة السحرية لن تترك فيه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي أثر إذا توقف عن الإيمان بها، إذ أن أيمانه بالخرافات وبالسحر كان عميق الجذور متأصلاً في نفسه.

وعاد صلاح إلى المطبخ وهو مشوش العقل، مبلبل الخاطر، ولم يعد إلى هذا الموضوع ثانية. وجاء في الصباح التالي إلى عمله كالمعتاد مع زوجته وبدأ لي أنهما قد تصالحا وتفاهما. ولكن ما لبث صلاح نفس تلك الليلة، أن جاء يصعد الدرج مسرعاً، وهو بادي الهياج والاضطراب .

وقال لي وكأنه يزيح هماً ثقيلاً عن صدره: « لقد تخلصت منها ز الحمد لله».

ورأيت المرأة في الصباح التالي، تمر أمام داري وقد حملت ربطة على رأسها. وتوقفت لحظة واحدة ثم رفعت يدها مهددة، وكالت سيلاً من الشتائم وجهتها إلى نافذة المطبخ .. وعادت إلى بيت أبيها.

وأخذنا محاولة منا في التغيير، نستخدم رجلاً في تأمين الماء لنا. فلقد مل صلاح بعد هذا الفترة، حديث النساء والزواج.

وراح يقول لي ذات يوم : « لن أبحث من امرأة أخرى إلى أ، يبعث لي الله بواحدة». وكان الله كريماً معه. فبعد عام واحد تزوج فتاة ساحرة تدعى جمعه. وأخذت تملأ لنا ما نحتاجه من قرب الماء وتأتي به إلينا. وظل الزوجان في خدمتي متحابين بكل إخلاص ووفاء.

وكان ثمة الكثير مت مظاهر الحياة حول منزلي. ففي دار الخدم المجاورة، يعيش أحد رعيان البقر. وكان هذا الرجل يجلس بعد ظهر كل يوم حتى الغسق، في باحة الدار، يطعم بقرته، ملقماً إياها العلف شيئاً فشيئاً. وإلى يمين الرجل وشماله أكوام من القش والبرسيم. وكانت كل لقمة تتألف من ثلاث قشات تربط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حول ثلاث حزمات من البرسيم، ولا يضع الراعي أية كمية من القش أو أية ورقة من البرسيم، ولا يضيع الراعي أية كمية من القش أو أية ورقة من البرسيم الثمين. وهكذا تظل البقرة ويظل الراعي في شغل دائم ساعات طويلة. وكانت البقرة تتميز ببنيان قوي من العظام وبكتل من الشحم في رقبتها، ولكنها كانت خالية من اللحم، وكان في وسع المرء أن يعد ما فيها من عظام. وكانت جميع الأبقار في حضرموت تبدو في هذا الشكل، فهي لا تنتج أي حليب، ولكنها تقوم بعمل باسل في الحراثة وفي سحب الماء من الآبار.

ولم يكن الراعي مفتقراً إلى الرفقة وهو يقوم بعمله. فكثيراً ما جاء أحد جيرانه، وأقعى إلى جانبه، وأقدمت زوجته من النافذة ليجري معه حديثاً طويلاً.

وكانت سلامة امرأة عاملة دؤوباً. فمع بزوغ الفجر، تثب المرأة من فراشها لتطحن بعض الذرة على مطحنة من الحجر تمهيداً لخبزها، وإنتاج نوع من الخبز الجاف من مسحوقها. وكانت تدأب على الغناء وهي تواصل عملها، ولعل هذا الغناء كان جزاءً من هذا العمل. وكانت الأنغام قاسية وعالية، وتوحي لسامعها بالانطباع بأنها نفسها غاية الجهد في عملها. وكثيراً ما أفقت من نومي على صوت غنائها.

وكانت لا تنفك عنه أيضاً وهي تقوم بطحن الحنطة المحلية لها ولنا، ولكن غناءها آنذاك يختلف عن غنائها وهي تطحن الذرة.

وكانت أغاني العمال تصل كذلك إلى مسامعي في الصباح، وعندما يقومون بطحن الطباشير المكلسة، على مقربة من أتون الجير. وكان في وسعي أن أرى بطحن ستة منهم يواجهون بعضهم بعضاً في أزواج وهم يهزون مدقاتهم هزاً منسجماً مع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللحن الذي ينشدونه. ويعتبر حرق الجير مهنة نافعة وخاصة، إذ أن للكلس الذي يستخدم في « طرش» الغرف من الداخل، يصنع بطرقة مغايرة للكلس الذي يستخدم في من دهان الجدران الخارجية والشرفات. ويؤلف مزيج من هذا الكلس مع روث الحمير، نوعاً من الأسمنت الذي لا تنفذ منه المياه. ويستخدم الكلس في غرف الحمامات والمطابخ والمجاري وأحواض الاستحمام وكان الكلس يعد في سهيل في كتل كبيرة تتعرض لتأثير الأجواء وتنحدر على سفوح التلال. وعندما شرع العمال، في القرع والدق، على التل فوق بيتي أخذت أتطلع إليهم بشيء من القلق. وقال لي العمال بشيء من عدم الاكتراث أن صخرة كبيرة بحجم أحد البيوت، هوت قبل نحو من عشرين عاماً من الجبل على سهيل. دمرت بيوتها« وقتلت امرأة واحدة».

وعندما كنت أرى سحابة من الدخان الأسود فوق سهيل، كنت أعرف على الفور أن الجيران قد أحرق، وأن شحنة جديدة من حجر الكلس هي في تلك اللحظة في الأتون الذي يتراوح ارتفاعه بيت ستة أقدام وتسعة وترتفع ألسنة اللهيب المضيئة من الأتون في الليل، وكان في وسعي أن أرى الأشباح تغدو وهي تطعم النار بالمزيد من الوقود.

وكان من الشاق ومن الباهظ التكاليف في هذه البلاد التي لا أشجار فيها للحصول على الأخشاب اللازمة للوقود.

وكان البدو يعرفون أماكن في الوديان الصغيرة والأخاديد في السوط حيث يكون المر أكثر غزارة وحيث تكون بعض الأحجار والأشواك. وهم هنا يجمعون ما في هذه الأشواك من خشب لنيرانهم ويعملون منها أيضاً الفحم يبيعونه في المدن والقرى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعل الافتقار إلى الخشب اللازم للوقود وندورة الحطب هما السببان اللـذان أديـا إلى بناء مساكن حضرموت العالية والجيدة التصميم منذ أقـدم العـصور مـن اللـبن المحروق في الشمس لا في النار. وقد أجتنب خطر التفسخ والانحلال في هذه البلاد بالماء بإقامة المساكن والقلاع فيها في نقاط لا يصل إليها الماء كطلقة ولا تسقط عليها الميازيب التي تحمل مياه الأمطار. أمـا سـحب الـصيف المطـرة، فليـست كافيـة لإذابة هذا اللبن، الذي تحيله حرارة الشمس إلى قسوة الصخر وصلابته.

ولكن ما عجز المطر عن فعله، فعلته أحدى الأبقار. فقد جاءني عبادي بعد ظهـر ذات يوم يقول... « لقد انهارت غرفتي».

وأصابني فزع شديد، وتخيلت أن منزلي كله قد أنهار، كما يحدث عادة للبيوت القديمة للغاية إذا لم يجر هدمها في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان.

وكان الجو لا يـزال مليئـاً بـسحب الغبـار. فقـد انهـارت غرفـة عبـادي بالفعـل وتساقطت على ما تحتها. وكانت لا تزال هناك بعض العوارض الخـشبية ناتئـة من قواعد الجدران. فلقد تحطم عمود اللبن في الاسطبل الواقع تحت الغرفة، الذي كان يدعم ثقلها. ورأيت الحطام صحافاً وعدداً من الأقداح. وكان عبادي وأصـدقاؤه قد غادروا الغرفة قبل بضع دقائق من انهيارها. ولكن ما شأن البقرة وهي تمتضغ طعامها بهدوء في الانهيار؟

لقد ظلت حبيسة هذا الاسطبل ستة أشهر طيلة الليل. ويبدو أنها كانـت ترتكـز بقائميها الخفيين على العمود حيث تلبي نداء الطبيعة مفرزة بولها عليه. وهكذا شرع بولها في تحليل القاعدة التي يقوم عليها العمود وتفسيخها على الرغم من أن هذه القاعدة لم تكن أقل كثافة من البقرة نفسها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان ثمة خطر في تهاوي السقف الأعلى، الذي كانت عوارضه قد بانت الآن في الهواء. واستدعى البناء على عجل. وقد دعم العمود الآن بقاعدة من الحجر، وان ظلت الأجزاء العلوية من «اللبن» المجفف. وعند سقف الغرفة، أدخلت قاعدة أخرى من الحجر، تستطيع العوارض الخشبية الموجودة فيه الإتكاء عليها. وهكذا بات في الامكان تجنب وقوع انهيار آخر في غضون الساعات القليلة القادمة. وأعيد إسناد العوارض الخشبية في الأرض على جدران وعلى عوارض أكثر منها أتساعاً. ووضع معلم البناء، في قمة ذلك الخشب والقش ثم طلقة من الطين وبعد أسبوعين، وكان هذا الطين قد جف وبات قاسياً، جاء المعلم البناء للمرة الأخيرة وأضفى على « أرضية» الغرفة غطاء أخيراً من أسمنت الكلس.

ولم يسمح للبقرة بدخول بيتي بعد ذلك اليوم. فلقد كانت هناك إسطبلات أخرى في الباحة، حيث أمكن إيواء جوادي زنجبيل والبقرة في الليالي الباردة.

وكانت الباحة من الاتساع بحيث يضيع فيها زنجبيل وبعض الماعز والدجاج. ولم تكن هذه الباحة تمتلئ حقاً إلا في سنوات الأمطار الشديدة، بعد أن تغرق المياه الكثير من الأماكن، إذ يقود الرجال والنساء نحواً من ثلاثين أو أربعين بقرة إليها. وكانت هذه الأبقار قد جاءت لحراثة حقول شيبام خارج المدينة. وكان سيل واحد كبير الحجم كافياً لري جميع هذه الحقول على طريق شبكة من السدود والأخاديد الصغيرة والكبيرة والقنوات والمجاري. ولقد كانت لحظة اندفاع السيول، هي خير لحظة مواتية للبذار و الحراثة. ولهذا يهرع الرجال والنساء بما لديهم من أبقار من القرى المجاورة لمساعدة أهل المدينة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانوا يذهبون إلى الحقول مع مطاع الفجر، فيحمل أحد الجمال المحاريث وهي أخشاب قوية على شكل « الشوكة»، تكون ذراعها الطويلة هي المتكأ بينما تكون الذراع القصيرة ذات الطرف الحديدي هي المحراث الحقيقي.

ويعود الموكب كل مساء إلى البيت. وكان في وسعي أن أرى جماعات من الرجال والماشية في باحة منزلي، حيث يقوم الرعاة على إطعام البقرات بأيديهم.

ويوقد الرجال النيران، وتقعي النساء بملابسهن السوداء إلى جانب النيران يطهين الطعام عليه. ويمتلئ الجو بالصراخ وبهدير الأحاديث .

وتساق الماشية إلى الآبار الموجودة في بساتين النخيل، لسقايتها. وتمضي النساء إلى حوض أخر حيث يملأن قربهن الجلدية والقدور السوداء التي يستخدمونها في الطهي. وكنت أسمع الأصوات تتعالى، وخرير المياه من الجابية، وهي حوض الاستحمام في « بنجلة» آل باسويدان الصيفية القريبة من منزلي .

وقد عرفت أن بعض الرجال يستحمون في مياه الحوض الباردة بعد عملهم الشاق في النهار الحار المليء بالغبار.

وكان كل بيت من بيوت البساتين جابية كهذه. ولم يكن وجودها مجر دليل على الرخاء، إذ أن مياهها كانت لازمة لري البستان كل بعضة أيام.

وعاد الهدوء إلى البئر بصورة متدرجة. ونفذت أشعة القمر عبر أوراق النخيل لتقلي بظلالها الناعمة على التربة، وانعكست خيوطها على مياه الحوض، وكنت أستمع إلى انضاب الماء إلى مسافة ثلاثين قدماً وإلى حفيف نسائم الليل على هامات أشجار النخيل. ويعتمد الأهلون هنا على مواعيد تكون البراعم وظهور الأزاهير وتحولها إلى بلح ينضج، وأخيراً على موعد جني هذا البلح، في تاريخ أيام سنتهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكثر من اعتماد على التقويم القمري، لأن التمر هو غذاؤهم الأساسي، ولـذا فهـم يقولون في وقت التزهير أو وقت القطف، لكن الفلاحين يحددون مواعيـد البـذار والحصاد بالنجوم.

ويستمر الطعام والأحاديث والضحك وأحياناً الشجار حتى بعد منتصف الليل. ثم يهجع القوم إلى مقربة من نيران المكان، ولكنهم لا يلبثـون أن يـستيقظوا حـوالي الساعة الرابعة صباحاً، ليطعموا مواشيهم قبل بدء العمل اليـومي، لقمـة لقمـة، على أن تضم الواحدة ثلاث حزمات من القش وثلاثاً أخرى من أوراق البرسيم وقد ربطت إلى بعضها.

وبات الحديث في البلدة متركـزاً الآن علـى قـبر هـود. فلقـد حـان موعـد حجـيج الأهلين إلى قبر النبي هود الذي يقع على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق مـن تـريم، حيث يتبدل اسم الوادي ليغدو وادي المسيلة.

وتضم كل منطقة من مناطق حضرموت، ضريحاً خاصاً بها، يضم رفات شخص من الأولياء أو الأتقياء، يجله الناس هناك ويحترمونـه. ولا يـسمح الإسـلام بـإطلاق اسم القداسة على هؤلاء الأولياء. ولكن الناس الذين يحتشدون في كل عام إلى هـذه الأضرحة، يأملون أن تؤدي الصلوات التي يقيمونها هناك، على مقربة من الولي، إلى حلول البركة بهم.

ولم يكن ثمة من فرصة طبيعية أكثر صلاحاً لعقد الأسواق من هذه الفرصة. وتكون الزيارة في بعض الأماكن السبب الرئيـسي في جـذب النـاس إليهـا، بينمـا تكـون السوق التي تعقد فيها هي الجاذب الأساسي. وتعتبر زيارة قبر نبي هود هي أهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزيارات في حضرموت كلها. وكنت قد قررت القيام بهذه الزيارة، منذ كنت أشهد في تريم أحدى العمليات الجراحية مع الطبيب آل « الكاف» الإيطالي.

وكانت ثمة سيارة جيب صغيرة صفراء تحت تصرف طبيب تريم. وقد حملنا معنا الأخوين صلاح وجمال الليل، من تريم. وبعد مسيرة نحو من ساعة بالسيارة، أخذ عدد القرى والحزب يتضاءل شيئاً فشيئاً، ولم تمض ساعتان أخريان حتى كنا نغادر قلعة « سوم» وهي آخر القرى، مخلفينها ورانا. وتعتبر « سوم» آخر مكان تصل إليه السيارات طيلة العام إلا في أوقات الزيارة إلى قبر هود. ورأيت اليوم بضع سيارات شحن حكومية، ماضية إلى هناك تحمل الجنود والنائب. وكان البدو من أفراد قبيلة « المناهيل» لا يسمحون للسيارات الأخرى بالمرور في أراضيهم، إذ أن هذه السيارات عطلت على إبلهم في السنة الفائتة واستعاض بها الزوّار في نقلهم إلى الضريح عن إبل البدو. وهكذا رأينا معظم الزائرين في ذلك اليوم على ظهور الإبل والحمير أو يسيرون على أقدامهم. ولم يكن عددهم يزيد هذه المرة على ثلث العدد المعتاد، وهو أمر سيء للبدو، الذين لم يكونوا ليهتموا بالاحتفال أو بالصلوات.

وتمتلئ بيوت هود بالزبائن في موسم الزيارة، ولكنها لا تلبث أن تخلو وتصبح مشرعة الأبواب قيما تبقى من أيام السنة. ويملك السادة من تريم معظم هذه البيوت. وقد أقمنا مع صلاح وجمال الليل في بيت عم الأخير الذي لم يأت للزيارة نفسها خوفاً من البدو. وكان بيته يقع على مقربة من السوق.

وكان البدو يخيمون أمام البيت، ومعظمهم من ذوي الأجسام القوية، والتقاطيع الرائعة، وبعضهم في منتهى الأناقة والجمال. وكانت نساؤهم هناك أيضاً سافرات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بملابسهن التي ازرقت من النيلج، وبسلاسلهن من الفضة وأنطقتهن ذات الأجراس والخلاخل، وقد طليت وجوههن بالدهانات الصفراء، وامتدت خيوط حواجبهن في شكل دقيق رفيع. وأضاءت المصابيح السوق. واحتشدت جمهرة غفيرة من الناس أمام الخيام، ووقفت هياكل من البدو السمر الوجوه بين قطعان الماعز. واشتعلت نيران صغيرة عدة في المخيم حول الساحة.

وبرزت من الشارع جماعة من الرجال تسير في شكل منظم على شكل مربع كبير. وكان بعضهم يقف في وسط المربع. وبدأ التهليل والتكبير والدعاء للنبي هود، وأخذ الرجال يخطون بضع خطوات إلى الأمام وأخرى إلى الوراء وهم يرتلون، ثم سرعان ما يركعون على ركبهم أجلالاً وإكباراً. وأخيراً أخذ خطوهم يسرع شيئاً فشيئاً في الذكر حول البئر، يقودهم عدد من الشيوخ من ذوي الشعور الطويلة. وكان هؤلاء يترنحون برؤوسهم إلى الأمام والخلف تاركين شعورهم الطويلة تتماوج في الهواء على شكل رقم الثمانية باللغة الإنكليزية.

وبدأ البدو يرقصون خارج بيتنا، رجالاً ونساء معاً. وقد وقفوا في حلقة يغنون ويصفقون بأيديهم، بينما ترقص امرأة إلى الخلف بخطوات سريعة ضيقة يلاحقها رجل، سرعان ما حل محله آخر بعد بضع جولات. وكانت حركاتهم السريعة الرشيقة جميلة كل الجمال، وكان النغم المسكر، يشجع المرء على الاشتراك في الرقص. ولكن خطر في بال أحد الجنود أن يمنع البدو من الرقص، إذ خيّل إليه أن الحماسة ستشتد بهم إلى حد كبير يحملهم على الاشتباك في معركة وعلى الإمساك ببنادقهم. وكان هذا العمل مثيراً للهزء والسخرية، ولذا سرعان ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نسخ الأمر وأبطل. ولكن البدو كانوا قد أرتحلوا، وبدأوا يرقصون الآن عند الماء على ضوء القمر.

وأحتل « منصب » عينات في الساعة الرابعة من الصباح التالي مركزه في قيادة الموكب على بعد ميل من القرية. وكان مركز « المنصب»، وهو الزعيم الديني وقاضي الصلح، وراثياً في أسرة هذا السيد منذ العهد الذي لم تكن هناك فيه حكومة هنا، بل كانت فيه مجموعة من القبائل والشيوخ القبليين في المدن والقرى.

وسار ستة رجال يحملان الأعلام الزاهية الألوان في مقدمة الموكب واحتشد الناس حولهم يحاولون لمسهم. وعندما وصل الموكب إلى بقعة معينة في مجرى نهر عميق تسيل فيه المياه ، شرع المنصب في نزع ملابسه حتى الثياب الكتانية منها. ودخل إلى الماء يرافقه عمه، وسيد كهل آخر جليل الهيئة. واحتشد الرجال والصبيان من كل مكان يحاولون لمس المنصب، وهو يدفعهم عنه برش الماء عليه. وظل العم يطارد أكثر الناس حماقة مخافة أن يقوموا بإغراق المنصب في الماء دون وعي من جراء حماستهم.

وانسحبنا إلى شرفة بيتنا، وانتظرنا هناك مرور المواكب. ولم تمض فترة طويلة، حتى كان الموكب يتقدم إلينا من ناحية الجدول بين البيوت، وتوقف بعند سور السوق. وانهالت الصلوات على جميع الأنبياء، في ترتيلة جميلة. ثم تقدم الموكب في طريقه باتجاه قبر النبي هود وكانت القباب البيضاء تلمع عالية على المنحدر تحت الجلمود الصخري. وتسلق الزوار وهم في ترتيلهم ودعائهم درجات السلم العريض واغتسلوا في الحوض،ثم دخلوا إلى قاعة ذات عمدان تعلوها صخرة كبيرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معلقة. وتقول الأساطير أن أعداء هذا الرجل الصالح قد طاردوه، وتعـرض لخطـر جسيم فانشقت الصخرة ليدخلها هود ثم عادت فأغلقت عليه. لكن الناقة الأمينة ظلت على أي حال، ملقاة أمام الصخرة منتظرة صاحبها .

وصعد المؤمنون عندما وصلوا الصخرة إلى الضريح الفعلي ليقدموا فـروض الإجـلال للنبي بصلواتهم ودعائهم.

ولم ينصرف عقد الموكب قبل الظهيرة، وأنتهت الصلوات. وسرعان ما خلى المكان وشرع الزائرون قي العودة إلى الأماكن التي جاءوا منها وهم يغنون ويرقصون.

وعاد الزوار إلى تريم بعد ثلاثة أيام وقد دخلوا إلى المدينة على ظهور الجمال التي استأجروها من البدو. وقد اقتحمت الإبل البوابة وهي تـركض خبباً متجهـة إلى السوق. وكان البدو يركضون إلى جوانب إبلهم حرفاً منهم عليها ومخافة إصـابتها بأي سوء. وامتلأت شوارع البلدة بمنظر رائع من السادة الأجـلاء، والوصـيفات في أرديتهن الحمراء وحجبهن السوداء، والفتيات الصغيرات في ملابسهن الزاهيـة. ومشى جمل هادئ وقور في المؤخرة، يعرض بردعة واسعة جميلـة الـصنع جلـس عليها ستة من الأطفال الذين مضوا مع آبائهم لزيارة قبر هود.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسرة المستشفى

كثيرا ما جاءني بعض الناس في مستهل أيامي في البلدة يقولون ... « هل نستطيع المجيء للعلاج في بيتك بعد ظهر اليوم ؟ أننا لا نرغب في الذهاب إلى مستشفى الحكومة، ونحن نؤثر أن ندفع المال في سبيل العلاج. وليس ثمة من شك في أن لديك في المنزل علاجاً يفضل ما تقدمه الحكومة إلينا. فلنترك ذلك العلاج للفقراء الذين لا يملكون أن يدفعوا».

وكنت أرد عليهم قائلة... (ليس ثمة من فرق بين منزلي في سهيل والمستشفى في الحصن القديم، فهو منزلي أيضاً. وإذا لم تكونوا راغبين في المجيء إلى هذا،فمنزلي مغلق في وجوهكم أيضاً. وأنا لا أتغير، هنا أو هناك، وأعالج الناس في المستشفى بنفس الطريقة التي أعالجهم فيها في البيت).

ولم يمض طويل وقت حتى كان المواطنون الأغنياء ينتظرون علاجهم في الحصن على قدم المساواة عم أفقر الناس.

وأدرك الشيباميون أنهم جميعاً متساوون عندي، وأن ليس ثمة تفضيل أو مرضى ممتازون. ولم أكن أهدف في شيبام إلى إ قامة عادة العيادات الخاصة، إذ أن هذه العادة لن تلبث أن تتحطم من نفسها تمام التحطم حال مغادرتي للبلدة. وما جدوى مثل هذه العيادات في بلاد تضم خمسين ألف إنسان وليس فيها إلا طبيب واحد؟ وكان علي أن أفعل شيئاً مغايراً هنا تماماً، هذا إذا كنت أتوخى خيراً من الخدمات الصحية. ولم يعد يهمني ما إذا كان الحصن صالحاً كمستشفى أولاً، طالما أنه هو الوحيد في البلدة ، وكان يضم بضع غرف أستطيع فيها أن أمارس عملي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورأيت أن البداية يجب أن تقع عند الشيباميين أنفسهم حيث يستطيع كل إنسان أن يرى وأن يسمع ما نفعله. إذ ما لم يؤد الأهلون دورهم، فان مصير المشروع الصحي كله إلى الانهيار.

وكان الشيباميون حتى قبل وصولي إلى مدينتهم راغبين في إقامة مستشفى لهم. وكان العقيد بعد توليه منصبه قد تبنى هذه الفكرة وشرع في تشجيعها. وأقنع حكومة القعيطي بخلق هذه الوظيفة الطبية الجديدة التي أسندت إلي.وخيل إلى الحكومة أنها قامت بواجبها، وأنها عملت ما فيه الكفاية. ولكنني رفضت الانحراف عن الهدف الذي وضعته نصب عيني، وتمكنت من حمل العقيد على الموقوف إلى جانبي. واقنع وزير السلطان وغيرة من الرجالات الحكومة بصورة متدرجة، بالحاجة إلى هذه الخدمة، واستقدم تلبية لإلحاف العقيد المتوصل، طبيب بريطاني من موظفي وزارة المستعمرات، جيء به من السودان ليتولى تنظيم كافة الشؤون الصحية في محمية عدن كلها والإشراف عليها. وعندما قام المستشار الصحي بزيارة مستشفانا لأول مرة، واطلع على عملنا، قال لي تلقائياً ... « علينا أن نحاول تحسين أوضاع العمل لك. وسنزودك أولاً بالمستشفى ومن ثم بالسيارة».

وسرعان ما قامت معارضة شديدة. وقام هناك من يقول أن لا ضرورة مطلقاً لوجود المستشفى في شيبام، وإن علي أن أنتقل إلى المكلا، لا لأعالج المرضى من النساء فحسب، بل ولأتولى، تدريب عدد من الفتيات على أعمال التمريض، وهي مهمة لا توكل في الحقيقة إلى الطبيبة وإنما إلى ممرضة مدربة.

ولكني ما كنت لأرضى بالعمل في أي مكان غير شيبام. فلقد كنت مستغرق في عملي، ومشغولة في التغلب على جميع المتاعب الولية، وقد حققت الكثير من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النجاح في مهمتي. وكنت أعتبر تخليّ عن الشيباميين خيانة لهم، لاسيما وقد آمنت بلفتهم الشديدة على وجود طبيب بينهم وبأن وجود المستشفى في مدينتهم لم يكن مجرد أمر له ما يبرره فحسب، بل وجوهري كل الجوهرية أيضاً .

وكانت مهمتنا إلى اجتذاب أكبر عدد ممكن من المرضى للمجيء للعلاج، وتحسين الأوضاع الصحية، والدعوة للتغذية السليمة، واتخاذ جميع الإجراءات الوقائية لمنع انتشار الأمراض بين أهل المدر والوبر على حد سوى. وهل هناك مكان لإجراء مثل هذا الأنصال بالناس خيراً من شيبام البلدة ذات السوق التجارية !

وقضيت وقتاً مزعجاً كل الإزعاج. وكنت عندما أتحدث إلى العقيد يحيلني هذا الوزير السلطان فإذا ما تحدثت إلى هذا، رد بدوره قائلاً ... « علينا أن نبحث هذا الموضوع مع العقيد ».

وقابلت ذات يوم وأنا في طريقي إلى البلدة ضابطين من ضباط السلاح الجوي الملكي البريطاني، وكانا مشغولين بالتقاط الصور الفوتوغرافية.

وقال لي الضابطان .... « لقد جئنا إلى هنا في زيارة. وسنطير بعد ظهر اليوم من قطن إلى عدن ».

وقات أسألهما ... « هل العقيد في قطن؟».

- طبعاً.
- أذن أرجوا أن تسألاه الوقوف في طريق عودته في شيبام، والقيام بزيارتي في الحصن لأمر هام للغاية. أرجو أن لا تنسيا إبلاغه هذه الرسالة.

ولم ينسيا الضابطان. وجاء العقيد لزيارتي في الحصن، والقلق باد على محياه ورحت أوضح له من جديد ، ضرورة بناء مستشفى حقيقي في البلدة. ثم قلت...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

« أما أن يبنوا هذا المستشفى وأما أن أستقيل وأمضي. فأنا أرفض رفضاً باتاً العمل في المكلا ».

وقال العقيد ... وهل هذه كلمتك الأخيرة .

- أجل هذا قراري الأخير.

- ورد وهو يبتسم ... « لا تقلقي. ستظلين هنا ».

وأنقضت شهور ستة قبل تقرر حكومة القعيطي أخيراً، بناء مستشفى في شيبام وأسهمت الحكومة البريطانية بتبرع منها لهذا المشروع .

وأختيرت قطعة من الأرض تعلوها الخرائب وتقع وراء الحصن، مكاناً لهذا المستشفى. وانقضت ستة شهور أخرى قبل أن يبدأ العمل في البناء فعلاً .

وحقق البناء تقدماً ملحوظاً في غضون بضعة اشهر. ولكن ما لبث أن توقف، نظراً لنفاذ المبالغ التي رصدت لهذه الغاية، قبل أن يتم البناء. ما العمل يا ترى؟ وكنت أرى من واجب الناس أن يسهموا في بناء المستشفى إذ أنه في النهاية، لمصلحتهم هم. وأخذت أنا والعقيد ووزير السلطان على عواتقنا إقناع المجلس البلدي بالتبرع للمشروع. ولكن المجلس على حق في رأيه بأن التبرعات يجب أن تجمع من المقاطعة كلها، إذ أن خدمات المستشفى والطبيبة لن تكون مقتصرة على مدينة شيبام وحدها. ووافق أهل شيبام والمقاطعة أخيراً وعن طيب خاطر على الإسهام في بناء المستشفى.

وانقضى عامان ونصف العام بين وضع الحجر الأساسي والاحتفال رسمياً بافتتاح المستشفى. وكان حصننا القديم في غضون ذلك، قد جهز بمعدات أفضل، ورصدت لي أخيراً وبعد سنوات ثلاث من وصولي موازنة خاصة. وجاءني مساعدون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آخرون. وتمكنا بفضل المستشار الصحي، من الحصول على ميزانية لا بأس بها من السلطات البريطانية، وهي أموال كان يقتضي جمعها من سلطنة القعيطي أمداً طويلاً.

وحولنا غرفة بخيته السابقة في الحصن القديم إلى مخزن. وأعد مكتب في غرفة العمليات لكاتبنا الجديد. وسرعان ما شرعت الملفات في الكتوم على هذه المنضدة الرجراجة.

وقد عين عوض بناء على طلبه في هذه الوظيفة الجديدة، بعد أن زار شيبام مع أولاد صفه في المدرسة الحكومية في « غيل باوزير». وكان عوض يحسن الكتابة والحديث باللغتين العربية والإنكليزية، وكان ذكياً. ولذا فقد عهدت إليه بوظيفة أمين المخزن بالإضافة إلى عمله الكتابي، وهي وظيفة كانت تتطلب منه الكثير من الجهد والوعي، والميل إلى التنظيم والحرص. وسرعان ما بات مسؤولاً عن الأعمال الإدارية كلها، وبينما أصدرت التعليمات إلى المطابخ عن الحصص التي يصرفها من المواد الغذائية.

وتمكن بالإضافة إلى كل ذلك، من إستيعاب كل ما عملته لمساعدي بكثير من الاهتمام. وكثيراً ما هب لمساعدتنا عندما تكون الحاجة ماسة إليه.

وكنت ذات يوم قد انتهيت من عملية رئيسية، كانت القضية فيها قضية موت أو حياة. وكان المريض لا يزال على منضدة العمليات عندما راح عبدالله الذي كان يعمل مساعداً لي يقول ... « هل أستطيع المضي الآن؟ إذا تأخرت سيفوتني الباص المسفر إلى المكلا، وسيضيع علي موعد الإمتحان».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقلت أرد عليه ثائرة ... « في وسع امتحانك ينتظر. فعلينا أن نعني بهذا الرجل. أولاً حتى يزول الخطر عنه».

ومضى في هدوء يبحث لي عن حقنة أحتاجها. وعاد ومعه عوض الذي قال بلهجة تنطوي على الاسترحام « أرجو أن تسمحي يا طبيبة لعبدالله بالذهاب إلى المكلا. سأتولى أنا عمله، وأجلس إلى جانب المريض طيلة الليل إذا أقتضى الأمر».

وكان يعرف أن الحكومة قد اشترطت لأي ترفيع أو زيادة المرتبات أن يجتاز مساعدوا الأطباء في المستشفيات إمتحاناً أعدته لهم في المكلا. ولم يكن هذا الإمتحان يعقد إلا مرة في كل عام. وكان من سوء حظ عبدالله، أنت الإمتحان قد فأته في السنة الفائتة. وإذا لم يشترك في الإمتحان هذه المرة، فحسب أقدميه سنتين. لا ريب في أن مثل هذه الخسارة قاسية عليه كل القسوة.

وقالت للرجل ... « حسناً يا عبدالله. أسرع إلى المكلا. ولا تخف أو ترتبك في إمتحانك . أظهر لهم مدى ما تعلمته هنا».

وأشرق وجه الرجل، ووضع الحقنة في يد عوض، ومضى خارجاً وتولى أعماله مدة أسبوعين، كان رائعاً حقاً.

وكانت الفترة الواقعة بين كانون الثاني (يناير) ونهاية آذار (مارس) من كل عام هي أكثر أوقاتنا إزدحاماً بالعمل. فعلينا قبل كل شيء إعداد تقرير السنوي وكان عوض يتولى تهيئة ما أحتاج إليه من أرقام.

وراح يذكرني قائلاً: « لا تنسي أن رغبتك كانت متجهة إلى ذكر تدريب الفتيات، كما لا تنسي اقتراحاتك بصدد معالجة المجذومين. وهناك أيضاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأعمال الإصلاحية في المستشفى». ولا نكاد ننتهي من إعداد التقرير حتى نشرع في طلب ما نحتاج إليه العام الجديد. وكنا نضمن قوائمنا كل ما يحتاج إليه أي مستشفى عادي، وكل ما نستطيع أيضاً الحصول عليه. وكان تسلم هذه الطلبات من وكلاء التاج البريطاني يستغرق سنة كاملة أو أكثر أحياناً، فقد أدت مشاكل الصناعة وإضرابات عمال أرصفة السفن في بريطانيا، وأحوال الطقس السيئة في البحار إلى وقوع الإبطاء في تسلم الحاجيات، بالإضافة إلى بعض عوامل السياسة التي تحتل أزمة قناة السويس طليعتها.

وكان علينا أن نحصل على أرقام دقيقة للغاية، طيلة أيام السنة. وعندما أنتهى عوض من جرده، وأغلق دفاتره، قضينا معاً ساعات طويلة في المستودع، وقد تسلحنا« بالكاتالوجات» وعروض الأسعار.

وكان علينا أن ننتهي من مهمتنا الثالثة قبل الواحد والثلاثين من آذار (مارس)، وهو موعد انتهاء سنتنا المالية في المستشفى. وحصلت من أمين صندوق الحكومة في شيبام على نسخ من حساباتنا تظهر ما أنفقناه من مخصصاتنا وما بقي من حساباتنا. ورحت أشتري بما تبقى من مال مشتروات للمستشفى حتى لا يحول ما تبقى لنا من رصيد عند الدولة إلى السنة المالية الجديدة. وقد تمكنت عن هذا الطريق لعدة سنوات من شراء كميات كافية من مسحوق الحليب تمكنا من تقديم قدح من الحليب يومياً لكل مريض في المستشفى.

ويشتد ضغط العمل علينا أيضاً عندما يحين موسم الحج إلى مكة، إذ يتحتم علينا أن نتولى تطعيم جميع الحجاج. وكان معظمهم يفدون إلينا من حضرموت الغربية ومن وادي دوعن قبل أن يشرعوا في سفرهم بواسطة سيارات الشحن عبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطريق الطويلة الممتدة في الصحراء. وكان يتحتم علينا في غضون ثلاثة أشهر، أن نطعم أكثر من ألفي إنسان، مرة ضد الجدري ومرتين ضد الكوليرا. وهذا يعني ستة آلاف تطعيم.

وأخذ عدد المرضى الذين يفدون إلى المدينة طلباً للعلاج يزداد سنة بعد سنة، وكان علينا أن نجد لهم المأوى اللازم. وكان لدينا في الحصن القديم بعض الغرف الخالية تحت تصرفنا في الطبقتين الخامسة والسادسة. وكان على المرضى الذين يقيمون هناك، أن يعنوا بأنفسهم، أو يحملوا أقاربهم على العناية بهم. ولم تكن لدي أيضاً في المستشفى الجديد أسرة كافية للمرضى الذين يحتاجون إلى العناية. ولهذا فقد كنت أقبل فيه الحالات الخطيرة التي تحتاج إلى العملية، والفقراء جداً. وكنت أؤيد قيام العائلات بالعناية بمرضاها. والعناية بالمرضى والعجّز في حضرموت شيء مألوف عند العائلات. ولم يكن الحضارمة راغبين في أن تحملوا المستشفى بالتالي الدولة هذا العبء، إذ أنهم كانوا يريدون الخدمة الصحية عبء كاف على المستشفى. وكثيراً ما أضطررت على النقيض من ذلك التغلب على مقاومة بضع الأقارب الذين تتطلب طبيعة ما يشكو منه مريضهم وحالته، أن يكون في المستشفى. وفي هذه الحالة لم أكن راغبة في إبعاد هؤلاء الأقارب نهائياً عن مريضهم بل كنت أطلب إليهم أن يبعثوا بأحد أفراد الأسرة أو بأحد الخدم للعناية بالمريض في المستشفى. وكثيراً ما تولى اثنان أو ثلاثة من أقارب المريض السهر بالتناوب إلى جانبه وذلك في الحالات الخطيرة أو بعد عمليات رئيسية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت الأسر بالإضافة إلى ذلك تسهم في رؤية طريقة العلاج، وتصغي إلى أسئلتي وإيضاحي، وتلاحظ ما أفعله وترقب النتائج. وهكذا أتيحت للحضارمة الفرصة لاستجلاء فن الطب ولتعلم الإعجاب به وتقديره. وكانوا يدركون أن الطبيب لا يستطيع الإتيان بالمعجزات، وأن كان يستطيع معاونة المتألم، شريطة أن يفد عليه هذا في الوقت المناسب وأن تكون لديه الأردة على الشفاء.

وعلى الرغم من بقاء الكثير من الخرافات القديمة التي ترد في أصلها إلى أقدم العصور البدائية فأن الحضارمة والبدو من المسلمين المؤمنين.

وهم يقولون دائماً : « الله اكبر». فكل شيء مرده إلى مشيئة الله، وكل ما يفعله الناس حتى الأطباء منهم رهن بمشيئة الله.

وعندما مات طفل في الرابعة من عمره، وألتفت إلى والده عبدالكريم، أقول أنه قضى، رد هذا هامساً... « الحمد لله» وكان الطفل قد هوى إلى بئر وهو يلعب. وتدلى البستاني في حبل ليحمل الطفل الذي أصيب إصابة قاتلة في رأسه. وحمل عبدالكريم ولده الصغير الحبيب فيصل في ملاءة كبيرة، لفه فيها بعناية، وأسرع به إلى شيبام، آملاً في أن تتمكن الطبيبة من إنقاذ حياته. وقد تمكن من خياطة الجرح الكبير الفاغر في رأسه، ولكنني لم أتمكن من وقف النزيف الداخلي. ومات فيصل. وكرر عبدالكريم بكثير من الورع وأتلقى قوله ... «الحمد لله» ثم عاد يلف ولده الميت في الملأة الكبيرة. فهو يؤمن أن إرادة الله شاءت أن لا تتمكن الطبيبة من إنقاذ حياة الطفل. ، ولهذا فقد حمله والده إلى مقره الأخير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسمع كل إنسان في البلدة في الصباح التالي بما حدث للغلام، ولكن لم يكن ثمة بيت فيها لم يكرر كلمات عبدالكريم، وهي «الحمد لله». وكان كل من يتلقاه يسأله عن التفاصيل. ولم يكن فيصل أول مريض لنا يموت أو أول مريض لا تنقذه العملية. وكنت في كل مرة على استعداد للرد على أية أسئلة توجه إلي، إلى القدر الذين تصبح فيه الردود مفهومة للعاديين من الناس. وإذا كان لابد للناس من أن تكون لهم ثقة بي، أو ثقة بالطب فوق كل شيء، فمن الواجب أن تتاح لهم الفرصة لرؤية كافة ما للعلم من إمكانات لها حدود لا يتجاوزها. وكنت أنتهز كل فرصة سواء بعد النجاح أو الفشل لتحقيق ذلك.

وراح حسين يسألني ... « لماذا جئت إلى هذه البلدة بعد ظهر اليوم؟» فقلت أرد عليه ... « علي أن أقوم بعملية لرجل من بيليل». أنه مصاب بانعقاد في الأمعاء. وهو ما أصيب به حميد العجوز، الذي مات على الرغم من العملية ... وقد جاءني الرجل العجوز كما تعرف في اليوم السادس من إصابته بالمرض. وكانت فرصة التمكن من إنقاذ ضئيلة للغاية. وها قد مضى اليوم الرابع على إصابة الرجل الذي حمل من « بيليل» على متن حمار بالمرض. وهو ميت حتماً إذا أقم بإجراء العملية له.

وظللنا نعمل حتى الساعة متأخرة من الليل. وراح الرجال والنساء على حد سواء يسألونني في اليوم التالي ... « كيف حال المريض من بيليل؟ هل سيقدر له الشفاء؟

قلت... « إن شاء الله. إن كل شيء يتوقف على ما إذا كانت أمعاؤه ستعود إلى العمل من جديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت حياة الرجل لا تزال في كفة القدر عند الظهيرة.

وعندما عدت إلى البلدة بعد الظهر، أسرع حسين إلي هاتفاً من بعيد « سيعيش الرجل. لقد انفتحت أمعاؤه . هذا ما قاله إسماعيل».

إذن سيعيش مريض «بليل» . وانتشر النبأ بسرعة البرق في البلدة كلها وكان كل إنسان ويقول تعليقا على هذه الأنباء الطبيبة ... «الحمد لله». فالموت والحياة بيد الله. وقد سهل علي هذا التعليق العميق من الناس بالدين حمل مسؤولياتي نحو المرضى أفراد بيني وبين الناس، وهو ما يبدو على أسرة مستشفاي من ثقة وسرور بما يقوم به أفرادها من عمل سواء في المستشفى أو في البيوت أو القرى النائية .

ولم يكن قد انقضى على الأختين فاطمة ونور طويل عهد معي، عندما تحمل عليهما أن تعنيا بالطفل ربيع البالغ الرابعة من عمره. وكان الغلام قد أصيب بنوبة حادة من نوبات الخناق « الدفتيريا». ولم يأت والده به إلي إلا بعد أن كان التورم في عنقه قد بلغ حداً يهدده بالاختناق. واضطرت اللجوء إلى عملية فتح القصبة الهوائية، وأدخلت أنبوبة فيها تمكن الغلام من العودة إلى التنفس. وظل الوالد إلى جانبه طيلة الوقت. ولم أعترض على ذلك، إذ سبب لي أن وجدت أن أقارب المريض، ولاسيما إذ كان طفلاً، يكونون عادة أقل خوفاً، من غيرهم لدى رؤية ما يحدث لمرضاهم. يودون دائماً أن يضفوا على مريضهم الفائدة من تأييدهم المعنوي بحضورهم إلى جانبهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجلس الوالد ولده صامتاً شاحب اللون. ولم يسبق لمساعدي أن رأوا حالة من هذا النوع ولم يعرفوا بالطبع طريقة علاجها. ولهذا فقد نقلت « ربيعاً» والأختين بعد العملية أبى بيتي .

وكانت الأختان وهما في الرابعة عشرة والخامسة عشرة على استعداد للقيام بأعمال المعالجة التي ما لبثتا أن أتقنتاهما وفهمتا طبيعتها. وقد تمكنت منذ الصباح التالي من العهدة بالطفل إلتهما. أن أقضي بضع ساعات في المستشفى.

وأخذتا تتناوبان الجلوس وحمل الطفل في الحضن، مصغيتين لتنفسه ودائبتين على تنظيف القناة من وقت إلى آخر بريشة كان عبادي قد قطعها من أحدى الدجاجات في الباحة. وظل والد الطفل وجدته يشتركان مع الفتاتين في مراقبته، يحملان إليهما الطعام والشراب. ولم يكن يسمح لأي إنسان آخر، حتى والدة ربيع، التي كانت على وشك الوضع، بدخول البيت، الذي سرعان ما غدا، مركزاً عظيماً للاهتمام، وكان الرجال والنساء يواصلون طرق بابي، فهم يريدون رؤية ربيع والاطمئنان إلى تقدمه نحو الشفاء. وشفي الطفل بسرعة كبيرة. ولم يمض يومان حتى كان يركض إلى النافذة ليلوح للناس بيده منها. ولم يكن في الامكان منعه من ذلك، إذ أن سروره كان بالغاً. وقد دهش الناس من رؤيتهم إياه يتكلم دون أن يسمعوا له صوتاً، وذلك بسبب الهواء الموجود في الأنبوبة.

وبات التمريض الآن أكثر سهولة لفتاتيّ، ولكنهما ظلتا تواصلان الجلوس إلى جانبه طيلة الليل وهما تستمعان إلى تنفس الطفل الصغير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحل اليوم الذي انتزعت فيه الأنبوبة. ولم يرغب ربيع الآن في التنفس عن طريق قصبته الهوائية، إذ أن التنفس بواسطتها بات الآن أكثر صعوبة علية من التنفس عن طريق الأنبوبة.

وصرخ الطفل طالباً إلي أن أعيد له الأنبوبة. ورحت بكلابتي أفتح الجرح في القصبة بعض الشيء، لا حول دون سماع صوته ثانية. ودهش الطفل من رؤيته صراخه الذي كان يستخدمه كسلاح رائع مع الكبار، لم يسمع رغماً عن أنفه.

وأستسلم الطفل أخيراً، وعاد يتنفس بشكل عادي، وركض إلى النافذة، وأخذ يتمتم مرحاً مع الناس الذين كانوا لا يزالون يحتشدون أمام البيت متطلعين إلى نافذته.

ولما كانت فاطمة و نور من بنات قبيلة الكثيري، فقد تحتم عليها أن تشرعا في العمل في سيئون بعد أن انتهى تدريبهما معي ، كمعلمتين في مدرسة سلطنة الكثيري للبنات. وأخذت فاطمة على عاتقها في سيئون العناية بصحة طفلات المدرسة. وراحت تقاوم التراخوما ببسالة، وعندما كانت إحدى طالباتها تتخلف عن الحضور إلى المدرسة، كانت تمضي هي لزيارتها في بيتها.

وأخترت بنتين أخريين لي، من مدرسة بنات البدو في المكلا. ولم تكونا شقيقتين وإنما تنتميان إلى قبيلتين مختلفتين من قبائل سلطنة القعيطي.

وكانت لخديجة وسلمى طبيعتان مختلفتان كل الاختلاف. فأولاهما، طويلة القامة عريضة المنكبين، أما الثانية فضئيلة الجسم ناحلته. وكانت سلمى عزوفة عن الكلام عندما تجتمع مع زميلاتها، كما لم تكن جد راغبة في العمل. ولكن عندما أعهد إلى كل منهما بعمل منفرد، فأنها سرعان ما تنشط، وتصبح كتلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشتعلة من النشاط والحيوية. وكانت أحداهما تعمل الآن في المستشفى بينما تمضى الأخرى للزيارات في البيوت، لعيادة المصابين بالأمراض الرئوية بصورة خاصة.

وكان مرض السل آخذاً في الانتشار ولا ريب في أنه مع أمراض نقص التغذية والإسهال الأميبي كان يألف مشكلتنا الرئيسية الأولى. ويعزي السبب الرئيسي في إنتشار السل إلى ضعف التغذية عند الأهلين. فهناك نقص كمّي خطير وعام في المواد الغذائية في جميع أنحاء البلاد. ولكن الأدهى والأمر، هو النقص الكيفي أيضاً في التغذية. وقد غدا الأرز بفضل الاتصال المستمر مع الهند وإندونيسيا مادة غذائية أساسية عند الأهلين، وكلما كان هذا الأرز أكثر بياضاً كان أكثر تقبلاً لدى الناس. وهكذا أهمل الناس خبز الذرة اللاذع الطعم، كما أهملوا« الفريكة» المصنوعة من الحنطة المقشورة. وكانت الوجبة الصحيحة المؤلفة من الخضار واللحم والحليب تكلف ثمناً غالياً للغاية. فهذه الحاجيات الثلاث غير متوافرة في البلاد ، وحتى في بيوت الأغنياء فأنها لا تأكل في كل يوم. أما بالنسبة إلى نساء المدن، فإن حياتهن المنعزلة، كانت سبباً آخر من أسباب المرض.

ولا تنتهي الزيارات للبيوت عادة بأنها الجولات الصباحية التي كانت تقوم بها خديجة وسلمى، إذ أن « سهيل»، ترد على البرنامج في ساعات بعد الظهيرة، وتقوم الفتاتان بزيارة مرضى القرية ومن يعيش « بناجلها» من المصطافين الشباميين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكثيراً ما وفدت إلينا عائلات بكاملها من الوديان النائية وقد عرف أفرادها أن في وسعهم الآن العثور على طبيبة في شيبام، تعالج لهم ما يشكون منه من أوجاع يعود بعضها إلى سنوات خلت. وكثيراً ما يمكن الزوج خارج البلاد، وعندما يعود إليها، يجد أن الواجب يحتم عليه أن يفعل شيئاً لزوجته وأطفاله.

وكثير ما عثرت في الصباح على « كمّون» الذي هزمه الجدري، فملأ وجهه بالبثور جالساً إلى دراجات المستشفى ومعه أحد الغرباء إلى البلدة. وكان هذا الوسيط يتولى القيام بجميع أعمال الدوعنيين عند زيارتهم لشيبام.

وسرعان ما يحييني ويقول ... « إن هذا الصديق من دوعب يقيم في منزلي يا طبيبة، وفد حمل معه عدداً من المرضى وهو يود لو تفضلت بزيارته».

عندما ينتهي علاج الدوعنيين ويصبح الرجل على أهبة الرحيل عائداً إلى واديه، يفد إلي في المستشفى ويطلب إلي أن أعطيه « الروشة» وهي الأذن الخطي له بالسفر.

وأروح أسأله ... وما حاجتك إليها؟

- من الخير لو حصلت على الورقة المكتوبة. فأنا مرتحل الآن. وإذا حدث واحتاجت إحدى النساء إلى مساعدته، بعثت إليك معها برسالة أضمنها هذه الورقة، وسرعان ما تعرفين هويتها، وماذا تريد منك. فهذه الطريقة تبعث الثقة في نفوس نسائنا .

وكان البيت الكبير الذي يضم باحة منزلي و« البناجل» المجاورة، يضم المرضى أيضاً. فلقد كان الراعي مثلاً وزوجته« سلامه» يستضيفان الأصدقاء والأقارب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوافدين من القرى الأخرى والمحتاجين إلى العلاج. وفي هذه الحالة، يعلو صوت سلامة في أغنيتها وهي تجرش ذرتها في الصباح، وتطيل من أمر هذه الأغنية. ونما عدد مساعديّ في المستشفى، إذ أنظم إلينا بعض المساعدين الجدد. وكانوا في البداية من المتطوعين من شبان شيبام الذين يتوقون إلى التعلم ومد يد العون . وسرعان ما أنظم إليهم عدد من المعاونين الصحيين، وبينهم إبراهيم، الذي وقع في هوى خديجة فنشأت عن ذلك قصة تعيسة.

تقاعس الشاب كعربي مهذب عن البوح بغرامه إلى الفتاة. وقد علمت بأمره عن طريق تلميحات غامضة كان يطلقها سالم العجوز، ولكن هذه التلميحات لم تغير من موقف الزمالة الفاتر الذي تبديه لإبراهيم، فلقد كانت رغبتها تتجه وجهة أخرى. أنها تحلم في الزواج من أحد«السادة» أو من أثرياء التجار، وهو ما لم يكنه إبراهيم على أي حال. ويبدو أن الهوى برّح بالفتى إلى حد الجنون، فقد الرجل عقله، وبات يخيل إليه أنه مصاب إصابة حادة بقرحة معدية،ولكن هذا الخيال لا يلبث أن يتحول في اليوم التالي إلى اعتقاده بأنه مصاب في كليتيه. وبات في النهاية هلوعاً من أن يجن جنوناً كاملاً ومطبقاً. ووصلته رسالة من أبيه العجوز ، يتوسل إليه فيها أن يعود إلى بيته حتى يراه مرة أخرى قبل أن يفارق الحياة. ووجد إبراهيم نفسه في ورطة. فواجبة نحو أبيه يدعوه إلى الرحيل، ولكن عشقه لخديجة، يحمله على البقاء عبداً في شيبام. وشرعت الدموع تتفجر في مقلتيه . ولم يعد باستطاعته أن يعمل ،ولذا ظل يلازم غرفته لا يبارحها ، وقد رافقه صديق له كظله، مخافة أن يرتكب عملاً يؤذيه. ولكن خديجة ظلت على برودها منه، فهي لا تقابله إلا بابتسامة فاترة. وأقنعت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إبراهيم بالمضي لرؤية أبيه. وحزم حاجته ثم غادرنا في سيارة شاحنة، ولكني ما لبثت أن وجدته في مطبخنا عند المساء.

وبادرني قائلاً... «لا أستطيع يا طبيبة » . وكان قد نزل من السيارة في القرية التالية. ولم يعد في استطاعته الذهاب إلى البلدة ،إذ أنه بات يخشى لقاء الناس . وظل إبراهيم ردحاً من الزمن في منزلي لا يغادره ، ولم يبرحه إلا معي عندما ستصحبه في رحلة من رحلاتي . وكنت أشغله بالعمل الكثير، فإذا ما حلت الأمسيات أشغلته بالحديث.

وأخذت إبراهيم يعود إلى هدوئه بصورة متدرجة، وبات أكثر ذكاء وادراكاً. وعرف إنه لن يستطيع البقاء في شيبام، فحزم أمره من جديد على الرحيل لرؤية أبيه. ومضى الشاب ولم يعد إلينا هذه المرة.

ومضت خديجة في عملها هادئة موثوقة، وظلت ابتسامتها على ما كانت عليه دائماً من صفاء وهدوء أشبه ما يكون بهدوء أبي الهول. وقدر لهذه الابتسامة أن تسلب لب شاب آخر. أنه إيضاً من مساعدي ويدعى أحمد.

ويبدو أن خديجة كانت تميل إلى هذا الفتى، ولذا فقد شرع طبقاً لعادات البلاد، يتقدم بعروض الزواج إلى أهلها، عن طريق أحد أصدقائه الموثوقين.

ولكن تقدمه في هذا السبيل كان بطيئاً، إذ أن قبيلة خديجة كانت تعيش على مسيرة بضعة أيام من البلدة. ومع ذلك فقد ظل أحمد يواصل توفير المال لينفق منه على مهر الفتاة والزواج منها. وساعده في تحقيق غرضه ما يتمتع به من ذكاء ومن قدرة على الملاحظة وافتقار إلى تبكيت الضمير. فلقد سرق علاجاتنا ذات ليلة من الليالي. ولما كان العيد قد حل، فاني لم أنتبه إلى السرقة فوراً،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتـوافر الوقـت لأحمـد، ليبيـع سـلعته إلى بعـض النـاس والتجـار في الـسلطنة المجاورة. وعندما أكتشف السرقة أخيراً، وجدت على الرغم من شكلي بأحمد، أن من الخير أوجه التهمة إلى جميع موظفي المستشفى.

وقلت أخاطبهم جميعـاً ... « علـيكم أن تـدفعوا قيمـة الـسلع المـسروقة، إلا إذا تمكنتم من اكتشاف من اكتشاف اللص بينكم».

وخيم صمت مطبق على جميع.

وأغلقت المستودع بقفل جديد أخفيت مفتاحه في جيب تنـورتي، ثـم مـضيت في رحلة يومين إلى الريف. وعندما عدت لم أوجه أي سؤال، ولكن أصغر مـساعدي سناً، ما لبث أن أنتحي بي جانباً وقال ...« أن أحمد هو اللص. لقد رآه بعضهم يغادر الحصن حاملاً بعض الصفائح».

وتمكن جميع الفتيات من إقامة الدليل على المكان الـذي كـانوا فيـه عنـد وقـوع السرقة باستثناء أحمد. فوجهت كلامي إليه قائلاً ...« يتجه الشك كله إليك يا أحمد».

وأكتفي بأن يقطب حاجبيه قائلاً ...« أنا لا أعرف شيئاً عنها».

- « أن برهن على براءتك. أني أمهلك عشرة أيام».

وتابعنا أثر أحمد، ووجدنا عدداً من الشهود والأدلة الماديـة الـتي تقـيم الـدليل على اتهامه. ولم يحاول أحمد حتى البرهنة على براءته. وتوقف عـن المجـيء إلى المستشفى، وراح يمضي حياه من البطالة، متظاهراً بالكبرياء الجريحـة. ولم يدر في خلده قط، أنه قد يعتقل. ولكن مفتش الشرطة ما لبث أن أعتقله وأوكلـه إلى دار الحرس، بعد أن قتمت إليه شكوى بالحادث، وأسلمته ما لدي من أدلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان النائب قد ألمح إلي قبل بضعة أيام، بأن علي، أنقاداً لموقفي، أن أسقط الدعوى. وكان أحمد صغير في العمر جداً. ولكن المسروقات كانت تتجاوز الألف من الشلنات. فهل أتجاهل ذالك وأمضي ساكتة؟ أن مثل هذه السكوت قد يكون بمثابة تحريض للآخرين من ذوي النزاعات الشريرة إلى سرقة المستشفى، مما يعرضني إلى الشك في نزاهتي أمام زملائي في المستشفى، كما يفقد العمل كل انضباط أو نظام.

وسلك أحمد سلوكاً طيباً أثناء اعتقاله، حتى أن الجنود سمحوا له نتيجة شدة الحرارة بالنوم على سطح دار الحرس .. واختفى أحمد ذات صباح وأرسلت أشارة الإنذار إلى جميع مراكز الحرس في الطريق إلى عدن. ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى أعتقل على مقربة من حدود اليمن، وأعيد إلى شيبام. وقضت عليها محكمتها بالسجن ثلاث سنوات قضاها في حبس المكلا.

وقضت خديجة التي كان يعتبرها الجميع عروس أحمد المقبلة، وقتاً سيئاً إلى الغاية. ومن حسن الحظ، أن كل إنسان كان مقتنعاً من أنها بريئة كل البراءة من السرقة . ولم تفقد الفتاة ابتسامتها الفاترة الانعزالية. ولكن خديجة لم تكن في الواقع باردة الدم والعاطفة، فعندما اكتشفت الرجل الذي اعتبرته صالحاً لها، جاءت إلي بوجه مشرق تقول: « لما كنا نعتبرك، مذ جئنا إليك من المدرسة، أما لنا ، فأني أسألك السماح لي بالزواج منه».

ولم يكن الرجل ثرياً أو سيداً . وهكذا نطق فؤادها أخيراً متحدياً الأحلام التي كانت تعيشها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن سلمى الضئيلة، تزوجت قبل خديجة بعهد طويل، وكان زوجها شاباً، كانت تلعب معه في طفولتها. وحزنت كل الحزن لمفارقة هاتين البنتين. وتحتم علي الآن أن أشرع من جديد في تدريب فتاتين أخريين. وفي ساعة متأخرة من ذات ليلة، أفرغ الوكيل الهندي لشركة طيران عدن أمام بيتي، شبحين مسربلين بالأسود ومعها بعض ربطات الثياب.

وهتف الهندي بي صارخاً : « لقد جئت إليك يا دكتورة بالفتاتين اللتين تريدينهما ».

وسمعت ضحكات الفتاتين اللتين بدتا فرحتين، بينما كان السائق ينقل إلى البيت ما تملكانه من متاع. وما كاد السائق يغادر المنزل حتى أسفرت الفتاتان عن وجهيهما، ورأيت وجهين مشرقين مبتسمين يوجهان إلي التحية.

وتحولت الإقامة المؤقتة في بيتي إلى إقامة دائمة الآن. فقد حلت الفتاتان في جناح خاص بهما يتألف من غرفة كبيرة ومطبخ وحمّام، وكنت أحب أن أستمع إلى الأصوات المرحة منطلقة من مريم وسعود، وهما تذهبان إلى شرفتهما الصغيرة. ولم تكن الفتاتان مجرد رمز للمرح فحسب بل كانتا أيضاً فرحتين بعملهما الجديد، وقد أتقنتاه بسرعة مدهشة.

وكان ما تتمتع به الفتاتان من استقلال مدهشاً بالنسبة إلى بلاد لا يزال الحجاب يتحكم فيها، ولاسيما وأن هذا الاستقلال لم يكن بادياً في عملهما فحسب بل وفي طرائق تفكيرهما وسلوكهما. وكانتا توجهان إلي جميع ضروب الأسئلة عن علم الحياة والتاريخ الطبيعي للنبات والحيوان. وكنت أجد نفسي مضطرة أحياناً إلى شرح ما هو متأصل لديهم من خرافات . وقد أضفى الدم البدوي على هاتين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفتاتين ما تميزتا به من حيوية، وشجعتها السنوات التي قضتاها في المدرسة. وقد أكسبتا ثقة رائعة بالنفس .

وعندما تزوجت مريم، لم تتخل عن عملها. وقد ولد أبنها حافظ في بيتي. ولم أجتمع قط بامرأة شابة ساحرة كهذه الفتاة البدوية والرشيقة الناعمة . وكانت إذا ما ابتسمت أفتر ثغرها عن أسنان براقة كاللؤلؤ، ولمعت عيناها السود وأن ببريق رائع. ولقد كان مثل هذا الهدوء والجد نادرين في فتاة لا تجاوز السادسة عشر من عمرها.

وكانت مريم الصديقة المثالية لسعود ذات الطبيعة المشرقة والخيالية والحيية. وكانت الواحدة منهما تعتبر الأخرى شقيقة لها، إذ أنهما تنتميان إلى نفس القبيلة وكانتا قد نشأتا معاً منذ بلغتا الرابعة من عمرها في مدرسة البدويات.

وعندما وصلت إلينا مريم وسعود من المكلا، كنا قد بتنا نملك سيارة للمستشفى. وكانت هذه السيارة تخلد إلى الراحة في الليل في باحة الدار، حيث كان زنجبيل يجد مربطة في الأيام الخوالي.

وكنت قد أعدت جوادي الموثوق الوفي منذ سنوات إلى صاحبه السيد أبو بكر، بعد أن ظل ينقلني إلى البلدة كل صباح، وبعد أن كنت أمضي به خبباً في كل مساء عبر السيلة. وظللت بضعة أشهر أنتقل على قدمي. وتسلمت في السنة الرابعة من حياتي هناك، السيارة التي كان المستشفى في أمس الحاجة إليها. وقد دفعت السلطات البريطانية ثمنها بناء على اقتراح من المستشار الصحي .

ولكن كان ثمة شرط واحد، فبعد كل شهرين، كان يتحتم علي أن أعيدها مع الهندي في سيئون،وذلك لان سلطة الكثيري كانت أكثر باع سيارة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لطبيبها. وفي وسع المرء أن يتصور قيام متاعب من جراء هذا الترتيب وعدم توفر السيارة على الرغم من الحاجة .

سيارة « الإسعاف» من حجم شاحنة صغيرة، وهي نصف مكشوفة. وسعها أن تقل أربعة من المرضى على نقالات أو ستة عشر شخاً، على الأرض. وكانت الأرض تغطي عادة وفي الرحلات الطويلة بالأثاث يجلس عليه بعض موظفيّ، بينما يستلقي مريض لتمضي السيارة إلى شيبام.

وأطلقت على سيارة الإسعاف هذه اسم « الفيل الأبيض»، إذ أنها كانت بيضاء اللون وتحمل بأمانة وصدق أية شحنة نحبها. وكنت أميل إلى قيادتها بنفسي إلا في المسافات الرملي الشاسعة، عندما كنت أعهد بهذا العمل الشاق إلى السائق. وكان يقوم بالإضافة إلى قيادة السيارة بجميع أعمال الإصلاح العادية. وكان عرفان أحسن السواقين الذين استخدمتهم، فلقد كان في الخامسة والأربعين وهي السن التي لا يحب الرجل إعلانها، لا سيما وأن عرفان لم يكن مولعاً بالسيارة فحسب، بل وكان ميالاً إلى النساء الجميلات إيضاً. ولم تكن قد مضت عليه في خدمتي مدة طويلة، قبل أن يتزوج للمرة الثامنة. وقال لي مبرراً عمله: ((أن مما يرضي أللّه، أن يلد المرء أكبر عدد من الأولاد. وحتى ألآن ليس لي إلا ولد واحد وبنتان . وكل

ما أرجو، أن تلد لي هذه الزوجة الجديدة أولاداً ليس ألا)).

ودعاني عرفان لحضور حفلة زواجه ثم قال :((و أرجو أن تدخلي أولاً لرؤية العروس)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخيل إلي ، كما هي العادة هنا،إنها ستكون طفلة . ولكنها لم تكن كذلك ، بل كانت امرأة جميلة قوية البنية. ولمع البريق في عينيها عند ما حيتني. ورافقني عرفان جزءاً من الطريق في العودة إلى بيتي بعد أن شهدت حفلة العرس. وما كدنا نبعد عن الناس حتى بادرني قائلاً.. ترى كيف رؤيتها؟

ـ أنك رجل محظوظ يا عرفان. إنها امرأة جميلة وطيبة.

وافترت ملامحه عن ابتسامة واسعة، وانبسطت أساريره وقال .. ((يسعدني إنها لقيت حظوة في عينيك . ولقد سمعت الكثير عنها من زوجة أخي، ولم يكن ما سمعته إلا خيراً. ولكنك تعلمين ولا شك أن العادة هنا جرت على أن لا يرى الرجل زوجه قبل الزواج مطلقاً. وهكذا فقد كنت في خوف شديد من الشكل الذي قد تكون فيه)).

وحققت ((صنب)) بعد عام لعرفان بغيته العظمى فقد ولدت له ولداً جميلاً. وعلى الرغم من أن عرفان قد طلق عدد من الزوجات إلا أنه احتفظ بزوجته الأولى. وكانت تعيش في بلدة ثانية. وكان يقوم بزيارتها ،كلما ذهب إلى تلك البلدة، وكانت زياراته لها لا تنقطع . ولقد كانت هي أولى زوجاته ولكنها لم تكن على أي حال أولى عرائسه.

وتحتم علي أن أقوم ذات يوم بزيارة قرية أخرى. وكان اليوم شديد القيظ. وكنت عزوفة عن شرب الماء في البيت الذي قصدته إذ أنني رأيت كل ما فيه قذراً في منتهى القذارة. وعندما عدت إلى عرفان ، سألته إذا كان يعرف في تلك القرية بيتاً نظيفا حقاً أستطيع أن أشرب فيه قدحاً من الماء وقال عرفان :« أن هذا البيت الكبير القائم هناك ملك لأحد أقاربي فهل لك أن تأتي معي إليه.»

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجلست في ظلال المدخل. وعاد عرفان مستصحباً امرأتين قدمت لي كبراهما جرة من الماء البارد وقال :« هذه جدتي وكانت تواقة للتعرف إليك».

وأدهشني ما قاله، إذ لم تكن المرأة تكبره كثيراً. وعندما عدنا إلى السيارة، ضحك مقهقهاً وقال: « لقد كانت المرأة التي قدمتها إليك على إنها جدتي، عروساً لي ذات يوم».

واشتد عجبي.. فقال:« عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، كانت مقررة عروساً لي. وعاد جدي قبيل العرس بعد غياب طويل في الخارج وسمع بعزمي على الزواج فقال لي: « إذن فأنت راغب في الزواج. إنك مازلت صغير السن يا عرفان. سأبعث بك إلى العالم أولاً، وسأبنى أنا بعروسك. وهكذا ترين كيف غدت عروسي جدة لي».

وينتمي عرفان إلى أسرة محترمة للغاية، وقد تلقى تعليماً طيباً. وقد تعلمت منه الكثير في رحلاتنا الطويلة، سواء في قضايا اللغة والعادات، أو المألوف أو الدين. وقد علمني أساليب الأدب في الحديث، وكان يطرب أشد الطرب، كلما رآني أحسن استعمال هذه الأساليب، وأنطلق فيها. وكان عرفان خبيراً كل الخبرة في شؤون الكياسة والتقاليد، وكثيراً ما نجح في دور الوسيط الممتاز عندما تطلب الأعراف والكياسة استخدام رجل ثالث. وكثيراً ما حللت ضيفه على عدد من البيوت في رحلاتي الطويلة. ولم يكن في استطاعتي أن أقول لمن أحل في ضيافتهم، على الرغم مما أحس به من تعب الرحلة والعمل... « من الصعب عليكم حقاً أن تنتظروا مني الجلوس ساعات طويلة مع كبراء مدينتكم أو مع زوجاتكم. أنني أريد أن أنسحب وأن أتمتع ببعض النوم والراحة ».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن كان في وسعي أن أفصح عن هذه الرغبة لعرفان قبل أن أصل إلى البيت الذي نقصد. وكان في مثل هذه الحالة، لا يتوانى عن إبلاغ صاحب المنزل برغبتي، ويكون هذا بدوره سعيداً بتلبية هذه الرغبة إذ أن كل ما يبغيه هو أن يجعل ضيفه سعيداً قرير العين وكأنه في بيته.

وكان عرفان بالطبع عضوا في أسرة مستشفاي ، وكان يعمل كل ما في وسعه لنشر رسالتنا نصاً وروحاً حيثما ذهب. وكانت له حلقة واسعة من الأصدقاء و المعارف. وكثيراً ما تحتم على أكثر من مريض أن يوجه إليه الشكر، لأنه أتى به إلي لمعالجة.

و جاءني ذات يوم يقول...((لقد سمعت أمس يا طبيبة،عن رجل في غاية المرض،وقد عاد إلى بيته من وادي دوعن حيث كان يعمل في البناء .وهو يشكو من الحمى، ويسعل بشدة. ومن المحتمل أن يكون مصاباً بمرض في رئتيه، فهل ترغبين في رؤيته؟ سيكون في وسعنا ونحن في طريقنا اليوم إلى صيون الوقوف في((غرفة))، وزيارته إذا أحببت.

ووجدت الرجل مصاباً بذات الرئة.وراح أهل ((غرفة)) يحملقون بنا بفضول عندما أمرت بنقله ذلك المساء على نقالة إلى المستشفى. وجاءت والدته العجوز في رفقته. وجاء لهما الجيران بالمساند والبطانيات والحصر وأدوات الطبخ والمصابيح حتى يتوافر لهما كل شيء. وكانوا جميعاً ينظرون إلى المريض نضرة تحمل معاني التفكير. فقد اعتادوا على نقل الموتى فقط على النقالات.ولهذا فقد خيل إليهم أن هذا البنّاء الفقير قد انتهى. وأخذوا يتساءلون... إذن ما الداعي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى نقله إلى شيبام ليموت فيها ؟ سيدفن في هذه الحالة في تربة غير تربة قريته، وهذا يتعارض مع رغبة كل حضرمي .

أولم يعد هذا الرجل من دوعن إلى قريته لأنه أحس بأنه موشك على الموت؟ ولكن الرجل قد تعافى ، وإن كانت فترة الشفاء قد استطالت عدة أسابيع.

وكنت قد أرغب في نقل رجل يحتضر بعيداً عن بيته وأسرته. فليس لهذا العذاب من داع أو مبرر. ولقد كان بعض المرضى يتوسل إلى عرفان لينقله بالسيارة إلى قريته ليموت فيها قرير العين.

في السوط

تحركت طائرتنا متثاقلة في قيظ الظهيرة فوق السوط. وكانت الهضبة البنية اللون القاحلة الجرداء، تمتد بكل ما خلفه الطقس فيها من آثار على مدى النظر تحتنا، وكنا نطير من وادي حضرموت في اتجاه شمالي شرقي نحو ثمود على طرف الربع الخالي، وهو الموقع الذي مدت إليه شركة طيران عدن منذ أسابيع رحلاتها الجوية الأسبوعية بين عدن وحضرموت. وكان في وسعنا أن نرى عند الأفق محيطاً لا نهاية له من الرمل، ووقعت تحت تأثير الانطباع بأن السوط بدأ يغطس في هذا المحيط بصورة متدرجة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخذنا نحوّم في الطائرة على ارتفاع خفيض علنا نرى بعض الآثار في الرمل، إذ أن أرض الهبوط، لا يمكن أن تكون بعيدة عن المكان الذي نطير فوقه. وبات في وسعنا الآن أن نرى آثار السيارات وسرعان ما بانت أمامنا العلامات البيضاء للمدرج وسط وهج الظهيرة. ووقف مؤشر الريح متأرجحاً وغير مرئي تماماً عند الرأس. ولم تكن ثمة أية دلالة على وجود أي حياة، حتى ولا آثار شجرة أو دغل، أو إنسان أو حيوان.

وهبط الطيار بطائرته بكثير من الحذر، على الرغم من أن المدرج صلباً كل الصلابة.

وانتظرنا في ظل جناحي الطائرة، بينما اقتربت منا سحابة من الغبار. ورأيت عدة سيارات تقل عدداً من الأوروبيين الملتحين في ملابس الخاكي وعدداً من العمال العرب ... وقد تقدموا ليفرغوا الصناديق والأقفاص والسلال وأكياس الطعام والمعدات المتنوعة المختلفة واللازمة للجملة الجيولوجية التي كانت مشغولة في أعمال التنقيب عن الزيت بجوار المطار.

ولم تكن ثمود التي تبعد بضعة أميال من المطار من مجرد بئر عادية. ولكنها كانت في الوقت نفسه موقعاً هاماً، إذ لم يكن هناك أي ماء متوافر في المنطقة. وتقع ثمود في منطقة عرب « المناهيل» الذين كانوا مترددين كل التردد في تسليمها إلى الأجنبي. وأراد هؤلاء أن يوضحوا كل الإيضاح بأنه في حالة بقاء البعثة في أراضيهم، فإنهم لا يريدون أن يتجاهلوا في حالة العثور على البترول فيها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم تمض نصف ساعة حتى كنا نطير من جديد فوق الهضبة، وهذه المرة جنوباً باتجاه الساحل. وكانت الطائرة ترقص الآن بشدة لا سيما وقد خف حملها، مما حملني على فقد كل اهتمام بالتطلع إلى المنظر الذي يحيط بنا.

ولم يكن هناك على أي حال الكثير مما يكن للإنسان أن يراه، إذ أن الهضبة الصخرية كانت رتيبة الشكل، فهي تمتد إلى ما لانهاية له من الأراضي البنية القاتمة التي لا اثر للحياة فيها. وكان في وسعي أن أرى هنا وهنالك، خطاً رفيعاً أبيض، من آثار القوافل التي عبرت عليها مئات الأقدام والاخفاف عبر القرون والأجيال. وقد يكون مما يدعوا إلى دهشة أن تكون الحيوانات ويكون الناس قد قاموا بهذه الرحلة على أقدامهم المرة تلو المرة، ولكن مما يبعث على الدهشة بشكل أشد، وبشكل لا يفهم، هو أن يرى المرئ إذا تطلع إلى السوط، البدو يعيشون فيه حقاً.

وغمرني إحساس من الراحة عندما هبطنا آمنين سالمين في مطار ريان، ورأيت نفسي فوق أرض صلبة من جديد.

ووجدت برقية في انتظاري تدعوني إلى المكلا، لأحضر ولادة الطفل الخامس لابنة السلطان. ولما كانت الولادة لن تقع قبل مضي بضعة أسابيع، فقد قضيت هذه المدة على الساحل. ولم يكن في وسعي أن أعود إلى منزلي في شيبام قبل تشرين الثاني« نوفمبر». وكان عرفان قد جاء في غضون ذلك ومضى الرجل يقول ... « ما زالت أمامنا ساعتان للوصول إلى مركز رياض المرعي حيث نستطيع أن نقضي الليل. لكن كل شيء يتوقف على رغبتك»

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأوقف سيارتنا الفيل الأبيض إلى جانب الطريق .ومضى يقول ...ليس ثمة من حجارة هنا.فهل أضع لك فرشتك في هذا المكان ؟

وكان عرفان قد قرر منذ أمد طويل أن نقضي الليل هنا لا في رياض المرعى. وقد وافقه على قراره كل الموافقة.

وكان الطقس في منتهي البرودة هنا على الشول. ولففت نفسي ببطانياتي وجلست إلى جانب النيران التي كان الآخرون قد أوقدوها. ورأيتهم يعدو الشاي. ومضيت بعد ذلك إلى النوم، مستخدمة كل ما توافر لدي من بطانيات وبسط، وسرعان ما شعرت بالدفء والراحة على الرغم من الريح البارد القارسة.

واستيقظت في الرابعة والنصف صباحاً. ورأيت الهلال في كبد السماء البراقة الملأى بالنجوم، بينما ظهرت خمرة الشفق الوردي في الأفق الشرقي وكنت قد أحسست بالراحة في دفء بطانياتي. وأخذت الخيوط الحمراء تتضمر شيئاً فشيئاً وتختلط بخيط من اللون الأصفر الشاحب والأخضر الفيروزي.

وشرع الضوء يتسلل إلى سماء الليل، بينما بدت النجوم في الأصفرار وكان. في وسعي أن أرى بوضوح الساحل والبحر في المدى البعيد المزرق زرقة الفولاذ تحت الأفق. وسرعان ما أنتشر فجأة سحب صغيرة، لونها قرمزي شاحب ما لبث أن تحول إلى البياض وحمرة الذهب. وبدأ النور يقوي ويشتد وسط الأفق الشرقي، وتحول اللون الأحمر الزهري إلى اللون القرمزي، أشتد بريق الذهب متحولاً إلى البياض الذي تولده شدة الحرارة. وأنطلق شعاع تعشي منه الأبصار من قبة الشمس الذهبية وهي تشرق من الأفق محولة السماء إلى البياض الذي تولده الحرارة، ومغطياً الأفق البعيد بوهج الضوء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وغدت الشمس كتلة مشعة من الضوء الناري الذي تعشي منه العيون ورأيت لزاماً علي أن أحول ناظري عن هذا الضوء وأن أنعم بما يتركه من انعكاسات على الأرض.

وارتقيت المنحدر المليء بالحصى إلى أن وصلت إلى ربوة صغيرة تقوم بين واديين حيث رأيت منظراً رائعاً يمثل طلوع النهار على القمم الزرقاء، بينما أمتد خلفي إلى الشرق درب أبيض وذهبي يمتد عبر البحر الرصاصي.

ورحت أهتف بعرفان أوقظه من نومه، واجتمعنا كافه حول النار. وكان الطقس لا يزال بارداً، وقد ترك الشاي الساخن أثره فينا. وبينما كان عرفان يساعد السائق الثاني في إصلاح سيارته، مضيت قدماً على الطريق أستنشق نسيم الصباح العليل على ارتفاع (٣٧٠٠) قدم وشعرات بالميل إلى القيام ببعض التمرينات الرياضية، وسرعان ما غدوت بعيدة عن مرأى ومسمع الآخرين وحيدة في عزلة الشول الرائعة. وكانت الرياح تعزف إلحانها في أذني.

وكانت حرارة الشمس قد بدأت عندما لحقت بي السيارة ورحنا نواصل سيرنا، في طريق سيئة قاسية. ولم تحل الظهيرة حتى كانت العجلة الخلفية اليسرى قد انفجرت. وبدأ عرفان وأخوه في تبديلها تحت وطأة الشمس المحرقة.

وساءت الطريق أيضاً في الساعات المتأخرة من بعد الظهيرة. ولم يعد في وسعنا أن نفعل شيئاً سوى أنة ندب بها ببطء وتثاقل. وعندما حل الغسق، رأينا غزالين يمران أمامنا بسرعة هائلة. ولم تحل الساعة العاشرة حتى كانت الطريق الوعرة قد أحالت العجلة الخلفية الأخرى إلى هريس أو مسحوق. ولم تكن لدينا عجلة أضافية أخرى، كما لم يكن في حوزتنا ما نصح به العجلة المنفجرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجديدة. ترى ماذا نفعل؟ ورحنا نشعل النار لنعد قدحاً آخر من الشاي ولنستعمل جمراتها في أيقاد نرجيلة عرفان.

وما لبث عرفان أن غادرنا مع أخيه إلى القرية المجاورة. وظل معي صبي راح ينام في السيارة بينما وضعت فرشتي على الأرض إلى جانب الطريق وجاءني شاب يركب دراجة مع طلوع الفجر يلبس بيجامة زاهية الخطوط، وقد حمل إلي بعض الكعك والتحيات من عرفان. وقد أبلغني إن عرفان وأخاه قد وجدا المواد اللازمة لإصلاح العجلة المنفجرة. وعاد الأخوان بالفعل بعد قليل وشرعا في عمليات الإصلاح المطلوبة. ولحقت بالشاب صاحب« المنامة»، في ظل ربوة عمودية. وتبنيت أنه العمل ميكانيكياً كهربائياً في الظهران الواقعة على خليج العرب العرب، وأنه كان في أجازة يقضيها مع أهل. جاء بمنامته الجميلة هذه من هناك.

وبتنا على استعداد لمواصلة الرحيل وقت الظهيرة، وحملنا معنا الشاب ذا الدراجة. ولم تمض نصف ساعة، حتى سمعنا انفجاراً عنيفاً، فقد عادت العجلة إلى التفجرّ. وتحتم علينا أن نعيد إصلاح الأنبوبة المطاطية الثانية. وحمل الشاب دراجته من السيارة واستقلها وهو يبتسم ويتوجه إلينا بالدعاء والبركات. وتمكنا أخيرا من الوصول إلى شيبام، بعد أن خففنا من حمولة سيارتنا بالتخلص من عدد من براميل شربة الملح الإنكليزي.

وصرت إذا ما مضيت إلى رحلة مماثلة بالسيارة إلى الشول، حملت معي فيها مساعدي وكميات من العلاجات لمدواة البدو. ولم يكن هؤلاء دائماً من طراز المرضى المريحين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقطعنا الشول في أحدى رحلاتنا على الطريق الغربية، ظهيرة أحد الأيام ووصلنا« بين الجبال» وهي خربة صغيرة لا تعدو بيوتها الأثني عشر بيتاً، وكلها أكواخ متواضعة من الحجر غير المصقول، تؤلف في الواقع محطة استراحة، أو مستودعاً للفحم. وعلى بعد بضعة أميال من الخربة يقوم النقب الذي يعيش فيه البدو والذين يصنعون فيه الفحم من الأشجار والأجمات يبيعونه على الطريق المؤدية إلى المكلا. وتمر عدة سيارات شحن على هذه الطريق، لتنقل هذا الفحم الذي يعتبره البدو عملاً نافعاً، ولتوفر عليهم مشقة نقله إلى الساحل. وكان هؤلاء رجالاً أقوياء البنية، صحاح الأجسام، يصبغونها بالنيلج ويتميزون بالصلابة وخفة الدم. وتقدم مني أحدهم ذات يوم وقال: « أرجو أن تأتي لترى أخي.» وقادني بين أكواخ الخربة، وهو يظلع في مشيته أمامي ثم قال: « لقد كسرت ساقي قبل بضع سنوات. وظلت طريح الفراش عدة أسابيع في كوخي ولكني ما لبثت أن شفيت وصرت قادراً على المشي دون أن أحس بأي ألم. وقد قصرت ساقي منذ ذلك الحين، ولكن هذا لا يهمني». ويبدو أنه لم يكن ليهتم بظلوعه في المشي، إذ أنه كان لا يزال سريعاً خفيف الحركة.

ورأيت أخاه يجلس في ظلال الكوخ الأخير. وكان الشاب صورة مصورة للصحة والقوة، ولكن يده اليمنى شديدة التورم، فلم يكن في مكنه الصديد أن يعثر على منفذ في بشرته الكثيفة الصلبة ولذا شق طريقه عبر الأوتار الداخلية إلى الرسغ. وقلت للشاب ... وهو يهز رأسه ذا الضفائر السوداء ... « سأحدث شقاً في التورم وأفسح الطريق أمام الصديد» فرد قائلاً : أرجوا أن تعطيني الإم . بي (M.B) وكان يعني الأقراص الإم. بي. المشهورة التي أنتجتها مؤسسة مي وبيكر، من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلفانوميد، والتي عرفها البدو منذ سنوات عدة، إذ أنهم عولجوا بها في المكلا، أو إبتاعوها من تجار السوق كترياق ضد كافة الأدوار.

فلقد كان البدو في السوط أن يعالجوا أنفسهم بأنفسهم. ولكنهم كثير الحذر والشكوك، وهم يرفضون أن يتناولوا ما يقدم لهم لأول مرة. لكن الشهرة العالمية التي حققها السلفانوميد، قد أقنعت هذه الفئة الغربية من البشر. وهكذا كانت للسلفانوميد مكانة كبيرة عند هذا الشباب.

وعدا يكرر قائلاً، عندما قلت له أن هذه الأقراص وحدها لن تجديه ... « أعطني أقراص الإم . بي».

وقلت له ... « إذا رفضت أن تسمح لي بأحداث الشق في التورم، فأنني سأعطيك بالإضافة إلى هذه الأقراص، أبرة. تضم علاجاً أكثر قوة. وكنت أعني البنسلين بالطبع.

ورد قائلاً ... « أريد . الإم . بي»

وقال أخوه الأعرج . « أجل الإم . بي».

وردد جميع من حولنا النساء والأطفال ... « نعم الإم. بي».

وكان عبدالله وعرفان قد وصلا في غضون ذلك بالسيارة، باحثين عني، وقدم إلي عبدالله حقيبتي.

وعندما تناولت منها علبة السلفانوميد، ولم أعثر فيها إلا على عدد من الأقراص لا يعدو نصف ما يحتاج إليه يده المريضة.

وأخذت أهز الأقراص أمام عيني الشاب البدوي وقلت ... « في وسعك أن تأخذ كل ما لدي من أقراص الإم . بي. ولكنها لن تكون كافية. إنك معرض لخطر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسمم الدم إذا سرى الصديد في ذراعك، ووصل إلى مجاري الدم. أرجوا أن تسمح لي بأحداث ثقب في يدك، أو بإعطائك أبرة من علاج أقوى».

ولكن البدوي واصل هز رأسه وتكرار القول بأنه يريد الإم . بي وراح أخوه والنساء والأطفال يواصلون ترداد هذه اللازمة. أم . بي.

وفقدت أعصابي من جراء وضع يد المريض وهذا الإصرار في رفض السماح لي بعلاجها ... فقلت « حسناً إنها يدك، وليست يدي». ولكنني ما لبثت أن رحت اكرر التأكيد له بخطر تسمم الدم. ولكن هذا الحشد من الناس لم يسمح لي حتى بإكمال كلامي، وقاطعوني بإنشاد اللازمة: « ام. بي .ام. بي» مع نظرة هازئة تبدو في عيونهم على ما أبديه من سخط.

وقلت وأنا لا ادري هل اغضب أو اضحك... «ام . بي» حسناً. ثم رحت اقذف أمامهم بكل ما في العلبة من أقراص محدثة ضجة من جراء اصطدام العلبة بالأرض.

ووقف عبدالله هنا جزعاً، لا يكاد ينبس ببنت شفه. أما عرفان ففتح باب السيارة ووقف إلى جانبه وقد أدرا محركها. إنه الخوف المتأصل في نفوس أبناء المدن من القابلية الإستفزازية عند البدو، التي كثير ما تدفعه إلى الإسراع كالبرق في إنتضاء مداهم، أو إلى عدم التردد في إطلاق النار.

لكن هؤلاء البدو تفهموا نواياي كل التفهم... وقلت لهم ... « هذا هو ما تريدونه». ورحت أصافحهم بعد ذلك وأنا أبتسم. وعند عودتنا في نفس الطريق بعد بضعة أيام،جلسنا معهم إلى العشاء في كوخ يملأه الدخان، بينما كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرياح تقصف في الخارج، وكأنها سيف يقطع الأوصال. آه، ليس في مكنة المرء إلا أن يحب هؤلاء البدو. إنهم لعلى خلق عظيم.

وقد أبلغني عرفان ونحن في طريق العودة، أن بدو« بين الجبال» قد اشتركوا في ثورة عام ١٩٥٥م .

وأدت عمليات التهدئة التي قامت بها السلطات البريطانية في حضرموت إلى عقد عدد من المعاهدات مع البدو، تضمن لهم دخلاً كافياً من قوافل إبلهم. وقد تقرر شحن كميات معينة من مختلف السلع من الساحل إلى حضرموت بواسطة هذه القوافل، وذلك لأن البدو كانوا يرون في هذه الزيادة المتواصلة في عدد سيارات الشحن شوكة تقض عليهم مضاجعهم. وكانت قبائلهم تثور واحد إثر أخرى من جراء تضرر تجارتهم. وكانت في وسعهم أن يقطعوا بسهولة الطرق المؤدية من الساحل إلى حضرموت والتي تعبر المضايق الضيقة والممرات الوعرة . ويكون قطع هذه الطرق بإغلاقها بالصخور من التلال، وإطلاق النار على السيارات بعد اضطرارها إلى التوقف من كمائن ينصبونها. وكان من الصعب على السلطات ومضيعة لوقتها، وإرسال القوات العسكرية لمهاجمتهم إذ أن السوط بالغ الاتساع. ويضم عدداً كبيراً من المخابئ.

وتمكن البدو في صيف عام ١٩٥٥من إغلاق الطريق الغربية والصمود فيها ضد القوات التي أوفدها السلطان من الساحل والوادي. وقيل للبدو إن قاذفة قنابل من السلاح الجوي البريطاني ستقوم في ساعة معينة وفي يوم محدد بقذف القنابل على معاقلهم، إلا إذا وافقوا على التفاوض قبل هذه الموعد. وكان الإستسلام دون قتال، يعتبر في عيون هؤلاء المحاربين وصمة عار لا تمتحي. ولكن هل في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إستطاعة طاقاتهم الحربية أن تقاتل الطائرات وقنابلها لكن من الواجب، أن تلقى بضعة قنابل قبل أن يقوم شيوخ القبائل، بإعلان استعدادهم للتفاوض وذلك حرصاً على كرامتهم.

وأمكن الوصول إلى إتفاق جديد مرض بين حكومة القعيطي والبدو، وأصبح في الإمكان استخدام الطريق دون التعرض إلى أي خطر. وكان عرفان قد خبر كل هذه الأوضاع عن كثب، وكان عليه أن يكون على إستعداد بسيارة الإسعاف لنقل المصابين. ولكن من حسن الحظ أن أربعة فقط من جنود القعيطي قد أصيبوا بجراح، ولم يقتل أي منهم.

وعثر على آثار دماء في معقل البدو، مما يشير إلى أن عدداً منهم قد أصيب بجراح. ولكنهم، جرياً على أعرافهم القديمة، حملوا معهم جرحاهم وقتلاهم إذ كان ثمة من قتلى.

وظل البدو كما كانوا من قبل، سادة السوط، الذي لا ينازعهم فيه منازع إذ أن ما يتميز به من جدب، لا يستفز أحداً على تشهيه والطمع فيه.

وكان كل ما صبوا إليه سكان الوديان، أن يكونوا في أمان من الغزو، سوى في أماكنهم، أو في الطرق التي يستخدمونها للوصول إلى الساحل.

وكان البدو الذين يقيمون وراء وادي حضرموت حيث يلتقي السوط بالصحراء، أشد شراسة وضراوة. وقد أقيمت الحصون لهذه الغاية في هذه المنطقة لصد الغزو، ولإقامة نوع من الاتصال الدائم مع القبائل، تتعرف السلطات عن طريقه على رغباتها وحاجاتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقمت بعدة جولات في السوط، قبل أن أتمكن من إعداد العدة بسيارتي« الفيل الأبيض» لزيارة « ريضات الجهين»، وهو المكان التي تنتمي إليه مريم وسعود. وقد أخذت الأخيرة معي هذه المرة وذلك لآن مريم كانت قد وضعت قبل قليل طفلها حافظ، ولم يكن في وسعها أن تجئ معنا.

وكنا في شهر تشرين الأول (أكتوبر). وكان المطر الشديد الذي هبط في فصل الصيف والذي أجتمع في حفر السوط وأخاديده، وقد مكن البدو من نشر بذور الحنطة التي اخضرت فروعها الآن. وكانت لأشجار الألب أوراق أكبر من المعتاد، وقد نمى تحتها حشد من الأوراق الفرعية التي أخذ الماعز في رعيها.

وكانت الفتيات الصغيرات اللائي يعنين بالماعز، يرتدين ملابس وشالات صبغها النيلج بالزرقة، وقد غطين وجوههن بحجب سوداء كثيفة وحملن قدور سوادء معتمة على رؤوسهن يستخدمنها جراراً للحليب.

وكانت الفتيات كثيرات الحياء والخفر، ولذ فهن يبقين عنا عندما كنا نجلس تحت شجر الألب على مقربة من بركة ماء. وكان الماء صافياً شفافاً بحيث يستطيع المرء أن يرى قاع البركة. وتطوف الماعز حول الماء تشرب منه. وأمسك إسماعيل بإحداها بمهارة وحلبها واحتسى قدحاً منه في جرعة واحدة. ولم تغضب الفتيات لما فعله إسماعيل، إذ أن من حق الضيوف أن يحصلوا على ما يشاءون.

ويملك أهل« ريضات الجهين» الحقول الواقعة في هذا الخندق. وشققنا طريقنا عبر أرض لا طرق فيها تملؤها الحصى والرمال سائرين بحذاء الحقول إلى أن وصلنا إلى القاع، حيث توقفنا إلى جوار بيت المقدم وهو شيخ القبيلة، المدعو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محمد سعيد الجوهي. وكان الرجل في انتظارنا. ولم تمض طرفة عين حتى كان عدد من البسط البدوية السوداء ينتشر في ظل بيته، حيث استضافنا مرحباً بنا وقدم إلينا أقداحاً من الشاي. وكان الماء الوحيد في هذا المكان، هو ما يجمع من مياه الأمطار في البرك الطبيعية. ويتحتم على البدو أن يكونوا جد مقتصدين في استخدامه،حتى يظل متوافراً لهم حتى نزول الأمطار في الشتاء التالي.

وكانت بيوت القاع من الحجر غير المصقول ومعظمها مؤلف من طبقة واحدة ولا شرفات فيها. وكان المكان يطل على حافة التجويف الطبيعي بحيث يمكن تخصيص المنطقة كلها لزراعة النباتات.

ورحت عند الغسق أخرج جائلة من الخربة مارة بحواجز الأشواك المقاومة لحماية الماعز في الليل، ومررت بطريق للإبل تسير فوق السوط .

وسرعان ما غابت الحقول عن ناظري ولم يعد في مكنتي أن أرى خطوط البيوت الصغيرة التي ربضت على مقربة من الأرض. واخذ عدد الكواكب الظاهرة في السماء يزداد شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبحت السماء كلها، وكأنها كتلة من اللهب، إذ لم يكن هناك ألق يسربل الأفق فوق الهضبة المنبسطة بسحابة قاتمة. وكان مما يستهوي المرء أن يتابع هذه الطريق، عبر هذا المنبسط الفسيح في هدأة الليل. ولم ألبث أن سمعت بعض الأصوات ورأيت بعض المصابيح. أنهم يبحون عني، فقد خشوا أن أكون قد ظللت الطريق من جراء الظلام. وهتفت لهم، وقادني أفراد قبيلة جوهي البدوية من السوط المظلم الجليل الهيئة إلى حلقتهم الصغيرة الآمنة المطمئنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت سعود قد مضت لتوها لرؤية أمها وأخوتها الصغار وأخوتها اللائي لم يعدن يعرفنها، إذ أنهم لم يرينها منذ أن تركتهن إلى مدرسة البدو في المكلا وهي في الرابعة من عمرها. وكانت هذه هي المرة الأولى التي عادت فيها إلى أهلها. ويبدو أنها ما لبثت أن أحست بالهدوء والطمأنينة إثر دخولها البيت، وشعرت وكأنها لم تفترق عن أمها ابداً. ولم يكن هناك أي أرتباك أو تدفق عاطفي من جراء هذا اللقاء، أو عند عودتها إلى فراق أهلها. ولقد شعرت دائماً أن هؤلاء البدو واقعيون ويعيشون في حاضرهم، وأنهم قادرون على التمتع باللحظة التي يحيونها حتى النهاية.

وسألت المقدم في تلك الليلة، ما إذا كان سيسمح لبنات أخريات من قبيلته بالالتحاق بالمدرسة .

ورد محمد سعيد قائلاً :« لقد كانت ثمة مجاعة عندما غادرتنا سعود و مريم إلى المكلا. وقد سرنا آنذاك أن نبعث بطفلاتنا إلى تلك المدرسة. أما الآن فليس ثمة مجاعة وفي وسعنا إطعام أطفالنا. فعلى الفتيات أن يعين بماشيتنا وأغنامنا وأن يتزوجنا بعد ذلك رجالاً من القبيلة. أما إذا ذهبن إلى المدرسة، فأن القبيلة تكون قد خسرتهن نهائياً». ولقد كان المقدم على حق إلى حد ما. فلقد تزوجت أربع من فتياتي البدويات رجالاً من أهل المدن لا من قبائلهن. واعترفت سعود أيضاً التي رأت الآن بيتها ثانية أنها لن تهتم بالعودة إلى مثل هذه الأوضاع حتى ولو تزوجت. وعلى الرغم من أن البنات البدويات كن يعلمن في المدرسة احترام عادات البدو وتقاليدهم إلى أقصى حد ممكن فإن من المعتذر تجاهل الحقيقة الواقعة وهي أنهن بتعليمهن يحصلن على وجهة نظر مختلفة في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحياة، ويطلبن من الحياة أكثر مما كانت تطلبه بخيته،التي لم تكن لتقبل أن تستبدل بحريتها مع ماعزها أي شي في العالم.

ولم تكن عودة البدوي الذي غادر قبيلته طفلاً إلى المدرسة، والذي عمل سنوات عدة في اللواء البدوي، على أرضه القاحلة تؤلف أي مشكلة. فلقد كان في وسعه أن يروح ويجيء كما يشاء ويهوى، وكانت الطلبات التي يريدها من زوجته المقبلة هي عين ما كان يريده والده من قبل، فمن الواجب أن تكون فتية وسليمة البنية، وأن تكون أماً لأطفاله وقادرة على إدارة منزله.

وجاء بعض القرويين من أهل القاع في الصباح التالي، إلى المقدم وابلغوه رغبتهم في أن أتولى علاجهم. ولم يكن عددهم كبيراً، وكانت شكواهم من طراز ثانوي جداً. ويبدو أن البدو قوماً أصحاء للغاية. ولعل خير دليل على ذلك أسنانهم البيضاء القوية الرائعة،التي لا يمكن أن تظهر عند أبناء المدن. وكانوا يأكلون كميات كبيرة من الذرة ويشربون حليب الإبل. والطقس عندهم ليس بالحار إلى درجة تتلفهم كما أن حمى البرداء (الملاريا) نادرة الانتشار بينهم. ويبدو أن الرمد الحبيبي كان أقل إنتشاراً في هذه الأجزاء.

ولم يسمح لنا بمغادرة القاع قبل أن نلبي الدعوة لحضور الوليمة التي أقامتها ام سعود على شرفنا. وقد ذبحت رأساً من الماعز، وأشتر الجيران مع سعود وأمها في طهيه.

وسيطر الفرح على سعود وأمها عندما تولتا حمل أطباق الأكل الساخن والخبز الطازج. وهكذا شرعنا في رحلة العودة بعد أن امتلأت بطوننا وبعد أن عادت سعود فودعت أمها وأسرتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقابلنا عند الغروب صبياً بدوياً يتولى رعاية ماعزه. وبعد طويل مساومة اشترينا منه جدياً صغيراً أقام إسماعيل بذبحه بيد واثقة. وقد أعد الطعام على الطريق البدوية، بعد دلكه بالملح وشيّه على الأحجار، التي كانت قد غدت بيضاء من شدة الحرارة الناتجة عن جمرات نار شديدة.

وقال عرفان بينما كنا جلوساً إلى قد من الأرز على ضوء النار المشتعلة، وبينما كان إسماعيل يقوم بتوزيع الطعام ... « إننا نعهد في بيوتنا إلى النساء بالطهي، ولكننا أثناء الرحلات، نقوم نحن الرجال بهذا العمل».

وقضينا ليلة أخرى في العراء، في خندق مغلق على مقربة من الطريق.

ولم نشعر بخطر التعرض لأية حيوانات شرسة، سواء أكنا في السوط أو في الوادي، ولكننا كنا معرضين لخطر الحشرات. ورأيت بعض القردة الصغيرة ذات مرة في وادي العدم. وقد يتسلل ثعلب أبيض أثناء الليل فيمر عبر الطريق أو قد نلمح عيني الضبع الخضراوين وهما تتقدان في جنح الظلام.

وعندما يخيم جنح الظلام تمر الأرانب متعرجة في الحقول. وتقوم رفوف من الحمام بإلتقاط الحبوب الناضجة وتزحف الساحلي بسرعة فوق الصخور الضخمة العارية. وكثيراً ما رأينا أيضاً الضباء والوعول.

وتقوم مجموعات من الرجال مرة في العام في نهاية شهر شباط (فبراير) وبداية شهر آذار (مارس) بالانتقال من قرى الوادي إلى السوط لمطاردة الوعول. وقد لا يكون مع المجوعة الواحدة أكثر من بندقية واحدة، ولهذا فقد لا يربوا عدد ما تصيده من الحيوانات على ثلاثة أو أربع. وعندما يعود هؤلاء إلى قراهم، تعلن الأبواق عن عودتهم. ورأيت ذات مرة مجموعة منهم وهي تدخل البلدة. وكان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

احدهم يخطو في المقدمة وهو يحمل رأس الوعل بقرنيه المنحنيين الرائعين. وقام اثنان من الصيادين بقرع الطبول، بينما تولي ثالث العزف على الناي، وإنبراء الباقون يرقصون في حلقة واحدة حول مربع كبير. وكانوا يتقدمون ببطئ ثم سرعان ما يغذون خطوهم ورقصهم، ويأخذون بعد ذلك في الدوران وهم يحملون خناجرهم أو عصياً فوق رؤوسهم. ووقف حشد من الناس على أطراف المربع،ومعظمهم من النساء البدويات المحجبات بالسواد، وأمامهن جمع كبير من الفتيات الصغيرات. اللائي يرتدين أزهى الملابس.

ووزع لحم الوعل في الليل على جميع الفقراء، ولا أعلم من الذي حصل على قرني الوعل. ولكن التقاليد القديمة كانت تنص على تعليق القرنين في زاوية من السقف، إذ أن معظم البيوت كانت تعرض قرنين من قرون الوعل كزينة وزخرف لها.

ويقال أن الوعل في أيام بلقيس ملكة سبأ، رمزاً لإلهة القمر.

وعثرت البعثة الأمريكية للتنقيب عن الآثار في مدينة مأرب وهي عاصمة سبأ أبان حفريات على العاصمة القديمة، وقد نحتت رؤوس الوعول على معبد آلهة القمر فيها.

ويعتقد الدكتور البرت جيمس، وهو من رجال البعثة أن هذا الاكتشاف كان ذا أهمية دينية خاصة لأهل سبأ، إذ أن قرون الوعل كانت تنحت على شكل هلال دائماً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستشفاي

عندما كنت متجهة من السهيل إلى المدينة حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر رأيت باتجاه مستشفاي سحابة كثيفة من الغبار.وهكذا فقد عثروا على عدد من المتطوعين لهدم ما تبقى من الخرائب القديمة التي كان لا بد وان تخلي موضعها للبناية الجديدة .

وكان النائب قد أوفد رسوله في ذلك الصباح إلى البلدة ليطلب عدداً من المتطوعين للقيام بتنظيف الحطام ،إذ أن ميزانيتنا للبناء ،ما كانت لتكفي لتحمل نفقات مثل هذا العمل ،وعندما اقتربت من المتطوعين سمعت ضحكات عالية وأصوات أناس يغنون. وكان الواحد منهم يهتف بمرح للآخر. حقاً لقد كان معرضاً رائعاً. وكان معلم البناء ومساعدة، يحطمون بقايا البناء القديم مبعثرينها في كل ناحية من النواحي.

وقد تشكلت سلاسل عدة من الناس، امتدت حتى أسوار المدينة. وكانت أكوام الطين القديم تنتقل من يد إلى يد، والجميع يغنون وينشدون، إلى أن تصل إلى الرجل الأخير في السلسة الذي يقوم بقذفها من فوق السور. وهكذا أنتشر سطح أضافي في الممر الواقع تحت السور. ولم تقتصر جماعات المتطوعين على أصحاب الحرف والتجار في السوق، وإنما تعدتهم إلى المعلمين والكتبة ومدير وعامل البرق، وأبنا الأغنياء من التجار. ورأيت حسين العجم بين المتطوعين كما كان النائب بينهم أيضاً. وبالطبع لم يتقاعس أفراد أسرة مستشفانا عن العمل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخذت موضعي في الصف مما بعث الرضا والسرور في قلب كل إنسان، وسرعان ما كانت كلمة الطبيبة الأغنية التي تترد على ألسنتهم جميعاً.

ولم يحل المساء حتى كانت أرض الباحة الأمامية من مستشفانا قد سويت تماماً، وأخليت من كل حطام.

وتم بناء الأبنية الستة ذات الطبقة الواحدة ولكننا نفتقر في الداخل إلى المناضد والخزائن والمكاتب والمقاعد. وقد أعداد هذه كلها من اللبن وخشب الصناديق والكلس. وكان من السهل الحصول على هذه المواد الرخيصة والمحافظة عليها. كما لم يكن ثمة ما هو أنظف ولا أسهل من الإبقاء على نظافة هذه المعدات لا سيما وقد غطيت بالاسمنت المصنوع من الكلس.

وكان قرير أن المعلم البناء، يملك مقياساً حديثاً، وأداة للتسوية، ولكن امتلاكه هذا لم يحل بينه وبين أجراء قياساته على الطريق القديمة أي بالأشبار والأصابع. يضاف إلى هذا، أن الرجل لم يكن يحمل أية فكرة عن طريقة التثبيت الجديدة، وكان من الخير إنني كنت دائماً على مقربة منه من أرقب عمله.

وتمكنا أخيراً من الانتقال من حصننا القديم إلى المستشفى الجديد.وكان هذا اليوم من ابرز الأيام . وباتت لعبدالله الآن صيدليته الخاصة في غرفة ملأى بالخزائن والرفوف بدلاً من منضدته الرجراجة ذات الأرجل العالية.

وانتقل عوض مع ملفاته المائة والخمسين التي كان يتحتم علينا أن نحتفظ بها للدولة إلى مكتبه،ورتّب العلاجات والمعدات الأخرى على رفوف عالية في مستودعه الجديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنتقلت فتاتاي البدويتان من معزلهما الحقير وراء الخزائن في الحصن القديم إلى قاعة مضيئة واسعة، تتسع لجميع المريضات الوافدات لطلب العلاج حيث يجلسن معزولات عن الرجال. وفتح باب خاص يصل بين هذه القاعة وبين قاعة الانتظار. وتوافر للرجال أيضاً متسع مماثل في الطرف الثاني من البناء، حيث أقام مساعدي إسماعيل الآن مملكته.

ويقوم المختبر بين جناحي الرجال والنساء. وحمل صلاح، أبن سالم عبد العجوز، وكان قد جاء إلينا طالباً يتعلم، مجهري بعناية إلى منضدة العمل الجديدة القريبة من النافذة.

وعلق صلاح بن سالم الذي قدر له في المستقبل أن يعمل مساعداً في المختبر على الحائط، خرائطنا التشريحية الكبيرة التي يظهر فيها الهيكل البشري والأعضاء والعضلات والممرات الدموية والجهاز العصبي. وصلتنا صورة كبيرة كبر الإنسان لنستعين بها في تدريب مساعدينا. وتوافرت لدينا بالإضافة إلى ذلك خرائط واضحة تشرح سير انتقال العدوى بالملاريا من البعوض إلى الإنسان وانتقال البلهارزيا وهو مرض طفيلي ينتقل إلى الإنسان عن طريق الحلزونيات.

وحصلنا على صورة التقطت تحت المجهر ثم كبّرت خمسمائة ضعف تمثل ميكروبات الإسهال الأميبي فعلقناها على الحائط على مقربة من مكتبي.

وأعد صلاح في خزانة معينة، مجموعتنا الصغيرة من النماذج والعيّنات والتحضيرات، وبينهما عقرب صغير أسود ولكنه شديد السم، وثعبان رمادي اللون سام للغاية أيضاً، ومجموعة من الحيّات. وامتلأت الرفوف بالأقداح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأقماع وأنابيب القياس والأكواب والزجاجات التي تضم مختلف أنواع المواد الكيماوية. ولم يعد مختبرنا مجرد حلم فارغ بل حقيقة واقعة.

وهكذا نشأت في هاتين العيادتين الخارجيتين نواة أعمالنا اليومية، أو في كلمة ثانية قلب مستشفانا.

وكثيراً ما كنا نجتمع في المختبر، لا لنفحص الخرائط ونتدارس الشروح والصور المجهرية فحسب بل ولبحث مشاكلنا العائلية المتعلقة بالمستشفى. وبلغ عدد أفراد أسرتنا الآن ثلاثة عشر شخصاً، من طبيبة ومساعدين ومساعدات وكتبة وخدم وسائق سيارة.

وكان الجميع على أهبة للعمل لحظة إذا استدعت الضرورة. وكنت أعتبر هذا امراً مسلماً به، وكانوا هم بدورهم يفهمون ذلك تمام الفهم. وكنت أمنحهم مكافأة لهم على جهودهم عطلة في أيام الأعياد ومختلف المناسبات، وأحملهم بالسيارة إلى مواسم الزيارات الدينية والأسواق السنوية ورقصات العيد القريب منها والبعيد .

وكنت أيضاً أبحث في متاعبي المهنية مع مساعدي. وكثيراً مات اشعر بشيء من الراحة عندما أجد من أتحدث إليه في هذه المواضيع، لاسيما وأن مثل هذه الأحاديث كانت توثق العلاقات الإنسانية بيننا. وكنت قد أتقنت العربية وأخذت أتحدث بها إليهم دون حاجة إلى ترجمان. وكان هذا أمراً هاماً بالنسبة إلى علاقاتنا المشتركة.

وأصبحت غرفة العمليات مركزاً هاماً آخر في المستشفى. وكنت قد أضيفت عليها الكثير من الاهتمام أثناء عملية البناء، إذ أن نقص التجهيزات في الحصن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القديم، كان يسبب لي الكثير من المتاعب. وقد قمت هناك بآخر عملياتي بين الأقفاص والأربطة وصندوق الثلج ومكتب كاتبي عوض. وكان هذا يرقبني وهو بين ملفاته ودفاتره باهتمام زائد. وكانت الملفات ملقاة هنا وهناك، فتتسلل الجرذان إليها عبر مختلف الأبواب. وكثيراً ما اضطر إسماعيل لربط رأس امرأة قمنا بخياطة الجلد في رأسها لتغطية الجرح التي أصيبت به، إلى ارتقاء المنضدة ليسند رأس المريضة إلى ركبتيه بينما نتولى ربط رأسها.

يا لها من مفارقة عجيبة بين تلك الحالة، وبين الحالة في غرفة عملياتي الجديدة! إنها غرفة تملأها النوافذ الواسعة ذات الدرفات الزجاجية والشباك التي تمنع الذباب والهوام، وقد فرشت أرضها بالإسمنت وجدرانها بالكلس المعقم، وطليت أعاليها باللون الأخضر لإنقاذ النظر من اللون الأبيض المتعب، بينما امتدت إلى جانبها شرفة واسعة تقينا من وهج الشمس وحرارتها.

وعهدت الآن بنظافة هذه الغرفة إلى سالم عبد العجوز، وهو أوفى مساعدي وأكثرهم إخلاصاً. وكان قد تعلم مع مضي السنين كيفية التصرف بمختلف أدواتي وأجهزتي وصيانتها، إذ أنه يدرك شدة اهتمامي بها وإن لم يكن يعرف حقيقة أهميتها. ومع ذلك كان يحدث أحيانا خارج غرفة الجراحة، إن أجده يفتح ربطة عادية بإحدى المدى الجراحية.

وأصبح من الأسهل علينا في المستشفى الجديد، أن نكون أكثر عناية بمرضانا الذين أجريت عليهم العمليات الجراحية،إذ بات في وسعنا أن نحتفظ بأربعة عشرة سريراً في أربع غرف واسعة طلقة الهواء، في ثلاثة أبنية مختلفة. أما بقية المرضى فكان من المحتم أن يظل على الأرض كما في الماضي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتقع مستودعاتنا الأربعة ومطبخنا في نهاية هذه المملكة الصغيرة. واحتلت طباختنا فاطمة هذه المملكة بكل ما لديها من قدور وأدوات.

وهكذا أتيح لنا الاستقرار في آذار عام ١٩٥٥م، بعد نحو من خمس سنوات في مملكتنا الجديدة. ولكني لم أتخل نهائياً عن الحصن القديم. فلقد كان من أجمل الأبنية في حضرموت، وأكثرها إثارة للإعجاب، إذ أنه مشيد على الطراز الحضرمي، وفي الإمكان رؤيته من مكان بعيد من طرف البلدة الشرقية. وكان مما يحز في النفس أن يكون هذا البناء في مثل هذه الحالة من الانهيار. وكان من المحتمل أن تنهار الطبقات العليا منه في أي يوم، وأن تتهاوى على المستشفى الجديد الذي شيد عند أقدام الحصن. واضطررت إلى مراجعة حكومة القعيطي لحملها على هدم هذه الطبقات. ومع ذلك احتفظنا ببعض الغرف الفسيحة المضيئة لمرضانا المصابين في رئاتهم، وبنزل يحل فيه البدو الذين لم كونوا من المصابين بأمراض خطرة .

وقال لي أبن أخي الذي ساعدنا في الانتقال إلى المستشفى الجديد،والذي تولى دهن خزائننا باللون الأخضر الجميل... « إن الإصلاح والتحسين هما ورقتنا الرابحة» . أجل لقد كان التحسين هو النقطة الأولى التي أوليتها اهتمامي منذ اليوم الأول لوصولي إلى شيبام ومن قبلها إلى اليمن. وقد تعلمت بدوري أشياء كثيرة وهائلة. أجل تعلمت أن في وسعنا أن نصنع المناضد والرفوف والمقاعد من الطين والكلس، وأن نسند منضدة العمليات بالفروع ذات الشوكتين من الأشجار إذا ربطناها بالصوف والقطن إلى المنضدة،وأن قدور الطهي يمكن أن تستخدم لتعقيم الأربطة. وتعلمت أيضاً من تجاربي في الحقل الطبي المجرد، أن في وسع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنسان أن يمضي في عمله رغم الافتقار إلى المواد الأساسية. وتحتم علي أن أكون شديدة الاقتصاد والتوفير في استخدام العلاج. وهكذا كنت أضطر أحياناً إلى التقرير ما إذا كنت في هذه الحالة أو تلك تتطلب حقاً مثل هذا العلاج، أو أن في الإمكان مداولتها بطريقة أخرى. وقد حققنا في معالجة الجراح السيئة والبثور مثلاً المعجزات برباطات مشبعة بالماء المالح، مما وفر علينا الكثير، وكثيراً ما اضطررت في حالات أخرى إلى العمل بأقل ما يمكن من العلاجات. ولن أنسى ما حييت المرأة التي لقيتها في وادي بن علي. وكانت مصابة بذات الرئة وهي حامل في الشهر السادس. وقد أعطيتها أبرة بنسلين ذات ثلاث ألف وحدة واتبعتها بثانية في اليوم التالي بنفس القوة أيضا. ولم يكن باستطاعتي أن أعطيها أياً من أقراص « الإم . بي» إذ أننا لم نكن نملك أياً منها. وبعث إلي زوجها في اليوم التالي، برسالة قال فيها أن زوجته قد تحسنت كل التحسن، وأنني لن أحتاج لزيارتها مرة ثانية. وكانت هذه الرسالة تعني شيئاً واحداً ... وهو أنه لا يريد أن أعالج زوجته. ولم أستطع في مثل هذه الظروف القيام بزيارتها ولذا فقد أرغمت على أن أتركها وشانها تواجه قدرها. ولكنني دهشت كل الدهشة عندما علمت أنها سرعان ما تعافت وأنجبت طفلاً في منتهى الصحة والعافية.

وأدركت من هذه الحالة وحالات مماثلة أخرى، أن علينا عمّا قريب أن نواجه مشكلة العلاج بكميات أقل من المألوف من الدواء. ولم يكن من السوء في شيء أن نحرص على كل قرص أو قارورة من أقراص الدواء، وقارورات، وأن نرى ما إذا كان حقاً ضرورياً في هذه الحالة أو تلك من الحالات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونقلت فكرتي هذه إلى مساعديّ، إذ لا جدوى من أن أوفر أنا بينما يواصلون هم سياسة الإتلاف والتبذير في استخدامه.

وسهلت علينا الأمور كل السهولة في مستشفانا الجديد. ولم تعد كل حالة تواجهنا بالمشاكل نظراً لافتقارنا إلى كل شيء. وبدأ افتقار مرضاي للفهم يتضاءل أيضاً، إذ أن ما نقوم به من أعمال، سرعان ما انتشرت بصورة متدرجة عند جميع قطاعات الأهلين.

ونقل إلي مساعدي في « الحوطة» نبأ إصابة عدد كبير من أطفال المدارس بالبهارزيا. وحملت مجهري ورحت بسيارتي أقصد المكان لأتولى فحص الأطفال على مقربة. وسرعان ما انتشر نبأ زيارتي، ولم تمض طويل وقت حتى جاء الكبار إلي يرجون فحصهم. وجلست إلى مجهري أتصيد هذه الحشرات المؤذية الصغيرة، وسرعان ما تبين لي أن جميع السكان مصابون بهذا المرض المؤلم. ولم تعد القضية الآن مجرد مداواة للمرض بل باتت قضية منع المرض من الانتشار.

وكان الطبيب الألماني بيلهارز قد تمكن أثر جهود عظيمة لا تكل ولا تمل في القاهرة، قبل نحو من مائة عام، من اكتشاف أسباب هذا المرض الذي سمّي باسمه ونتائجه وآثاره. وتنتقل العدوى عن طريق ميكروب من الإنسان إلى حشرة من الحشرات الرخوية البطنية الأرجل، لتعود إلا الإنسان ثانية، وذلك في وسط مائي.

ودعاني هذا البحث أولاً عن هذه الحشرات في حمام المسجد. وكان من الواضح إنها غير موجودة فيه، إذ أن الحمام يفرغ عادة من الماء في كل أسبوع ثم ينظف ويعاد ملؤه بالماء. وهكذا لم يكن في الإمكان أن تعيش فيه الحشرات وتتوالد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت الآبـار أكثـر عمقـاً مـن أن تـؤمن الأوضـاع الحياتيـة المناسـبة لمثـل هـذه الرخويات. ورحت اسأل الأولاد عمـا إذا كانـت هنـاك بـرك أو أحـواض أخـرى للماء، ثم أضفت قائلة ... « هل مضيتم قبل بضعة أشـهر للاسـتحمام في سـيول الأمطار؟ وردوا جميعاً بأحناء رؤوسهم مطأطئين خجلاً .»

وقلت ... إذن أرشدوني إلى المكان الذي استحممتم فيه، حتى أجد إذا كـان المـاء فيه هو الذي أسقمكم. وإذا ما أرشدتموني إليه، كان في أمكاني أن أعينكم» .

واخبرني الأولاد آنذاك أن نائب «الحوطة» كان قد دعا بعد هطول الأمطار جميع رجال البلدة وأولادها إلى الاستحمام في« عقبة الشيخ» وأقنعـتهم بـأن يرشـدوني إلى طريق العقبة وتسلقت المكان بمعونة بعـض الأدلاء إلى أن وصـلت إلى أخـدود يصعب الوصول إليه. وسرعان ما وصلت بين الصخور الشاهقة إلى بحيرة صغيرة ولكنها عميقة. ماؤها نقي شفاف. وكانت الأمطار السائلة عبر القـرون الطويلـة من السوط قد صقلت هذه الجدران الصخرية الصفراء وخلقت هذا التجويف الذي غدا بحيرة عميقة تنعكس على مياهها الآن السماء الصافية الزرقاء وتبينت مـا الذي يحمـل أهـالي الحوطـة علـى الـسير سـاعتين أو أكثـر للاسـتحمام في هـذه البحيرة الصافية الباردة. وقد حرصت كل الحرص على أن لا أضع يدي في الماء إذ أنني رأيت عند حافته بعـض النباتـات المائيـة الـتي تعـشش فيهـا الحـشرات البطنية الصغيرة التي تنقل البلهارزيا. وكان المساء عندما استحم هؤلاء الناس، مرتفعاً إلى علو ستة أقدام. وعندما اهبط الماء، ظل الكثير من هـذه الحـشرات في مكان عال، وجف عوده. ولم تستحم نساء القرية وبناتها في هـذا المكـان، وهـذا يفسر لي، طبقاً لملاحظاتي السبب في إصابة الذكور من أهل « الحوطة» فقط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد نشرت في المنطقة كلها، إن مياه عقبة الشيخ، على الرغم من صفائها، مصابة بمرض خطر كل الخطورة. ولا ريب في أن هذا التحذير قد أنقذ الكثيرين من الإصابة بمرض. ولكن هل كان في وسع البدوي القادم من أماكن نائية من السوط، والنازل باتجاه العقبة عبر هذه المياه الصافية، أن يتوقف عن ري غلته بهذا الماء؟ وماذا يسع القرويين أن يفعلوا إذا كانوا لا يملكون إلا هذا المصدر الوحيد للماء؟.

فالتغلب في صراع الإنسان مع هؤلاء الأعداء المخادعين التافهين في منظرهم، كهذه الطفيليات مثلاً، يتطلب الكثير من الصبر وتحمل المشاق والمزيد من الإيضاح.

وطلت شهوراً طويلة أبحث في حوض منزل جيراني، كل يوم عن ديدان البعوض، لأقرر طبيعتها وعاداتها، ولأتمكن بذلك من مكافحة الملاريا. وتحتم علي مدة ثلاث سنوات أن أدفع عن مبارك « المجذوم» ضد السلطات التي لم تكن لتسمح له بالمعالجة أو بالبقاء في الحصن القديم.

وكانوا جميعاً يخشون من انتشار هذا ا لمرض الوبيل في البلدة. ولكن مبارك ما لبث في غضون عام واحد، أن فقد كل أثر من آثار المرض، وإن كان قد تحتم مواصلة العلاج له ثلاث سنوات أخرى، قبل أن يكون في الأماكن القول بأنه قد شفي نهائياً. وكانت السلطات تحول دون دخول أي مجذوم إلى المدينة، ويتولى الحراس وقفهم عند مداخلها، وطردهم عن طريق تهديدهم بالعصي.

وكنت إذا ما جلست إلى مجهري في المختبر، وعثرت على لوحة مهمة فيها ميكروب خطر،استدعيت جميع أعواني من فتيه وفتيات كما استدعيت كاتبي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عوض، لإطلاعهم جمعاً على هذا الميكروب. ثم قلت: (انظري يا مريم، لقد حصلت عليه من والديك. هل تلاحظين ذلك الشكل الذي يبدو كنقطة ماء في الوسط. إنها حشرة أميبية. وتتظاهر هذه الحشرة أحيانا بالانحلال، ولكن في وسع المرء أن يراها وقد تعلقت بكرية دموية حمراء . هذه هي الطريقة التي تتغذى عليها الاميبيات. وتبدو حشرتها هنا تحت عدسة المجهر، وكأنها غير مؤذية، ولا حول لها ولا طول ، ولكن عندما تعيش الألوف منها في جسدك فإنها تحدث تشققات في أمعائك، وتعيش على دمك، وتغدو مؤذيه كل الأذى وفي وسعك أن ترى أثر هذا الأذى على مرضاك. وعليك والحالة هذه أن تؤكدي لهم دائماً أهمية النظافة).

وكثيراً ما ألتقيت في الأصبحة بالسيد عبدالله بن مصطفى السمط، مدير المدرسة في المرتع الذي يفصل بين مستشفاي ومدرسته. وكنت ألتذّ كل اللذين بتحيته وباللغة العربية الفصحى والرخيمة التي يتحدث بها. ولقد علق أحد ضيوفي الأوروبيين ذات يوم على طريقة حديثه قائلاً : « أن الإنسان ليحس وهو يتحدث، بأن الكلمات تنساب جميلة من بين شفتيه» .

وكنت أتحدث إليه دائماً عن صحة الطلاب. وأتفق ةإياه على ضرورة صرف زيت السمك لهم، إذ أن أكثر من نصفهم تقريباً كانوا يعرضون علائم النقص في التغذية، كالجفاف الذي يطرأ على جلد اليدين والقدمين.

وكان المعلم هو الذي يتولى على الغالب نقل المرضى من الطلبة إلى المستشفى، إذ ندر أن يأتي منهم بدافع تلقائي من ذاته. وكنت أمكنهم أيضاً من إكتساب المعلومات النافعة، وأعرفهم بالفكرة القائمة وراء الخدمات الصحية. وهكذا كنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ننشر عن طريق هؤلاء الطلاب ما نريد من معلومات يتولون نقلها إلى ذويهم. وكنت أرى النساء في البداية شديدات التحفظ، ولكنهن شرعن بصورة متدرجة في المجيء إلى المستشفى وحمل أطفالهم والرضّع إليه، لاسيما وقد كنت كثيرة الاهتمام بشكل خاص بصحة هؤلاء الصغار. وكثيراً ما مات الأطفال في الفترة التي تنقضي بين الشهر الأول والعام الثالث من حياتهم. وتبين لنا نتيجة الفحص والتحري أن نسبة الوفيات بين الأطفال ترتفع إلى الثلاثة والستين في المائة.

وسألت عجوزاً في الستين من عمرها ... « اسمعي يا مسعدة، كم طفلاً ولدت في حياتك؟»

وترد على بصوت عال قائلة: « انتظري لحظة واحدة، دعيني أفكر. ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر... أجل أربعة عشر.»

- كم عدد الأحياء منهم الآن،
- هناك حميد في أديس أبابا وفاطمة وسهيره اللتان تعرفينهما.
- وهل مات جميع الباقين يا مسعدة؟
- فأخنت رأسها إيجاباً... ورحت أسألها : وكم كان عمر الباقين عندما ماتوا؟

وفكرت مسعدة برهة ثم أجابت : « كان محمد ولداً كبيراً عندما أصيب بالحمى ومات... ربما كان في الثانية عشر. أما أحمد فلم يكن قد بلغ الثالثة. وكذلك الحالة بالنسبة إلى الباقين. »

وقلت : « هل أنت متأكدة؟»

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- أجل كانوا صغار كلهم. إنهم لم يتجاوزوا شهرين أو ثلاثة أو ستة. فلقد أعانيهم الله، ثم أخذهم.

وعرضت على المئات مثل هذا التحقيق صورة مفزعة عن الوفيات بين الأطفال. وليس ثمة من ريب في أن بعضهم ولد ضعيف البنية، بينما مات البعض الآخر متأثراً من البرداء (الملاريا). وليس ثمة من شك أيضاً في أن الإصابات المعوية نتيجة الافتقار إلى النظافة كانت سبباً في الموت في حالات كثيرة . ولكن تجاربي دلتني على أن زبدة هذه الأمراض كانت تقوم في الافتقار إلى التغذية الصحيحة، وإلى ما فيها من خلل ولاسيما بالنسبة إلى الرّضع والأطفال . ويؤدي الاستمرار في الحمل إلى عجز الأمهات عن إرضاع أطفالهن مدة كافية، مما يدفعهن إلى الاستعاضة عن حليبهن بحليب الماعز وعصير التمر والماء. يضاف إلى هذا، أن القاعدة تقضي بعدم السماح للطفل بالخروج من البيت قبل انقضاء عام واحد على ولادته، وبهذا لا يتعرض الطفل لضوء الشمس مباشرة.

وهكذا سرعان ما يتحول الأطفال الذين ولدوا أقوياء البنية إلى مرضى شاحبين تقتلهم الأمبيات ويعانون من نقص التغذية على اختلاف أشكالها، فيموتون من أقل إصابة بالبرد أو الحمى، أو من جراء ما يحيط بهم من قذارت.

وهكذا ظل عدد السكان على حاله، نتيجة هذه النسبة المرتفعة في عدد الوفيات بين الأطفال، على الرغم من تجدد الأجيال كل خمسة عشر عاماً، وعلى الرغم من كثرة عدد المولودين. لكن حضرموت لا تستطيع على أي حال تأمين الغذاء لهذا العدد الكبير من السكان، من مواردها الخاصة. ولو لم يكن الوضع على هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النحو لما غ٧ادر البلاد عدد كبير من الحضارمة، وبعثوا إلى ذويهم من الخارج بالأموال اللازمة لإطعامهم.

ولم نحقق إلا تقدماً بطيئاً وإن كان مستمراً في مكافحة السل. ولقد كنا نحاول تعليم الأصحاء والمرضى على حد سوى، ما يجب أن يطعموه.

وراح صلاح يوضح لي أسباب الارتفاع في أسعار البيض بقوله ... « أن كل إنسان، يتناول البيض الآن. فأنت دائماً تصفين البيض والحليب لهم».

وخطونا خطوة كبيرة إلى الأمام بجهاز الأشعة الذي أبتاعه أسرة الكاف بطلب عاجل من طبيبهم لمستشفى تريم. وكنت أحمل في سيارتي « الفيل الأبيض» بين الآونة والأخرى إلى تريم بعض المصابين بالسل، لأخذ صور لهم بالأشعة. وكان طبيب تريم نفسه يتولى تحميض الصور وطبعها. وقد استخدمنا الأشعة أيضاً بنجاح في تصوير بعض الحالات المرضية الأخرى.

وجلست ذات يوم في « بنجلة» صغيرة ساحرة تقوم خارج شيبام ويستخدمها العقيد مقراً له عندما يزور الوادي، إلى مساعديه الأسكوتلنديين الشابين وصديقي بولا، وقد أسترخينا جميعاً نتناقل الأخبار بعد عمل النهار المتعب.

ووصل رسول ، انتضى رسالة لي من زنّاره، وقال: « بعث بي إليك طبيب تريم. وقد استغرق مني الوصول إلى هنا خمس ساعات، إذ لم أقابل في طريق أية سيارة شاحنة تحملني وألا كنت وصلت قبل ذلك ».

وفتحت الرسالة وقرأت فيها ما يلي: « سقط بستاني في بئر هذا الصباح. وقد إنكسر عموده الفقري ولكن نظراً لعدم إصابته بشلل أو ألم عنيف، فقد توافر لدينا الوقت لاستكمال أستعدادتنا ».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقلت ... « لقد أعطيت سائقي إجازة هذه الليلة حتى الثامنة من صباح غد».

وقال أحد الصديقين الأسكوتلنديين ... « إذا كنت تعرفين أين نعثر عليه، فسأبعث بسائقي مع السيارة للمجيء به».

وجاء عرفان بالفعل في غضون ساعتين. وأوضحت له كل شي ثم قلت: « علينا أن نرتحل عند الفجر. أعد السيارة الآن، ولكن امض للبحث عن عوض أولاً واطلب إليه أن يعطيك صفيحتين من الرباط الباريسي من مستودعنا في المستشفى».

واتجهت إلى بولا قائلة... « أتودين الذهاب معي إلى تريم؟ في وسعنا أن نفيد من مساعدتك». وقد قبلت هذا العرض.

وكان الظلام لا يزال مخيماً عندما شرعنا في رحيلنا في السيارة. وقد فكرت بالعلاج ونحن في الطريق. ولم يسبق لي أو لطبيب تريم، إن عالجنا عموداً فقرياً محطماً، طيلة عملنا في المهنة الطبية. وفتحت على ركبتي كتاباً للأستاذ لورينز بوهلر من فينا عنوانه« طريقه معالجة الكسور».

وقمت بفحص المريض في مستشفى تريم مع زميلي ورأيت صورة الأشعة لظهره المحطم. ولن يكون العمود الفقري محطماً فحسب بل كان العظم قد خرج من موضعه أيضاً.

وتوجد في المستشفيات العصرية المجهزة تجهيزاً طبياً وحديثاً، مناضد خاصة وأصفاد وأنطقة وبكرات، وحبال، لوضع المريض في وضعه الصحيح، ومعالجة عموده الفقري، أما هنا فلم تكن لدينا معدات من هذا النوع. وهكذا تحتم علينا من جديد أن نبتكر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووجدت على ضوء ما في كتاب بـوهلر مـن حـسابات تتعلـق بالأبعـاد مـن طـول وعرض وعدد لـضمادات الجـبس اللازمـة للتجـبير، إننـا في حاجـة إلى خمـسة وأربعين قدماً من المواد الداخلية الرقيقة. وبعث الرجل الـذي يعمـل البـستاني المسكين عنده خادماً له إلى السوق لابتياع كل ما نحن في حاجـة إليـه مـن قطـن. وقام أصدقاء البستاني بتقطيعه إلى أوصال بينما توليت أنا وبولا تقويته بالجبس المستورد من باريس. وراح طبيب تريم يعد المريض للعملية التي بات في إمكاننا الشروع فوراً فيها.

وقلبنا الرجل على بطنه، وأسندنا أعضاءه السفلى إلى مقعد منخفض، وطلنـا إلى أثنين من زملائه أن يتوليا إسناد جزءه العلوي. وقام كل واحـد منهمـا بإسـناد كتف من كتفيه، حتى نتمكن من حني حقويه إلى الوراء، وذلك لإعـادة فقراتـه إلى وضـعها المـستقيم، وإرجاعهـا إلى مكانهـا. وراح اثنـان آخـران مـن زملائـه يجذبان ساقية وذراعيه بأمر منا. وقمنا نحن بالضغط بعناية على خصره وعلـى نحره لنقوّم زحفه الجانبي. وشهدنا فجاءة رجّـه واضـحة. فلقـد إسـتقام الـشق الفقري الذي كان قد أتخذ شكلاً ملتوياً كحرف «S» في الإنكليزية ولما كنا نعمل على مقربة من جهاز الأشعة، فقد كان في وسع الطبيب أن يأخذ بصورة ثانيـة. ولم تكن النتيجة مرضية حتى تلك اللحظة.

ورحت أقول للجميع... « حاولوا ... لا تتخلوا عنه. أن شفاء الرجل يعتمد على معونتكم ».

وواصل أصدقاء الرجل الجذب والشد والدعم والإسناد بكل قواهم. وبذل الرجلان اللذان يمسكان بجزئه العلوي غاية ما لـديهما مـن جهـد. وتـصبب العـرق مـن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جبهتيهما، ولكنهم جميعاً لم يهنوا ولم يضعفوا. وأخيراً إستقام العمود الفقري تماماً. ورحنا آنذاك نضع أربطة الجبس ونغلف الجذع بكامله. وعندما إنتهينا من وضع الجبس أعدناه إلى سريره.

وكان الوقت مساء عندما إنتهينا، فأغلقنا غرفة الأشعة، ومضينا إلى غرفة الطبيب وكل منا يفكر بكل تأكيد... « ترى هل ينجح العمل».

وجف الجبس تماماً في الصباح التالي، وبات في وسعنا إلتقاط صورة جديدة له بالأشعة. وكان من السهل تصور القلق الذي انتابنا وسيطر علينا ونحن نظهّر الصورة. وارتاحت نفوسنا إلى مدى النجاح الذي حققناه في تقويم العمود الفقري. وقلنا للبستاني أن عليه يقف الآن. ونظر الرجل إلينا نظرة فيها كل معاني الفزع والجزع. وفقد القدرة على النطق. فلقد كان حتى هذه اللحظة لا يجرؤ حتى على تحريك ذراعيه وساقيه. وأعنّاه حتى وقف على قدميه... ورحنا نسأله ...هل تحس بألم؟

لا،أبداً

وشرع الرجل في المشي وبدأ يحس بالثقة في نفسه. وانعكست دهشته وفرحه على وجهه،وعلى وجوه زملائه والرجل الذي يعمل عنده. ورفعنا الجبس بعد أربعة أشهر وبات في وسعه أن يعود إلى عمله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وادي العمد

هبت ريح صرصر عاتية عبر الوادي. وتركت الرمال قطعاً مشرقة على الأرض، لا تلبث الريح أن تحملها وتدوّم بها، محيلة إياها إلى سحب تتشكل في كثبان رملية. وكانت الشمس تكبر حجماً لحظة بعد أخرى وتزداد شحوباً إلى أن أختفت أخيراً وراء سحب الرمل والشفق. واشتدت العاصفة عنفاً.

وتزايد جنونها في المحيط الرملي الواقع إلى ما وراء قطن. وامتلأ الهواء حولنا بالرمال المدوّمة. وكان من العسير علينا أن نجد طريقنا بسيارتنا« الفيل الأبيض»، كما كان من السهل علينا أن نفقد الإحساس بالاتجاه. وقد درست الكثبان الرملية المسطحة، آثار السيارات القديمة، وإطارتها من موضعها.

وأطلت بعض أشجار منعزلة وبعض أجمات الشوك من وراء الضباب الرملي وكأنها أشباح، لتعود فتختفي بنفس السرعة التي ظهرت فيها. وغطت الرمال كل شيء. ولففنا جميعاً رؤوسنا بالشالات وراحت السيارة تسير بآخر ما لديها من قوة على الاندفاع. وجلس عرفان متوتر الأعصاب إلى المقود، فهو لا يريد أن تغرز سيارته في الرمال على أي حال.

وراح يقول ... « ها قد وصلنا إلى البئر. ألا ترين شجر الطرفأ؟ عندما نصل إليها، يكون الجزء الأسوأ من الرحلة قد أنتهى ».

وأختنق محرك السيارة بصورة مفزعة، ولكن عرفان ما لبث أن تغلب على الصعوبة. وتوقفنا عند البئر المنعزلة، لنتيح المجال للآلة التي تزايدت حرارتها للبرود. ورأيت فجأة أن مبرد السيارة (الراديتور) مثقوب، وأن الماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغالي يتسرب منه إلى قعر السيارة. وكان الناس في حضرموت يصلحون مثل هذه الثقوب بالأسمنت، ولكننا لا نملك منه شيئاً هنا. ووضعنا بعض الصوف المزدوج بالطين والرماد، ليمسك الثقب، وقد نجحنا في التجربة مدة ربع ساعة كنا قد وصلنا في نهايتها إلى الأكواخ التالية.

وكان الظلام قد خيم في غضون ذلك، وخبت العاصفة الرملية فجأة. وأقعى عرفان على ضوء مصباحنا، تحيط به وجوه نصف مضيئة، يعد، معجونا من الرماد والسكر. وقد ثبت الخليط هذه المرة. ومضينا نستعمل السيارة سنة أخرى دون أن نرفع هذا الخليط.

ولما كنا قد أضعنا وقتاً طويلاً، فقد قضينا الليل في دار الضيافة القائمة في « الحورة»، وهي المكان الذي يلتقي فيه وادي حضرموت الأصلي بوادي دوعن.

وكنا نهدف إلى الوصول إلى وادي العمد القائم في مقاطعة دوعن. ووصلنا في الصباح التالي إلى مدخل الوادي، وشرعت الطريق في الصعود. وكانت الأميال القليلة الأولى تمر في أرض جرداء قاحلة. وصادفنا هنا أكواماً من الحجارة والتلال الرملية، ومجموعة من فتات الخزف وبقاياه التي تقيم الدليل على أن مدينة كانت تقوم ذات يوم في هذا الوقع. وقد غطت الرمال بصورة متدرجة بقاياها، التي تضم على الغالب الكثير من المعلومات عن الأجناس البشرية التي عاشت هنا ذات يوم. وقد حسرت الأمرأتان الإنكليزيتان جرترود كاتون– طومسون وايلينور غاردنر في شتاء عام ١٩٣٧– ١٩٣٨، النقاب عن خرائب معبد للقمر في هذا المكان. وكانت معهما فريا ستارك، التي سافرت إلى حضرموت قبل عامين، وقدّرت وجود خرائب أحدى المدن في مكان لا يبعد كثيراً عن حريدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما نقبت جرترود كاتون – طومسون عن هذا المعبد، لم تعثر على أسس أسوره فحسب، بل وعلى حجارة تحمل كتابات حميرية تشير إلى أن المعبد كان مكرّساً لخدمة« سين» آلهة القمر. ووجدت أيضاً بقايا بعض الأدوات المنزلية المصنوعة من الخزف، وأوعية من الحجر كان البخور يحرق فيها.

وعثر المنقبون أيضاً في كهفين لا يبعدان كثيراً عن المعبد، ويقعان على المنحدر الصخري للجلاميد الشمالية على مزيد من هذه الأدوات الخزفية وأوعية البخور، تشبه إلى حد كبير ما عثر عليه منها في فلسطين والتي تمت إلى الحقبة التي تسبق المسيحية، كما عثر على بعض القلادات والمسابح الحجرية. وكشفوا أيضاً عن أختام خفيفة من النوع الذي كان معروفاً في مملكة فارس بين عامي ٥٥٩ و ٣٣٠ قبل الميلاد.

وكان المعبد القمر في « حريدة» هو أول أثر وأخره اكتشف في حضرموت. وفي وسع الإنسان الوصول إلى استنتاجات عدة من طبيعة البناء وأعمال الحجر، ومن شكل اللبن المستخدم في البناء والأدوات المصنوعة والكتابات والمعلومات المستقاة من الحوائج التي وقعت في العصر الحجري. وتقول جرترود– كاتون طومسون أن تاريخ هذه الخرائب يعود إلى المدة الواقعة بين القرنين الثالث والخامس قبل الميلاد.

ورحت أزور المعبد. لقد عاش أساس البناء إلى حد كبير للغاية. ولابد أن تكون هناك درجتان إلى الجانب الغربي وأن تؤديا إلى قاعة تقوم إلى أعمدة، إذ أن قواعدها لا تزال ظاهرة حتى الآن. وكانت حجارة هذه الجدران منحوتة، ومرتبطة بعضها إلى بعض. وقد عادت الرمال فغطت خرائب المعبد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وواصلنا رحلتنا ووصلنا عند هبوط الظلام إلى المكان الذي نقصده وهو بيت« شراقي باتيس»، في الطرف العلوي من وادي العمد، أو عند نهاية الطريق.

وكان سالم باتيس أحد مرضانا عدة أسابيع في شيبام. وكان يشكو من نمو « فطراني» في القدم يسبب ألماً لها كلها، ولا يعرف الطب حتى هذه الساعة علاجاً لهذا المرض. وقررنا أن نقطع قد سالم كلها. واعد له نجار من شيبام، قدماً خشبية. وكثيراً ما رأيت بدواً يسيرون إلى جانب إبلهم على مثل هذا الطراز من الأقدام. وقد قررت أن أوصله بالسيارة إلى أهله، فور تمكنه من الاعتماد على هذه القدم، وأغتنام الفرصة في الوقت نفسه للقيام بزيارة طويلة لوادي العمد.

ولم يتوافر الوقت لدى سالم ليبعث إلى أسرته بموعد عودته. ولكن ما كدنا نصل إلى طرف حقول « شراقي باتيس» عند الغسق حتى أحاط جمع حاشد من الرجال والصبيان بسيارتنا وكلهم من ذوي القامات الممشوقة الذين يرتدون « الفوطة» تاركين القسم العلوي من أجسادهم عارياً وقد جاء يحيون مريضنا بفرح طاغ. وجاءوا بحمار يحملونه عليه إلى منزله. ورحت وجماعتي نتبعه بعد قليل على ضوء المصابيح عبر أحدى قنوات الري ولم تمض عشر دقائق حتى لاحت لنا في الظلام هياكل الدور. ومشينا وسطها صعداً إلى الحصن الأعلى من القرية حيث ارتقينا سطحه. وكان في مكتبي أن أرى من هذا المرتفع « سالم باتيس» على ضوء المصابيح وقد أحاط به لفيف من الأقارب والأصدقاء يشتركون في حديث كله حياة. ولم تمض لحظات حتى خلت الشرفة من الناس وجاء أخوة سالم وأبناء عمومته بعد لحظات إلى السطح الذي نجلس عليه ليروا الطبيبة ورفاقها بعد أن حدثهم عنها سالم طويلاً، وعلى الرغم من ريح الليل الصرصر العاتية فقد جلس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هؤلاء الرجال من ذوي الأجساد البرونزية، عاري الصدور، لا تستر عوراتهم إلا « فوطات» خضراء ترتفع فوق الركبة.

ولم تطل مدة زيارتهم لنا، إذ ذبحت الذبائح في غضون ذلك، وشوي لحمها واعد للطعام. واجتمعت الأسرة ثانية على شرفة سالم، وأن ظل بعض إخوانه وأولاد عمه معنا. وجلسنا كلنا إلى عشاء فاخر.

ونمت على السطح تلك الليلة. وشعرت بالتجمد من البرد وأحتجت إلى كل ما توفر لي من غطاء وكساء للحفاظ على حرارتي.

وعلى بعد بضع ياردات مني، كانت هناك خلية نحل صغيرة على السطح وهي أنبوبة من الفخار، استعاض بها النحل عن جذوع الشجر، وأعمل فيها ثقباً صغيراً في رأسه، يستخدمونه في الدخول والخروج من الخلية. وكان النحل في هذا الفصل من السنة، في سباته الشتوي، فهو لا يخرج ويطير بحثاً عن العسل، إلا بعد نزول المطر، وبعد أن تزهر أشجار الألب، ولذا لم يكن ثمة ما أخشاه منها.

وأقمت عيادتي المجانية في الصباح التالي، تحت أحدى أشجار الألب الضخمة نظراً لعدم وجود مكان صالح آخر. وجلست إلى حصير. ووضع عبدالله صندوقته التي تضم الأدوية والعلاجات إلى جانبي، كما أختار صندوقاً آخر أضع عليه مجهري. ووقف جميع أهل القرية في حلقة واحدة حولي، وكان نحو من نصفهم من المرضى حقاً، بينما كان النصف الآخر من المتفرجين ليس إلا وحافظ شيخ القبيلة وهو رجل عجوز مدرك، على شيء من النظام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان أبناء« الباتيس» من البدو الذين يعيش بعضهم في الوادي والبغض الأخر في السوط. وهناك طريق بدائية صغيرة أشبه ما تكون بالعقبة التي تؤدي إلى الصخرة المقابلة لشرقي باتيس، هي سبيل الاتصال بين الجماعتين ويميل بعض الفتيان وصغار الفتيات أحياناً لزيارة أبناء عمومتهم في السوط إذ توجد هناك بركة لا ينضب ماؤها أيام السنة. وكان هذا المكان رائع كل الروعة للسباحة والاستحمام، ولكنني سرعان ما تبنيت النتيجة على ضوء مجهري، وهي البلهارزيا.

وبعد أن عالجت نحوا أربعين رجلاً وامرأة، واشتدت حرارة الشمس التي تنفذ أشعتها عبر أوراق شجرة الألب. مضيت إلى الخرابة المقابلة لأعولج صبياً عاد من الخارج يحمل مرضاً في رئته، فهو يريد الموت، أن لم يشف، مع أهله وعشيرته. وكان في مكتبي أن أستريح بعض الوقت في هذا المنزل، بينما كان عرفان و عبدالله يحملان بعض المرضى ومرافقيهم في السيارة لنأخذهم معنا إلى شيبام.

واضطررنا إلى الوقوف باستمرار في رحلتنا. وشعرت بالإنهاك بعد أن عاينت مريضي السادس والسبعين في ذلك اليوم، وهو رجل عجوز يشكو من مرض في قلبه. وأثلج فؤادي فرحاً عندما وصلت إلى بلدة العمد الصغير وعثرت فيها على مأوى مريح في دار تملكها الحكومة. وكان في أمكاني أن أسترخي هنا وأستريح أمداَ دون أي إزعاج.

وكان الليل قد شهد عاصفة شديدة من الرعد والبروق لم تصحبها على أية حال زخات شديدة من المطر. ولم يحل منتصف النهار حتى كان الماء قد اختفى تماماً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن تحتم علينا على أي حال، أن نخوض السيول الناجمة عن المطر ست مرات على الأقل. وغطت دواليب السيارة في إحدى المرات حتى العمود الذي يربط بينهما في الوحل، وجاء عمال الحقول فأعانونا على الخلاص من ورطتنا. اضطر عرفان مرة ثانية إلى قيادة « الفيل الأبيض» في ممرات ضيقة عبر السدود والشطآن العميقة، ليشق طريقه فيها، وكنا عندما نواجه مثل هذه المصاعب نزل من السيارة ونسير على أقدامنا لنخفف من ثقلها.

ورأيت بين الذين يتفرجون علينا، وهم كثر، في أحدى المرات بدوياً شاباً، جاء يشكو إلي متاعبه عندما عرف هويتي الطبية، ووجدت أنه يشكو من البلهارزيا أيضاً. وقلت له... « عليك أن ترافقني إلى شيبام لنتولى علاجك هناك بعض الوقت»، ورأيته يستقل السيارة بدون تردد أو تفكير ليمضي معنا.

وتقوم في بداية وادي العمد حيث يعيش « الباتيس» عدة ينابيع من مياه الأمطار، وهي تنتج ما يكفي من مياه الشرب للسكان. وأمكن الوصول في برج الوادي إلى المياه الجوفية عن طريق أبار يتراوح عمقها بين المائة والستين الثلاثمائة قدم. أما في وسط الوادي فليس ثمة من ينابيع أو آبار جوفية. ويعتمد كل هذه المنطقة كل الاعتماد على مياه السيول التي يجمعونها في أحواض تتراوح أعماقها بين الثلاثة والأربعة والخمسة الأمتار.

وبرهنت لي العادة التي رأيتها في مشهد علي، والتي تقوم على إطلاق ماء أحد الأحواض التي ملئت حديثاً بالماء للاستعمال في السنة التالية بعد تلاوة الأدعية والصلوات والابتهالات إلى الله، على أن الماء يعتبر في هذه المنطقة نعمة الله الكبرى، وأن السكان ينتظرونه في كل عام بفارغ الصبر. وهناك في بعض أماكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقنية تعلوها القباب، مهمتها إختزان مياه السيول، وتلك أسرة أو أكثر هذه الصهاريج الجماعية، وتبقي عليها مغلقة تمام الإغلاق. ويعتبر شهر تموز وآب، الوقت الذي يتلهف فيه الناس« للغيث» ورحمة الله.

ويبدو أن الله سيستجيب هذا العام لأدعيتهم وابتهالاتهم بسخاء إذ أن السحب السوداء كانت تتكاثر عند المساء، وتهب رياح قوية جارفة معها الرمال وأمطرت السماء وابلاً في الليل. وكانت السيول كبيرة إلى الحد الذي فاض بالوادي، وراح ينصب في وادي حضرموت. وقضينا تلك الليلة في « حريضة» الواقعة في القسم السفلي من وادي العمد ودعانا « المنصب» علي بن أحمد العطاس إلى منزله جميعاً. وكنت قد حللت في عدد من زيارتي السابقة ضيفة على هذا السيد الذكي النبيل. وراء أنني بت مجهدة من الكشف على أكثر من ثمانين مريضاً في طريقي إلى ذلك المكان. ولهذا قدم إلي غرفة استقباله الواسعة الجميلة، وأبقى جميع الزائرين في الخارج قائلاً لهم أنني سأعقد استشاراتي الطبية في الصباح. ولكن تحتم علي، أن اشترك مع مضيفي وأفراد أسرته الصغيرة في تناول عشاء من الفراخ والأرز. وكان هذا العشاء ممتعاً بالفعل.

وحمل إلي المنصب في الصباح التالي دعوة لحضور مأدبة غذاء في بيت ابن عم مريضتنا الصغيرة عائشة. وكان المنصب قد لفت انتباهي إلى هذه الطفلة، التي تمت إليه بصلة القربى في إحدى زياراتي السابقة« الحريدة» إذ أنها كانت شاحبة اللون وتتعرض لنوبات من البرداء، وتسعل سعالاً شديداً. ولم تكن إصابة رئتها لحسن الحظ، قوية، ولذا كان في أمكاني بعهد معالجتها نحواً ستة أشهر في شيبام أن أعيدها ثانية إلى بيتها في منتهى الصحة والعافية. وكان أمها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قد توفيت عند ولادة طفلها الثالث، وباتت عائشة وهي كبرى الأطفال، تعيش مع أختها الصغيرة وأخيها في رعاية جدهم، أثناء غياب أبيهم في الخارج وهكذا كان أبن عمها هو الذي دعانا إلى المأدبة التي أقامتها عائشة على شرفي.

ولم تكن قيمة مثل هذه الرحلة إلى وادي عمد، في أنها تمكنني من معالجة عدد يتراوح بين الخمسين والثمانين مريضاً في اليوم بالإضافة إلى من ننقلهم من ذوي الحالات الخطيرة إلى شيبام، بل كانت في إقامة الدليل لسكان هذه المناطق التائهة على أن الرعاية الطبية هي في متناول الجميع من أغنياء وفقراء، شريطة أن يكونوا جميعاً على استعداد لتقبل العلاج. وكنا نعثر في جميع هذه المناطق على أنصار لقضيتنا يوالون تزويدنا بالمرضى. وهكذا استمر سيل الوافدين إلى المستشفى في الزيادة المطردة.

واستعلم عرفان في الصباح عن حالة الفيضانات والسيول، ومضى بالسيارة مسافة بعيدة على الطريق التي جئنا فيها قبل يومين. وكانت هذه الطريق قد قطعتها السيول الجارفة. وقادتنا رحلتنا المقبلة لحسن حظنا صعداً، حتى إننا تمكنا بعد الظهيرة من العودة دون أي مكروه إلى شيبام.

ولم نتوقف إلا مرة واحدة أخرى عند البئر في البحر الرملي. ورأينا هناك الرمال والصخور والسماء، وثلاث أشجار خضراء من الطرفاء، وبئراً ... وإلى جانب هذه البئر رأينا امرأة متنقبة بحجاب خضبه النيلج ترضع طفلاً من ثدييها ...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حققت هدفي

جلس تابعي الأمين العجوز سالم، ذات صباح من أيام شهر كانون الأول(ديسمبر)، خارج سور المدينة وقد ألتف « بلفحته» يلتمس الدفء في ذلك الطقس البارد من أشعة الشمس.

ووضع صلاح حقيبة علاجاتي إلى جانبه مسرعاً إلى السوق لشراء بعض الحاجيات ولإلتقاط آخر الأنباء والأقاويل.

ووثب الرجل العجوز على قدميه عندما وصلت البوابة، ووقفت إلى جانبه بضع لحظات. ولف الرجل« لفحته» وألقاها على كتفه ثم حمل حقيبتي، وراح ينقل إلي بعض الأنباء المتعلقة ببعض مرضاي، ونحن نشق طريقنا عبر البوابة. وعندما وصلت إلى شيبام أول مرة، كانوا يغلقون هذه البوابة الفخمة بدرابيس ضخمة ثقيلة. أما اليوم فتظل البوابة مفتوحة في الليل والنهر، إذ الغزو والسرقة باتا شيئين غير متوقعين. ومع ذلك ظل حسين يحتفظ بمسدس « الموزر» الجديد في بيته... وظل يقول لي... « لا يعرف أحد، فقد نجد أنفسنا مضطرين إليه يوم ما... »

أما في الصباح من أيام كانون الأول، فقد حلقت أفكارة في أماكن أخرى، وهو يقف خارج دائرة البريد يدرس لمصباح ضاغط.

وكان البريد الأسبوعي قد وصل. وسلمني موزع البريد المتميز بلفحته النارية الحمراء، حزمة من الرسائل، كانت أول ما أتلقاه منذ بدأت أزمة السويس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكنت أقف كل صباح من تلك الأيام الحرجة أسأل الذين أراهم مبكرين في الخروج من أهل شيبام ليجلسوا خارج الحصن، عن آخر أنباء الإذاعة فيردون بأن « إذاعة صوت العرب من القاهرة نقلت كيت وكيت» ثم يتلون على مسامعي أهم ما ورد في خطاب الرئيس عبدالناصر الأخير من نقاط.

ويروح بعضهم يردد على مسامعي ما أذاعته لندن وموسكو وباريس وصوت أمريكا وإذاعة الإمام من صنعاء.

وهكذا كان أصدقائي الشيباميون يصغون بإهتمام زائد إلى جميع الإذاعات العربية، وينقلون أنباءها إلي نقلاً موضوعياً دون أي تزويق أو تعليق. وكل ما كان يبدو في حديثهم، أنهم عندما يذكرون السويس، يقولون عنها « قناتنا» شأنهم في ذلك شأن الحضارمة جميعاً.

وكان كل واحد منهم ينتظر التطورات بهدوء ودون أي قلق ظاهر. ولما كان حسين قد عرف أن اتصالي بوطني قد انقطع منذ مدة، فقد التفت إلي الآن قائلاً « هل وصلتك رسالة من أمك؟».

ووجه إلي عين السؤال، محمد الشاب الذي خرج الآن من دائرة البريد، وقد بدأ عليه كذلك السرور البالغ، عندما رددت عليه بالإيجاب. وأستأذن محمد مني وأسرع الخطو عبر الميدان يحمل رزمة من الرسائل إلى والده كان قد يجلس في الشمس إلى جانب البئر خارج المسجد. وأحنى الولد رأسه بإجلال وقبل يد أبيه. وعندما رآني الرجل الشيخ، هب من مكانه بوقار ومشى إلي، وانتحى بي جانباً، وقال: « أنني أشكو بعض الألم في ركبتي اليوم يا طبيبة. لقد قضيت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليلة أمس مع زوجتي الجديدة في البيت الآخر. فهل تعتقدين أنها سممت ركبتي؟»

– اسمع يا أبا محمد، إنك تعرف إن هذا الألم في ركبتك في الماضي.وليس ثمة من شك في أن زوجتك براء منه. وأحس الرجل العجوز بهدوء النفس يعود إليه، ورجع إلى موضعه ينشد الدفء من حرارة الشمس.

ومضيت مع سالم عبد، بعد ذلك أواصل جولاتي الصباحية. ولقد سبق لي في السنوات الماضية أن دخلت كل بيت وعرفت كل ما فيه.

وكان أهل كل بيت من هذه البيوت بمثابة وجه لي، وتقوم وراءه مقابلاتي مع أهله، واختباراتي مع مصائرهم.

وهناك يعيش في بيت جميل، سالم عمر، الذي قضيت في حديقة داره أعذب الأمسيات إلى جانب البئر تحت أشجار النخيل السامقة. وكانت أمه امرأة بسيطة ساذجة تسير نحو العمى بخطوات بطيئة.

ويعيش على مقربة منه مظفر، الذي يملك مع أولاده، هو أكثر الناس أمانة ونزاهة، مخزناً كبيراً. ترى هل يقدر لحفيده أن يشفى من ذات الرئة؟

ومضينا قدماً والتقينا بوالد أمينة وقد جلس يتهامس مع عبد النجار خارج مشغله. وكان النجار وولده ينشران جذع شجرة من شجرات الألب، إلى ألواح يتجاوز سمكها، سمك إصبع القدم الكبير.

ورأيت عند الزاوية الأخرى، رجالاً آخرين يجلسون خارج المسجد وكأنهم لا يجدون شيئاً آخر يعملونه، وإن كنت أعرف إنهم أبان هذه المناقشات الكسلى، لا يتوانون عن القيام ببعض الأعمال التجارية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبقى أمامنا بيت آخر نزوره. وصعدنا درجاً ضيقاً مظلماً لنصل إلى غرفة منخفضة السقف. وتعيش بركة في هذا البيت، وهي تحصل على ما يقيم أودها من العمل في سقاية الماء، وتقوم بأداء بعض المهام لنساء الأسر الأخرى، وتساعدهن في الحفلات والمناسبات، وتتولى في الصيف حراسة بساتين النخيل التي نضجت ثمارها في شيبام. وكانت تعيش في مثل هذه الحالة مع حفيدها الصغير في كوخ في البستان. وعندما مررت بالبستان ذات يوم أبان نزهتي المسائية دعتني بركة إلى كوخها، وقدمت إلي قهوة ممزوجة بالقرفة. وكان بركة وهي امرأة تجاوزت سني الشباب، تشكو من آلام في ظهرها، تحول بينها وبين قربتها المملؤة بالماء من البئر في « سهيل» إلى المدينة. ولم تكن بركة على أية حال امرأة مهجورة منعزلة، إذ أنها كانت تعيش الآن مع أبنها وزوجته وهما يتوليان رعايتها.

وحملتني مرة أخرى على احتساء ثلاثة أقداح من القهوة الممزوجة بالقرفة. وقدمت كذلك قدحاً آخر إلى سالم الذي كان يجلس وراء الستارة التي تقسم الغرفة إلى قسمين.

وعلى الرغم من أنها امرأة فقيرة، إلا أنها كانت مضيافة، وكانت تجد دائما ما تقدمه إلى ضيوفها.

وقطع علينا سعيد الخياط طريقنا عندما عدنا إلى الشارع مرة أخرى. وقلت له: « اسمع يا سعيد، أريد أن تخيط لي بلوزة أخرى».

- هذا مستحيل يا طبية. فلدي الآن كثير من العمل لتأمين جهاز عروس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- ولكن عليك أن لا تحملني على الإنتظار طويلاً. فليس لدي الآن بلوزة واحدة ألبسها.
- سأقوم بخياطة ما تشائين في الأسبوع القادم أن شاء الله.

وأنسل الرجل يحمل قطعة من القماش التي أستلمها إليه، ماضياً إلى بيته. والتقيت التحية بعد ذلك على الصائغ عندما مررنا به يجلس أمام حانوته المشرع الأبواب. وكان النطاق الفضي الحضرمي الجميل الذي ألبسه من صناعة هذا الصائغ. عندما سألته عن ثمنه تناول ميزاناً صغيراً ووزنه بما يعادله من ريالات ماريا تريزا. وراح بعد ذلك يعين السعر طبقاً لمعدل التحويل الرسمي للنقد، وذلك لأن الصائغ يبتاع الريالات من القوافل التي تفد من اليمن، ليصوغها في مجوهرات.

وكان منهمكاً الآن في إعداد معروضاته للمعرض السنوي الكبير في قطن. ولن تمضي بضعة أسابيع حتى يغلق مشغله ويمضي ليجلس مع صندوقة حديدية صغيرة ملأى بالمجوهرات على مقاعد « قبة الخضر» التي ينتمي إليها مساعدي عبدالله، حيث يدخل في مساومات طويلة مع البدو وزوجاتهم الذين يفدون إلى المعرض.

ويقوم حانوت صائغ « النيكل» إلى جانب حانوت الصائغ، وهو يتولى صناعة « السماور» البخاري الذي لا يخلو منه أي بيت في حضرموت مهما كان أهله من الفقراء. وكان بعض مرضاي يحملون هذه « السماورات» معهم إلى المستشفى لئلا يحرموا من احتساء شايهم المحبوب. وكان آخر الحوانيت في هذا الصف، حانوت السبّاك « التنكجي» الذي يصنع من الصفائح القديمة وصفائح الزيت،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المغارف، ومناقل الفحم، والصناديق لشمع العسل في دوعن، وعشرات السلع الأخرى.

وكان هناك أيضاً حداد في المدينة. وكان مشغلة قريباً من دائرة البريد. وكان الحداد يتطفل في ذلك النهار على عملنا بمحاولة القيام بدور طبيب الأسنان. فقد اقعى بعير خارج حانوته بعد إن ربطت أرجله، وأمسك عدد من أقوياء الرجال، بالحيوان بشدة وعنف، يوثقونه بالجبال، ويفتحون فمه بوتد من الخشب، بينما تولى الحداد تقصير أحد أسنانه بملقط حديدي أصبح كالجمر من شدة الحرارة. وكانت هذه السن قد استطالت كثيراً، ومنعت البعير من المضغ كما باتت تؤذي شفته.

ولم يبق أمامنا الآن إلا عبور الساحة الصغير ة الواقعة بين المدرسة والمستشفى وكان ثمة سجن قبل سنوات يقوم في هذا المكان، ولكنه لم يبق طويلاً إذ إنه بني على بئر مملوءة بالماء. وقد أخذت أسس البناء في الانهيار بصورة متدرجة، إلى أن هوى نهائياً. ولم يكن فيه أي مساجين باستثناء شاب مجنون كانت أسرته تخشاه كثيراً. وكان النائب قد سمح له بالبقاء في السجن. ومع ذلك، فقد نقل المجنون إلى بيت أسرته قبيل الانهيار الذي أنذر الشقوق التي حدثت في البناء بوقوعه. وكان خوف أسرته منه قد ترك في نفسه خيبة أمل يائسة، كانت تحمله على التعرض لنوبات غضب شديدة، تدعوه إلى السباب والضرب في جميع الاتجاهات، كلما رأى والديه أو سمع صوتيهما. وكان الشخص الوحيد الذي لا يحس بعداء نحوه، هو خادمه القديم الذي كان يعني به، ويدخل ويخرج بهدوء من الغرفة الضيقة التي حصرته أسرته فيها. وقد اشتد جنونه، ولم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمض سنوات حتى مات ميتة شقية، إذ أنه رفض إن يأكل بدوافع الخوف، وكاحتجاج نهائي على كل ما يحيط به.

ونقل السجن إلى منزل خال في سهيل، مقابل منزلي تماماً. ولم يكن يضم أكثر من سجينين يتولى حراستها نحو من ستة جنود. وكان أحدهما مدفوعاً بغريزته الشريرة قد سمح لمواشيه بالرعي في حقل البرسيم الذي يملكه جارة، أما الثاني فقد تجاوز على حدود جيرانه، وليست هناك عدة حالات من السرقة أو القتل في حضرموت، ولذا فليس ثمة من حاجة إلى تطبيق العقوبات الصارمة المعروفة في اليمن.

ونسي السجن القديم، وشرع الأولاد يلعبون في الساحة، وعندما عدت إلى المستشفى رأيت عدداً من الأطفال يلعبون عند مدخله، وكان إسماعيل يطل برأسه من الباب، ثم قال وهو يكاد يطير من الفرج ... « لقد عملت كل شيء بدونك».

ورد على تحيتي عدد من الرجال بصوت واحد، قائلين« صباح الخير» وهم يحاولون اللحاق بي إلى غرفة الانتظار.

وقلت لهم ...« اعتقد أن العمل سيتم بصورة أسرع، لو دخلتم واحداً أثر آخر».

وكان إسماعيل ومريم قد دونا جميع المعلومات المتعلقة بالمرضى. ولم نعد في حاجة إلى سؤال المرضى عن أعمارهم، إذ كنا نتولى تقديرها، بعد أن رأيت أن الرد الذي كنت أتلقاه من كل شخص أسأله عن عمره هو... « عليك أن تعرفي فلقد دخلت المدرسة».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يحتفل الأهلون هنا بأعياد الميلاد، كما لا يحتفلون بالذكريات السنوية للوفيات... هذه هي سنتهم منذ الأزل وحتى الأبد...

وقد استهوتني هذه اللانهائية في الصحراء. ولكن عندما كنت أقول ...« في تلك الأيام الطيبة في الحصن» أو« الآن في المستشفى» فأنني كنت أحس بأن هذه السنوات حافلة بالتجارب وبالفرح الناجم عن القوة الخلافة.

وجلست عند الظهيرة بعض الوقت على شرفة مسرح العمليات، وأخذت أتطلع بين الأعمدة البيضاء، من فوق أسوار الشرفة إلى أشجار النخيل وإلى بساتين البلدة الممتدة. وكانت الأشجار تحمل قطوفاً من البلح الناضج ذي اللون الأصفر، وتتجاوب الهمهمات مع النسيم الذي يصفق على فروعها. وكانت السماء الممتدة متألقة بالزرقة الصافية. واستندت بظهري إلى الجدار وأحسست بالتعب، ولكنه تعب مختلط بالسعادة.

لقد حققت هدفي. فلقد أقيم المستشفى، وأصبح اسمه مشهوراً عند أهل الأرياف والمدن على حد سواء. وقد أرسيت أسس الخدمات الصحية في البلاد.

وكانت الأرياف المهمة التالية الحفاظ على ما خلفناه ومواصلته. وكان علي أن أعترف بأن جهود السنوات الأخيرة قد فرضت ضريبتها على صحتي وقوتي، وأنني وجدت نفسي مضطرة إلى التوقف لاستعادة صحتي، ولأعود إلى أوروبا دون أن أكون غريبة عنها تماماً. وعلى الرغم من أن القرار كان عسيراً علي، إلا أنني حزمت أمري على أن ابحث عن طبيبة أخرى تستطيع تسلم العمل مني والمضي فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعثرت على ضالتي المثالية في شخص أحدى صديقات الدراسة. وقضيت معها شهرين نعمل سوية، إلى أن وصلنا إلى نقطة، تحولت فيها العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بيني وبين أسرة مستشفاي إلى زميلتي، وبات الشعب على استعداد لوضع ثقته في الطبيبة الجديدة.

وعندما أقترب موعد سفري، قد حسين العجيم، بوصفه الصديق القديم منزله إلي لإقليم فيه مأدبتي الوداعية لأهل شيبام. ولما كنا لا نزال في شهر رمضان، فقد تقرر أن نقيم مأدبتنا في الليل بعد الساعة السادسة مساءاً، إذ أن الصيام لا ينتهي إلا بعد مغيب الشمس، عندما يسمح للصائمين بتناول الطعام وتضمنت قائمة المدعوين، مدير المدرسة السيد عبدالله بن مصطفى الذي حالت ظروفه على أي حال بينه وبين الحضور في اللحظة الأخيرة فبعث إلي بالرسالة التالية:

« الحمد لله رب العالمين... كتبت في هذا اليوم التاسع عشر من رمضان عام ١٣٧٦هـ الموافق ١٣ نيسان (أبريل)عام ١٩٥٧م».

« إلى دكتورة شيبام الجليلة والمحترمة، أبعث بتحياتي وبركاتي تسلمت بيد السرور دعوتك إلى الإفطار في بيت المحترم الشيخ حسين أبن أبي بكر العجيم. وكم كان يسرني لو حضرت. ولكن حادثاً عارضاً يحول بيني وبين الحضور. فأنا مشغول في بيتي بالضيوف الذين وفدوا عليّ، ولم أستطع العثور على من يحل محلي في إكرامهم. وأني لأرجو أن تغفري لي تغيبي، وأرجو أن شاء الله أن نلتقي في مناسبة أخرى.

« الشكر كل الشكر للأعمال القيمة التي قمت بها، ولما أبديته من عطف إنساني بالغ. وستغادرين حضرموت وتتركين سجلاً حافلاً وذكريات رائعة، إنك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ساعدت المرضى وأعنت المتألمين عن وعي وإدراك، وبحب وحرارة هؤلاء لمهنتك الطبية. ويجهر كل من اتصل بك أثناء عملك، بالثناء العاطر عليك. فليرعك الله، ولتذهبي بسلام، تصحبك ذكراك العطرة، إذ أنك احتللت المكان الذي تستحقينه في أفئدة الحضارمة جميعاً ولا سيما أبناء شيبام منهم.

« وإلى أن نلتقي ثانية أرجو أن أكرر اعتذاري إليك يا من كنت مثلاً مشرقاً للإنسانية الصحيحة.

التوقيع: عبدالله بن مصطفى بن سومط

ودعاني مجلس البلدة إلى حفلة وداعية في الليلة الأخيرة التي قضيتها في شيبام. كان هذا الجو الودي قد سيطر دائما على جميع علاقتنا الشخصية طيلة السنوات الماضية التي كنا لا ننفك على الاتصال أثنائها.

وألقى السيد مصطفى بن عبدالرحمن بن سومط بعد انتهى الجولة الأولى من احتساء الشاي الكلمة التالية: « مساء الخير أيها الحاضرون الكرام. باسم مجلس شيبام البلدي، وباسم أهل شيبام، أستمحيكم عذراً في أن ألقي على مسامعكم بعض كلمات أنني أود أن أعرب بلسانكم جميعاً عما يجب علينا كلنا أن نقوله بمناسبة رحيل الدكتورة ايفا هويك عن بلادنا.

« سيداتي وسادتي... ماذا يسعني أن أقول الآن وفي هذا المكان كأتعرف مني بالكفايات الجليلة والخدمات الإنسانية العظيمة التي قدمها هذا الملاك الطاهر في بلادنا؟ حقاً لقد كانت خدمات لا تقدر بثمن، وبارزة كل البروز، وستظل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محفورة في ذاكرتنا إلى أبد الآبدين. وأننا لنـود أن نؤكـد لكـي يـا سـيدتي بكـل إخلاص، أننا سنحتفظ بذكراك في أفئدتنا وإنك تركتي في نفوسنا أثر لا يمحى.

«ويعرف كل منا أن هذه الطبيبة قد نجحت في كفاحها الذي لا نهاية لـه لبنـاء مستشفى شيبام، وأن هذا المستشفى قد تم بناءه أخيراً.

« وأننا لجد فخورين الآن بوجود هذا المستشفى في بلدتنا، حيث قامت الطبيبـة فيه بواجبها طبقاً بما تمليه عليها مهنتها الإنسانية وكرامتها.

« ولعل اعترافنا بفضلها يكون أعظم أكثر أهمية، إذ أخذنا بعين الاعتبـار إنهـا قد قامت بمعظم عملياتها بنجاح في مستشفى يفتقر إلى جميـع المعـدات اللازمـة وهـذه هـي المـأثرة العظيمـة الـتي نـود الآن التأكيـد عليهـا بالإضـافة إلى المـآثر الأخرى.

« وسيترك رحيل طبيباتنا فراغاً كبيراً لا نستطيع أن نملأه أبـداً وسـيكون هـذا الرحيل خسارة عظيمة لنا ولبلادنا. ولكن أملنا عظـيم في أن تـستطيع خليفاتهـا الدكتورة دوهم ملء هذا الفراغ، وأن تقيم الدليل علـى أنهـا خـير خلـف لخـير سلف.

« وأخيراً مهمـا نـسيت، فلـن أنـسى أبـداً شـيئاً واحـداً، وهـو الوصـايا القيمـة والنصائح النافعة التي كانت دائماً تقدمها إلى الأفراد والأسـر مـن أبنـاء شـيبام وكذلك إلى الكثيرين من سـكان الـوادي، وإن لنأمـل في أن لا يطـول غيابهـا عنـا وإنها ستعود إلينا إن شاء الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

« وختاماً أرجو لك رحلة سعيدة، ورحلة جميلة إلى وطنك، وإني لأعود فأكرر أملي بأن تكتبي إلينا عندما تصلين إلى وطنك إذ أنا رغبتنا الساعرة هي أن تظلي على اتصال بنا، وأن نعلم عنك كل ما يحدث لك».

وحاولت أن أرد عليه، فقلت بعد قليل من التفكير... « السلام عليكم يأهل شيبام ورحمة الله وبركاته».

ولم يكن من السهل علي أن أترك شيبام التي أتيحت لي الفرصة فيها لأن عمل في مختلف الطرق. ومن المؤكد إن الأمور لم تسر دائماً سيراً هيناً سهلاً . لقد أذعنت أنا أيضاً لبعض الأمراض الاستوائية الحارة.

ومررت بفترات من اليأس والتعب، وكثيراً ما أحسست بأنني عبء على نفسي. ولم يكن يفرج عن نفسي إلا أن أمضي خارجة في المساء إلى الوادي، أتجول في آفاق اللانهاية من الرمال، بعد أن تكون شمس المغيب قد خلفت ليل حلته السوداء القاتمة. وكنت أحس مع كل خطوة أخطوها، بنفس أكثر تصوراً، وبانشراح يزيح عن نفسي تلك الكآبة، التي كنت أحس بها، فأعود هادئة منشرحة الخاطر إلى منزلي.

ولقد كانت الطبيعة بما فيها من جمال وكرم، لطيفة كل اللطف معي. وأحسست بحنين حارق إلى الوادي حتى قبل أن أغادر شيبام، لكل ما فيه من رمال مشرقة وصخور غريبة، وشمس مشرقة وألوان زاهية عنيفة. وقطعت السوط أخر مرة، أنا بطريقي إلى الشاطيء. لقد أحببت في هذا السوط مداه الفسيح العظيم، بكل ما فيه من ضوء وألق رجراج فوق التربة الرملية في النهار، ومن سماء صافية تملؤها النجوم وهدوء عجيب في الليل، بعد أن تخبو رياح وتهدأ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما زالت طرق القوافل القديمة قدم العصور تستهوي المغامرين وتدفعهم إلى السير فيها.

انتهى الكتاب بقول المؤلفة .. حققت هدفي على عكس الجزء الأول الذي سمي (سنوات في اليمن) والذي لم توفق ظالها المؤلفة من تحقيق هدفها .

طبع الكتاب الكترونيا على نفقة موقع شبكة حضرموت العربية
www.hdrmut.net ضمن المشروع الحضرمي الطموح
لجمع التراث الثقافي الحضرمي .. موسوعة حضرموت الثقافية ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com